كتاب الأمة

سلسلة دورية محكَّمة تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
Ministry of Endowments and Islamic Affairs
State of Qatar • دولة قطر

العدد: 208 رمضان 1446هـ السنة الرابعة والأربعون

لِمَاذَا تَأَخَّرَ المُسْلِمُونَ وَتَقَدَّمَ غَيْرُهُم

مِن سؤالِ العصرِ إلى جَوابِ الفِكرِ

م. أحمد حامد قشطة

م. أحمد حامد قشطة

* من مواليد مصر.
* حصل على درجة البكالوريوس في «هندسة الإنتاج والتصميم الميكانيكي»، كلية الهندسة، جامعة المنصورة، مصر.
* عمل مهندساً في عدة مشروعات ميكانيكية، لدى عدد من الشركات المحلية والعالمية.
* بدأ توجهه البحثي منذ عدة سنوات بالبحث في تاريخ ومعالم المدينة المنورة، وذلك إلى جانب عمله الأساس.
* مهتم بدراسة التراث العلمي في الحضارة الإسلامية، وبالأخص الجانب الهندسي منه.
* له عدد من الكتب المنشورة.. منها:
  - أسبقية العلوم الإسلامية عند فؤاد سيزكين.
  - على أعتاب بيت الحكمة.
* له دراسات منشورة في بعض المواقع الإلكترونية.. منها:
  - صفحات من تاريخ المكتبة الخالدية بالقدس الشريف.
  - الريادة الجغرافية للحضارة الإسلامية، ضمن مقاربة «سُوزانه بيليغ».

لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟

مِن سؤال العَصر إلى جواب الفِكر

أحمد حامد قشطة

الطبعة الأولى

رمضان 1446هـ

آذار (مارس) 2025م

أحمد حامد قشطة.

لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ مِن سؤال العَصر إلى جواب الفِكر.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2025م.

256 ص، 20سم – (كتاب الأمة، 208).

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:

الرقم الدولي (ردمك):

أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر

موقعنا على الإنترنت: www. Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾

(النساء: 83).

تقديم

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، لها دور ريادي بارز تُشكر عليه في نشر الثقافة الإسلامية، والفكر الوسطي المعتدل.

و«**كتاب الأمة**» يأتي ضمن هذا الدور، وفي إطار الجهود المبذولة؛ لبناء نخبة واعية بقضايا الأمة، وإعادة المسلم الفاعل في مجتمعه، والمتمسك بدينه، والمعتز بأمته.

ويأتي هذا الإصدار رقم (208): «**لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ من سؤال العَصر إلى جواب الفِكر**»؛ للمهندس/ أحمد حامد قشطة، حيث حاول في هذا الكتاب دراسة آراء عشرة مفكرين طرحوا هذا السؤال، وأجابوا عنه من وجهات نظر مختلفة، نظرا لتأثر المجتمعات بالأمراض الاجتماعية والفكرية التي تصيب أفرادها، مما ينعكس على المجتمع والأمة؛ لذا فبداية العلاج تشخيص المرض، ومعرفة أسبابه..

وقد حاول الباحث تلخيص ما توصل إليه هؤلاء المفكرون لعلها تكون بلسم علاج لتأخر المسلمين.

فالأمة بحاجة لإعادة بناء شامل لحصونها، وعلاج أمراضها المتنوعة؛ وفق قواعد الشرع، ومتطلبات الحاضر، ودراسة الممكن لإحياء الجيل المتمسك بدينه وهويته وثقافته وفكره وقيمه الإسلامية الحنيفية السمحة.

وما هذا الإصدار إلا محاولة لتقديم مفاتيح ما طرحه مجموعة متنوعة من المفكرين المسلمين، لقضية أرَّقت الوسط الثقافي والعلمي لعقود طويلة، وجاءت كتاباتهم بأفكار وأطروحات مختلفة بحسب رؤيتهم ودراستهم للقضية.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالَمِين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين.

وبعد:

فقد باتَ من المقرّر، في الدراسات الحضاريَّة، أنَّ الأممَ يسري عليها ما يسري على الأفراد من حالات الصحّة والمرض والوفاة، ولها أعمارٌ وآجال، وهي حين تمضي في هذه الحالات؛ فإنَّها تسيرُ طبقاً لقوانين محدّدة ومراحل مقدّرة تحكمها الأسباب والنتائج، وتصاحبها الأعراض والمضاعفات، حتى تنتهي الأمَّة إلى أجلِها ومصيرها المحتوم، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(الأعراف: **34**).

إلا أنَّ الله تعالى شرَّف الأمَّةَ الإسلاميَّة بأنْ عَصَمَها مِن أنْ تجتمعَ على ضلالة[1]، وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ عن الطائفة التي لم تزل على الحقِّ ظاهرة، فقال: «**لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ علَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ وهُمْ كَذلكَ**»[2]، وهي مِنَ الضمانات النّصِيَّة والعمليَّة على امتلاك القدرة على النهوض دائماً، والحيلولة دون الإصابات الموصلة إلى الوفاة، وإنْ كان ذلك لا يمنع عنها المرضَ والتوعّك.

---

(1) لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ اللَّهَ قد أجارَ أمَّتي أن تجتمِعَ علَى ضلالةٍ**»، أخرجه ابن ماجه (3950)، حديثٌ حسن.

(2) صحيح مسلم، رقم الحديث: 1920.

وفي هذا السياق، يُشير د. ماجد عرســان الكيلاني إلى أنَّ الأسباب التي تؤدي إلى مرض الأمم وتسوقها إلى آجالها، هي أيضاً أسباب مرض الأفراد وآجالهم؛ أي هي أسباب طبيعيَّة تتمثَّل في الهرم وانتهاء زمن الابتلاء المقدَّر في الحياة، وأسباب مرضيَّة تتمثَّل في مخالفة قواعد صحّة الأمم، واقتراف أسباب المرض أو الوفاة. والأسباب الطبيعيَّة لا سبيل إلى التحكُّم بها.. أمَّا الأسباب المرضيَّة فيمكن التدخُّل بها إيجاباً وسَلباً، مثلما يمكن التدخُّل في أسباب صحّة الأفراد وأمراضهم ووفاتهم[1].

(1) إخراج الأمَّة المسلمة وعوامل صحّتها ومرضها، د. ماجد عرسان الكيلاني، سلسلة كتاب الأمَّة (30)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الطبعة الأولى، صفر 1412هـ، ص 111.

لحظة الصِّدام وميلاد السؤال

على الرغم من إشارة بعض المفكِّرين إلى بداية شعور الأمَّة بهذه الأسباب المرضيَّة منذ وقتٍ مبكِّرٍ من تاريخها[1]، إلا أنَّ هذا الشُّعور قد بدا واضحاً في العصر الحديث عقب دخول الحملة الفرنسيَّة إلى مصر عام 1798م، وما صاحَبها من صدمةٍ حضاريَّة هزَّت العالَم الإسلاميّ من شرقِه إلى غربِه هزًّا عنيفاً، وما كان ذلك ليحدث بتلك الصورة المزرية لولا الخَلَل الحاصل في المِظَلَّة الجامعة للأمَّة، وضعف تطاوُل بُنيانَها الشرعيّ.

وفي أعقاب اندحار هذه الحملة عام 1801م، طُرِح أكبر سؤال في تاريخ الفِكر الإسلاميّ الحديث وما يزال يُطرح إلى اليوم: (**لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟**).. وبمرور السنوات ازداد هذا الطَّرح حِدّةً وإلحاحاً يوماً بعد يوم، على كافَّة المستويات السياسيَّة والثقافيَّة، وأصبح يُشكِّل هاجساً تعيشه النُّخب المثقَّفة والشرائح الاجتماعيَّة البسيطة سواءً بسواء[2].

---

(1) مثل إشارة المفكّر السُّوري عبد الرحمن الكواكبيّ (ت: 1902م) في كتابه (أُم القُرى) إلى أنَّ «**مسألة تقهقر الإسلام بنت ألف عامٍ أو أكثر**»، في إشارةٍ منه إلى سيطرة العناصر غير العربيَّة على مقدَّرات الدولة العباسيَّة، وبالتحديد منذ عهد المعتصم (ت: 227هـ/842م). انظر: عبد الرحمن الكواكبيّ: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م، ص 320.

(2) المسلمون وسؤال النهضة، أ.د. محمد زرمان، مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلاميَّة، جامعة باتنة 1، الجزائر، العدد الثامن، 1425هـ/2004م، ص 341.

وعلى مدى العقود اللاحقة، أعادَ المفكّرون العرب والمسلمون طرحَ هذا السؤال في صِيغٍ مختلفة وقوالب متجدِّدة، وقد تباينت إجاباتهم تَبَعاً لمدارسهم الفكريَّة وطريقتهم في النظر إلى مسبِّبات التأخُّر؛ فمنهم مَن حَمَّلَ الغرب المسؤوليةَ عمَّا آلت إليه أحوال المسلمين عموماً، وعن تأخُّرهم خصوصاً، ومنهم مَن بحث في عوامل هذا التأخُّر في الثقافة الغالبة لدى المجتمعات العربيَّة والإسلاميَّة، أو في طبيعة هذه المجتمعات، أو في نظام الحُكم، أو في جميع هذه الأسباب مجتمعةً[1].

وقد كان طرحهم لهذا السؤال إيماناً منهم بأنَّ العاقل هو مَن ينظر في التاريخ نظرةَ المُستفيدِ والمستَقِي مِن وقائِعه، فيأخذُ أسبابَ النجاحِ ويعمل بها، ويتدبَّر أسبابَ الفشلِ والتأخُّر فيَجتنبها، فالذي لا ينظرُ إلى الخلف ولا يدرسُ أسباب الفشل سيُكرِّر هزائمَه وهزائمَ غَيرِه، ومَن لا يتأمَّل أسباب عدم نجاحه وانتصاره فسيكونُ عِبْئاً على أُمَّتِه، وسبباً من أسباب هزائمها[2].

وبرغم صعوبة البحث في الأسباب المرضيَّة التي أدَّت لتأخر العالَم الإسلاميّ؛ نتيجةً لارتباطِها بأسبابٍ فكريَّة أساسها ما في الأنفُس من معتقداتٍ وثقافات، إلا أنَّ ذلك لم يمنع هؤلاء المفكّرين مِن خَوضِ غِمار هذا البحث ومحاولة تحليل الأسباب الحقيقيَّة لذلك التأخُّر؛ ذلك أنَّ «تَحديد الأسباب والعوامل التي تُعيقُ تنمية المجتمعات ليس بالأمر الهيّن؛ فتخلُّف المجتمعات ينتج عن سلسلةٍ من الأحداث الطويلة المترافقة مع التطوُّر العام

(1) وهذا هو الصحيح، كما ستُثبت الدراسة.

(2) أسباب نهوض الأمم: الدولة العثمانيَّة نموذجاً، محمَّد وائل الحنبلي، دار الرياحين، عَمَّان، الطبعة الثالثة، 1443هـ/2021م، ص 6، بتصرُّف يسير.

للبشريَّة، وعن العديد من الأسباب والعوامل التي تنبع مِن داخلِ المجتمع ومِن خارجِه»[1]. وقد عبَّر أحد الأدباء عن ذلك بقوله: «**أمران لا يُحدَّد لهما وقتٌ بدقَّة: النوم في حياة الفرد، والانحطاط في حياة الأمَّة، فلا يشعر بهما إلا إذا غَلَبا واستولَيا**».

- ثلاثة مذاهب رئيسة:

المتأمِّل في حقيقة الأجوبة الواردة على سؤال تأخُّر المسلمين، يجد أنَّها إنَّما جاءت على ثلاثة مذاهب رئيسة تمثِّل أقصى اليمين والوسط وأقصى اليسار، وبين هذه المذاهب عدد من المذاهب والمدارس والأفكار التي يصعب حصرها، وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الدراسة إنَّما عنيت بتتبُّع أجوبة أصحاب المذهب الوسط من المفكّرين العرب والمسلمين على سؤال التأخُّر.

وقد جاء هذا التعدُّد في الأجوبة تعبيراً عن عُمقِ الأزمة، ومحاولةً للنفاذِ إلى أغوارِ الواقع الإسلاميّ المتردِّي، ويمكن استعراض أقصى اليمين وأقصى اليسار وأشهر المدارس الوسط على النحو التالي:

(1) الرسائل الكاملة للمفكّر التركيّ سعيد حليم باشا، ترجمة: د. رامي البنا، مؤسسة وعي للأبحاث والدراسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2024م، ص 91.

المذهب الأوّل: يرى أصحابه أنَّ العالَمَ الإسلاميّ لم يتخلَّف إلا لأنَّه ابتعد عن دينه، وأهمل شريعته، وأنَّ دواءه يكمن في العودة إلى الإسلام الحقيقيّ الصحيح، والتمسُّك بالماضي، وإحياء التراث، واستنساخ حِقَبِهِ الذهبيَّة، والاكتفاء بما عنده من مقوِّمات.. وآثرَ أصحابُ هذا المذهب الاحتماءَ بالتراث الذي أضفوا عليه هالاتٍ من التقديس واعتقدوا أنَّه الحقّ ولا حقَّ بعده، واختاروا التَّقوقع والانغلاق على الذَّات وعدم الانفتاح على الآخر ورفضه رفضاً مطلقاً، مع الإصرار على أنَّ المسلمين لن يعود إليهم عزُّهم إلا باقتفاء آثار الآباء والأجداد.

المذهب الثاني: حمل أصحابه اتجاهاً مناقضاً ومعاكساً لأصحاب المذهب الأوّل؛ إذ رفعوا شعار أنَّ خروج العالَمَ الإسلاميّ من التخلُّف واللِّحاق بركب الحضارة المعاصرة لا يمكن أنْ يتم إلا باحتذاء الغرب شِبراً بشِبر وذِراعاً بذراع.. ودعا أنصار هذا المذهب إلى اقتباس الحضارة الغربيَّة بخيرِها وشرِّها وحلوِها ومرِّها، ورَمَوا التراث بالعُقم والجُمود، ودعوا إلى هدمِ صَرحِه ومحوه من الذاكرة، والانسلاخ منه إيماناً منهم بأنَّ عِلَّة المسلمين في إسلامهم، وأنَّ تخلُّفهم يكمُنُ في تديُّنهم، وأنَّ التراث سلاسل تقيِّدهم لتحرمهم من الحركة والتغيير، فرفضوه برمَّته بما في ذلك قِيَم الوَحي المعصومة.

المذهب الثالث: حاول أصحابه الوقوفَ في الوسط بين أصحاب المذهبين الأوّل والثاني؛ فرفضوا جمودَ الأولين وجحودَ الآخرين، وآمنوا أنَّ الحياة تتغيَّر كلَّ يوم، وكلّ تغيير تتبعه حركة تناسبه، وأنَّ هناك ثوابت ترتكزُ

عليها الأمَّة لا يجب أنْ تطالها الأيدي بالتبديل، وعلى هذا الأساس اعتبروا وجود التراث في المشروع النهضوي ضرورة لا غِنَى عنها؛ لأنَّه يحفظُ للأمَّة كيانها الدينيّ والتاريخيّ من الذَّوبان، ويحمي شخصيَّتها الحضاريَّة من التحلُّل، وكلُّ ذلك من الأسس العامَّة التي يقومُ عليها بناء المجتمع، ويكمن فيها مبرِّر وجوده وسرّ بقائه، ودعوا في الوقت ذاته إلى الانفتاح على الحضارة المعاصرة انفتاحاً مدروساً، والاقتباس من علومِها ومعارِفها ومخترعاتِها وخبراتِها الإنسانيَّة، واستقدام كلّ ما هو ضروري لتغيير حياة المسلمين نحو الأحسن، وكانت رؤيتهم تقومُ على الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح على العالَم المعاصر دون الذَّوبان فيه، والثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل[1].

ومِن أوضح الأمثلة على تكوُّن مثل هذه المذاهب الفكريَّة في العصر الحديث: ما ظهر في الهند عقب وقوعها تحت الاحتلال البريطانيّ سنة 1857م؛ إذ حدث صراعٌ عنيف بين المسلمين الذين انقسموا إلى معسكرين متعارضين: معسكر المتجدِّدين الموالين للمستعمرين، ومعسكر المحافظين المعارضين لأوروبا في جميع مجالات الحياة؛ فالأوّل يمثِّل العصر بتياراتِه ومعارِفه وتوجُّهاتِه الماديَّة والعلمانيَّة، ولا يعرف التراث وقِيَمَه وعقائده ومُثُله، ويريد أنْ يجدِّد كلَّ شيء.

(1) المسلمون وسؤال النهضة، أ. د. محمد زرمان، مجلة الإحياء، العدد الثامن، 1425هـ/2004م، ص 341 – 342.

والثاني يمثِّل القديم الموروث، ولا يعرف العصر، ولا يحسن التعامل معه، ويقول: ما ترك الأوّلُ للآخِرِ شيئاً، وليس في الإمكان أبدع مِمَّا كان؛ فلا اجتهادَ في الفقه، ولا إبداعَ في الأدب، ولا ابتكارَ في العلم، ولا اختراعَ في الصناعة، ولا تجديدَ في أمر الدِّينِ ولا في الحياة.

ظلَّ الوضعُ في البلاد الهنديَّة على هذا النحو فترةً من الزمن، بين مذهبين، يمثِّل أحدهما أقصى اليمين، والآخر أقصى اليسار، إلى أنْ اجتمعت نخبةٌ من العلماء سنة 1311هـ/1894م وقاموا بإنشاء حركةٍ تقرِّب بين الطائفتين، وتصلح بين المسلمين، وهي التي مثَّلت لاحقاً أشهر المدارس الوسط، ألا وهي (**حركة ندوة العلماء**) التي كان مِن أهدافِها إزالة الفجوة بين العلماء والمثقَّفين، والقضاء على العصبيَّات المذهبيَّة والفكريَّة، وإصلاح النظام التعليميّ[1].

(1) أبو الحسن الندوي: العالِم المربّي والداعية الحكيم، د. محمد أكرم الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص 31 – 33، بتصرُّف.

ذاكرة البحث في سؤال العصر

لقد كان انحطاط العالَم الإسلاميّ وسقوطه في وهدة التخلُّف إفرازاً طبيعيًّا لعوامل ذاتيَّة داخليَّة ما فتئت تنخرُ بنيانه حتى أنهكت قواه وأسلمته لحالة الانحطاط الفظيعة التي وصلَ إليها في العصور الحديثة.. وقد شمل هذا الانحطاط جميع مجالات الحياة وشؤونها، وألقَى بظلاله القاتمة على كلِّ القطاعات الحيويَّة في الأمَّة؛ في العقيدة والأخلاق والتعليم والسياسة والاقتصاد والاجتماع ... إلخ.

وعلى الرغم من الانهيار الشامل الذي أصابَ الحضارة الإسلاميَّة، بعد أنْ فقدت خطوط اتِّصالها بمذهبيَّتِها، وانحسرت أمام موجات النكوص، إلا أنَّ عوامل القوَّة الذاتيَّة فيها لم تمت وبقيت كامنةً في أعماقها، تطفو إلى السطح بين آونةٍ وأخرى، وتظهر في شكل حركات تجديد، تعبِّر عن القلق الحضاريّ الذي ينتاب ضمير الأمَّة الجمعي، وتمثِّل ردَّة فعل على مظاهر الانحراف والفساد، وتحاول مراجعة الماضي، وتقويم الواقع، ونقد الذات؛ للوقوف على أسباب التقهقر والسقوط، والتمهيد لإعادة بناء الكيان المتهدِّم، إلا أنَّ إكراهات الواقع الثقيلة كانت أقوى منها جميعاً[1].

ترجع المحاولات الأولى لفِقه أسباب تأخُّر المسلمين إلى نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، وتحديداً عقب مرور عقدٍ على الاحتلال البريطاني لمصر سنة 1882م، الذي شَهِد الإعاقةَ الأولى لمشروع التحديث على النمط الأوروبي الذي بدأه مؤسِّس مصر الحديثة محمَّد على باشا (ت: 1849م) في

(1) المسلمون وسؤال النهضة: 343 – 344.

بداية هذا القرن؛ إذ كشفت بعض الدراسات الحديثة عن أسبقيَّة محاولة المفكّر المصري **عبدالله النّديم** (ت: 1896م) في ارتياد ميدان الإجابة على سؤال العصر، وذلك على عكس ما كان شائعاً من أسبقيَّة محاولة المفكّر اللبناني **شكيب أرسلان** (ت: 1946م) في ارتياد هذا الميدان[1].

وفي الجدول التالي استعراضٌ لأبرز تلك المحاولات مرتبةً ترتيباً زمنيًّا:

م	اسم المفكّر	مسمّى العمل	سنة النشر
1	عبدالله النّديم (ت: 1896م)	بِمَ تقدَّم الأوروبيُّون وتأخَّرنا .. والخَلْقُ واحد؟!	1892م
2	محمّد فريد وجدي (ت: 1954م)	المدنيَّة والإسلام	1898م
3	عبد الرحمن الكواكبي (ت: 1902م)	أُم القُرَى	1899م
4	محمّد الطاهر ابن عاشور (ت: 1973م)	أليسَ الصُّبحُ بِقَريب ..؟!	1902م
5	بديع الزّمان سعيد النُّورسي (ت: 1960م)	الخُطبة الشاميَّة (ضمن صيقل الإسلام)	1911م
6	سعيد حليم باشا (ت: 1921م)	لماذا تأخَّر المسلمون؟ (ضمن سلسلة الرسائل الكاملة)	1918م
7	محمّد أسد (ت: 1992م)	الإسلام على مفترق الطُّرُق	1934م
8	شكيب أرسلان (ت: 1946م)	لماذا تأخَّر المسلمون؟ ولماذا تقدَّم غيرهم؟	1940م
9	أبو الحَسَن الندْوي (ت: 1999م)	ماذا خَسِر العالَمُ بانحطاط المسلمين؟	1950م
10	مُحمّد الغَزالي (ت: 1996م)	سِرُّ تأخُّر العَرب والمسلمين	1985م

(1) أشارَ د. محمد عمارة إلى تقدُّم النّديم وارتياده ميدان الإجابة العلميَّة الموضوعيَّة العميقة على سؤال العصر، وذلك قبل أمير البيان شكيب أرسلان بأربعين عاماً. انظر: تحقيقه لرسالة: (بِمَ تقدّم الأوروبيّون وتأخّرنا.. والخلقُ واحد؟!) للمفكّر المصري عبد الله النّديم، دار البشير، القاهرة، الطبعة الأولى، 1436هـ/ 2016م، ص 95.

هذا وقد وقع الاختيار على هؤلاء المفكّرين العشرة دون غيرهم؛ نظراً لتبنّيهم المذهبَ الوسط في الإجابةِ عن سؤال العصر، فكان انطلاقهم من ثوابت الأمَّة الدينيَّة التي لا تقبل التبديل والتحريف، مع إيمانِهم بضرورة الجمع بين الأصالة والمعاصرة سبيلاً لمنع ذوبان الشخصيَّة الحضاريَّة للأمَّة – السببَ الرئيس في هذا الاختيار– على الرغم من تباين وجهات نظرهم حول الإجابة عن ذلك السؤال الذي أرَّق مفكّري الأمَّة لعقودٍ طويلة.

ويمكن نسبة هذا الاختيار لعدَّة اعتبارات، على رأسِها:

1. **الاعتبار الزمانِي**: وذلك لامتدادهم على طول الفترة الزمنيَّة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر إلى نهايات القرن العشرين، وهي الفترة التي مرَّ العالَم الإسلاميّ خلالها بأحداثٍ جسيمة كان لها بالغ الأثر في ذلك التأخُّر، في الوقت الذي صعدت فيه بعض الأمم سُلَّم الحضارة والمدنيَّة كالصينيين واليابانيين[1].

2. **الاعتبار المكانِي**: وذلك لامتدادهم على رُقعةٍ جغرافيَّةٍ واسعة من العالَم الإسلاميّ، شملت بلاداً عديدة من شرقِه إلى غربِه كالهند وتركيا وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب؛ ما مثَّل ثراءً فكريًّا في تحليل أسباب ذلك التأخُّر الحضاري نتيجة تباين المواطن الأصليَّة لهؤلاء المفكّرين، واختلاف تكوينهم العلميّ وبيئاتِهم الثقافيَّة.

---

(1) انظر في ذلك دراسة بعنوان: النهضة العربيَّة والنهضة اليابانيَّة: تشابه المقدمات واختلاف النتائج، د. مسعود ضاهر، سلسلة عالَم المعرفة (252)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر 1999.

3. **الاعتبار الفكريّ**: وهو أهمّ هذه الاعتبارات على الإطلاق؛ فهذه الشريحة المنتقاة من المفكّرين جاءت لتُمثِّل طيفاً واسعاً من المدراس الفكريَّة الإسلاميَّة طول تلك الفترة الزمنيَّة، وعلى امتداد تلك الرقعة الجغرافيَّة الواسعة؛ نظراً لتعدُّد الخلفيات الفكريَّة التي تنتمي إليها تلك الشريحة، وهو الأمر الذي انعكسَ على تنوُّع وغزارة تحليلاتِهم لأسباب التأخُّر الحضاري، الذي أصاب العالَمَ الإسلاميّ في القرنين الأخيرين، كلٌّ بحسب خلفيَّته الفكريَّة.

وفيما يلي عرضٌ موجز لأعمال هؤلاء المفكّرين، يتبعُه تفصيلٌ لكلِّ عملٍ منهم على حِدَة:

- **عبد الله النّديم** في رسالته: (**بِمَ تقدَّم الأوروبيُّون وتأخَّرنا.. والخَلْقُ واحد؟!**) التي نشرها بمجلَّة (الأستاذ) سنة 1892م، وفيها أرجعَ تقدُّم الأوروبيين إلى أربعةِ أسبابٍ أصليَّة وسِتَّةٍ فرعيَّة – على ما سيأتي تفصيله –، وبافتقاد المسلمين لمثل هذه الأسباب؛ تراجعوا وتأخَّروا.

- **محمَّد فريد وَجدي** في كتابه: (**المدنيَّة والإسلام**) الذي نشره أوّل مرة سنة 1898م، وفيه ردَّ عِلَّة الانحطاط التي أصابت المسلمين إلى أنَّ «سوادَنا الأعظم لا يفهم من الإسلام إلا أنَّه محضُ صلواتٍ للعبادة، ومجرَّدُ دعواتٍ يُقصد بها قضاءُ الحاجات في الدنيا، أو نَوال الدرجات في الآخرة، وأمَّا ما فيه من آيات الحِكمَة، ومعجزات الفضائل التي بعثَتْ الأمَّةَ العربيَّة من جَدَثِ خمولها الأوّل إلى ذروة جلالتها التالية، فقد ضربوا عنها صَفْحاً، مع أنَّها هي لباب الدِّين، وزُبدة الإسلام،

والغرضُ الوحيد من إنزالِه وتشريعِه، إذ جاء الإسلام موفِّقاً بين مطالب النُّفوس من الحاجات المعنويَّة، وبيَّن مطالب الجثمان من الأشياءِ الماديَّة، ليكونَ المسلمُ كاملاً متعادلاً»[1].

- **عبد الرحمن الكواكبي** في كتابه: **(أُم القُرى)** الذي نشره أوّل مرّة سنة 1899م، وقد فضَّل فيه استعمال تعبير (الفتور العام) كوصفٍ لمشاكل الأمَّة ونواقصها، رافضاً تعبير (الداء الدفين) أو (المزمن) أو (العُضال)؛ ما يشيرُ إلى تفاؤله وإيمانه بالمستقبل المشرق لهذه الأمَّة، ونجده في هذا الكتاب قد أرجع حالة الفتور التي أصابت نفوس المسلمين إلى عددٍ مِن الأسباب الدينيَّة والسياسيَّة والأخلاقيَّة، على ما سيأتي تفصيله.

- **محمد الطاهر ابن عاشور** في كتابه: **(أليسَ الصُّبحُ بِقَريب)** الذي أوردَ في مقدِّمته أنَّه بدأ التفكير في تأليفه 1321هـ/1902م، وقد أرجعَ فيه تأخُّر المسلمين إلى ضعف التعليم، وعند فحصه الأسباب التي أدَّت إلى ذلك، وجدها على نوعين؛ أولهما: الأسباب العامَّة التي قَضَت بتأخُّر المسلمين على اختلاف أقاليمهم وعوائدهم ولغاتهم، ومرجعه إلى أسباب التأخُّر العام في العالَم الإسلاميّ. أمَّا الثاني: فيرجع إلى تغيُّر نظام الحياة الاجتماعيَّة في أنحاء العالَم تغيُّراً استدعى تبدُّل الأفكار والأغراض والقيم العقليَّة، وهذا التغيُّر قد استدعى تغيُّر

(1) المدنيَّة والإسلام، محمد فريد وجدي، تقديم: معتز شكري، مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع دار الكتاب المصري (القاهرة) – دار الكتاب اللبناني (بيروت)، 1434هـ/2012م، ص: 155.

أساليب التعليم ومقادير العلوم المطلوبة، وقيمة كفاءة المتعلمين لحاجات زمانهم[1].

- **بديع الزّمان سعيد النورسي** في: **(الخُطبة الشاميَّة)** التي ألقاها في سنة 1911م بالجامع الأموي بدمشق، وفيها شخَّص ما رآه من أمراض الأمَّة الإسلاميَّة الماديَّة منها والمعنويَّة، وقد جاءت في ستَّة أمراضٍ «جعلتنا نقفُ على أعتابِ القرون الوسطى، في الوقت الذي طارَ فيه الأجانب — وخاصَّة الأوروبيُّون — نحو المستقبل»[2]، وفي سبيل معالجة هذه الأمراض، بيَّن — في ستِّ كلماتٍ — ما اقتبسه مِن «فيض صيدلية القرآن الحكيم الذي هو بمثابة كليَّة الطبِّ في حياتنا الاجتماعيَّة»[3].

- **سعيد حليم باشا** في رسالته السادسة: **(لماذا تأخَّر المسلمون؟)** التي نشرها بمجلَّة (سبيل الرشاد) سنة 1918م، وفيها ردَّ تخلُّف المسلمين إلى عوامل اجتماعيَّة واقتصاديَّة وماديَّة، يمكن تعويضها بالتربية والتعليم، لكنَّه في الوقت نفسه رفض تحليلات الغربيين بردِّ هذا التخلُّف للإسلامِ نفسِه، فذلك نقلٌ للمشكلة إلى سياقٍ ميتافيزيقي

---

(1) أليس الصبح بقريب: التعليم العربيّ الإسلاميّ – دراسة تاريخيَّة وآراء إصلاحيَّة، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس – دار السلام، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1439هـ/2018م، ص 104.

(2) صيقل الإسلام، الخطبة الشاميَّة، ص 461.

(3) نفس المصدر السابق: 462.

وإهمالٌ للعوامل الموضوعيَّة، وهو بنفس الوقت هجومٌ غربيّ باسم الماديَّة على الإسلام لا يقلُّ عن الهجوم الصليبيّ باسم المسيحيَّة قبل ذلك[1].

- **محمَّد أسد** – واسمه الأصليّ **ليوپولد ڤايس** – في كتابه: (**الإسلام على مفترق الطُّرق**) الذي أصدره أوّل مرة سنة 1934م، وقد بيَّن فيه أنَّ «المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترقِ طرق؛ إنَّه يستطيع أنْ يظلَّ واقفاً مكانه، ولكنَّ هذا يعني أنَّه سيموتُ جوعاً، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: (نحو المدنيَّة الغربيَّة)، ولكنَّه حينئذٍ يجب أنْ يودّع ماضيه إلى الأبد، أو أنَّه يستطيع أنْ يختار الطريق التي كُتِبَ عليها: (إلى حقيقة الإسلام). إنَّ هذه الطريق وحدها هي التي تستميلُ أولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطوُّر نَحوَ مستقبلٍ حيّ»[2].

- **شكيب أرسلان** في رسالته (**لماذا تأخَّر المسلمون؟ ولماذا تقدَّم غيرهم؟**) التي نُشرت أوّل مرّة بمجلة (المنار) أواخر سنة 1940م، وفيها أشارَ إلى أنَّ المصائب التي حَلَّتْ بالمسلمين إنَّما هي ممّا صنعته أيديهم، وممّا حادوا به عن النهجِ السّويّ الذي أوضحه لهم القرآن الذي لـمّا كانوا عاملين بِمُحكم آيِهِ؛ عَلَوا وظَهَروا وكانت لهم الدُّول والطَّوائل،

(1) İsmailoğlu, İbrahim. "Kitap İncelemesi: er-Resâilü'l-kâmile li'l-mufekkiri't-Türkî Saîd Halîm Paşa". Akademik Analiz 2 (Nisan 2024), pg. 101.

(2) الإسلام على مفترق الطُّرق، محمَّد أسد، ترجمة: د. عمر فَرُّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، لا يوجد سنة للنشر، ص: 87.

فلمّا ضعف عملهم به وصاروا يقرؤونه بدون عمل، وانقادوا إلى أهواء أنفسهم مِن دونِه، ذهبتْ ريحُهم، وولَّى السلطان الأكبر الذي كان لهم، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم، ثمَّ قصدوا إلى أوساطها[1].

- **أبو الحسن الندْوِي** في كتابه: **(ماذا خَسِر العالَم بانحطاط المسلمين)** الذي نُشِر أوّل مرّة سنة 1950م، وفيه تناول مسألة تأخُّر المسلمين من زاويةٍ جديدة لم يتفطَّن لها سابقوه؛ إذ أرجعَ عِلَّة العالَمِ الإسلاميّ إلى الرضا بالحياةِ الدنيا، والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة. فمع إقراره بكلِّ ما أُصيب به المسلمون من عِلَّةٍ وضعف، إلا أنَّه نجح في إرساءِ مبدأ أنَّهم يمثِّلون الأمَّة الوحيدة على وجه الأرض التي تعدُّ خصيم الأمم الغربيَّة وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم.

- **محمّد الغَزالِي** في كتابه: **(سِرُّ تأخُّر العرب والمسلمين)** الذي نشره سنة 1985م، وقد أوردَ فيه أسباباً عدَّة لتأخُّر المسلمين؛ على رأسها «القحط الثقافي الذي حلَّ بتاريخنا من عدَّة قرون والذي أتاحَ للاستعمار أنْ يصنع بنا الدواهي!»، وكذلك «الجهل العام الذي أخذَ بخِناقِنا، في علوم الدِّين وفي علوم الدنيا على سواء».

(1) لماذا تأخَّر المسلمون؟ ولماذا تقدَّم غيرهم؟، الأمير شكيب أرسلان، مجلة الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، العدد (87)، يناير 2015م، ص: 101.

عبد الله النّديم

يعتبر المفكّر والأديب المصري عبد الله النّديم (ت: 1313هـ/1896م) في طَليعة المفكّرين الذين نبَّهوا شعوبَ الشّرق على الخطأ الذي وقعوا فيه عندما تنكّبوا طريقَ التقدّم، وساروا في عكس اتجاهه ولم يأخذوا بأسبابه، فسقطوا في وهم: أنَّ كلاً مِن التقدّم الأوروبيّ والتخلُّف الشرقيّ إنَّما هما ضربةُ لازبٍ ليس منها فِكَاك!

هو عبدالله بن مصباح إبراهيم، ينتهي نسبه إلى إدريس الأكبر، من أسباط الحسن بن علي، وُلِد بالإسكندريَّة سنة 1261هـ/1843م، فحَفِظ القرآن ولـمَّا يناهز التاسعة من عمره، وكان أبوه متوسّط الحال، فلمَّا لاحَت له مخايل نبوغه، أدخله معهد الإسكندريَّة الدينيّ، فدرس فيه ما درس من العلوم الدينيَّة واللغويَّة والعقليَّة، وأتقن فقه الشافعيَّة والأصول والمنطق، وبرع في الأدب والعلوم اللسانيَّة، وهو حَدَثٌ باكر الشباب، ونَظَم الشِّعر الرقيق، والنثر المحكم الرصين، وما لبث أنْ طارَ صيته وذاعت شهرته، وتسابق أعلام الكتَّاب والشعراء إلى مساجلته ومطارحته.

عُرِف النّديم أنَّه أحد الذين أضرموا نار الثورة العُرابِيَّة، فلما كانت موقعة (التلّ الكبير) في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة 1882م، فرَّ أحمد عُرابي وجماعة معه وتَبِعَهم النّديم، ثمَّ أُلِّف وفدٌ من الثائرين، واتّجه إلى الخديوي بالإسكندرية يلتمسُ عفوه، ولكنّ النّديم لم يُتم رحلته معهم، بل لجأ إلى الهرب، واختفى عشر سنين ضارباً في آفاق القرى، متنكِّراً بمختلف الأزياء، وقد جدَّت

الحكومة في طلبه، وأوصت بالعثور عليه، وأرصدت ألف جنيه مكافأة لِمَن يهدي إلى مكانه، وكان كثيرٌ من الناس يعرفُ مقرَّه وتنقُّله، ولكن كان أكرم عليهم وأحبّ لديهم، فلمَّا كان آخر عهد الخديوي توفيق عثرت الحكومة عليه فسُجِن أياماً، ثمَّ أمر الخديوي بإبعادِه إلى بلدٍ يُؤثِره، فاختار فلسطين منفًى له، وبعد أنْ لبث بها حيناً تنقَّل في مدن: الخليل، ونابلس، وبيت لحم، والمسجد الأقصى، ثمَّ عاد إلى يافا التي غادرها إلى مصر، حيث كان الخديوي قد أصدرَ أمراً بالعفو عنه.

أنشأ النّديم بعد عودته من منفاه صحيفة (**الأستاذ**) التي بلغتْ ما بلغتْ مِنَ الشهرة والصِّيت، وأثَّرت في أفكار الأمَّة ووجَّهتها، ثمَّ لم يطل بها البقاء فكان نصيبها التعطيل، ولقي النّديم ما لقي من الدسّ والكيد، وأُبعِد عن بلادِه مرّةً أخرى، وطاب له المُقام بالآستانة؛ إذ أكرم السلطان عبد الحميد وفادته، وآثره بالعطف والتقدير، وعُيّن مفتِّشاً للمطبوعات في هذه الديار، وظلَّ ينشرُ فضله ويذيعُ أدبه حتى استأثرَ الله به[1].

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

أودعَ عبد الله النّديم زُبدة أفكارِه حول فِقه التقدُّم والتأخُّر الحضاريّ في صحيفة (**الأستاذ**) التي سبقت الإشارة إلى أنَّها لم تُعمّر طويلاً، فكان مِمّا أودعه فيها مقالةً بعنوان: (**بِم تقدّم الأوروبيّون وتأخّرنا.. والخَلْقُ واحد؟!**)، نشرها

(1) الأزهر وأثره في النهضة الأدبيَّة الحديثة، د. محمد كامل الفقي، كتاب الأزهر، شوال 1445هـ، 263/1 – 270.

في سنة 1310هـ/1892م[1]، وفيها ظهرت عنايته بالبحث في العِلَل التي أوجبت تأخُّر المسلمين وتراجعهم، فَلَم يجد سبيلاً للتوصُّل إلى هذه العِلَل إلا بمعرفة الأسباب التي ساقت أوروبا إلى التقدُّم، فـ (**بِضِدِّها تتميّزُ الأشياء**). وهي التي حصرها في أربعة أسبابٍ أصليَّة وستّةٍ فرعية، على ما سيأتي تفصيله.

وقد نبَّه أحد المفكّرين المعاصرين إلى أهميَّة محاولة فهم أسرار تقدُّم الغرب والدول الصناعيَّة الأخرى وفهم الثَّمن الذي دفعه من أجل ذلك؛ فهذا مِن شأنِه أنْ يساعد العالَم الإسلاميّ على اكتشاف أسباب تخلُّفه في المجالات الصناعيَّة والتنظيميَّة والإداريَّة... إلخ[2].

كما بيَّن النّديم في مقالةٍ أخرى في نفس الصحيفة أنَّ أوروبا لم تقم على ساقِ القوّة بعد الضعف إلا بالحصول على القوَى الثلاث[3]:

قوّة العِلم ← قوّة المال ← قوّة العُدد

(1) مجلة (الأستاذ)، ج 15، السنة الأولى، الثلاثاء 9 جمادى الأولى 1310هـ، 29 نوفمبر 1892م، ص 337 – 352.

(2) انظر: هي هكذا: كيف نفهم الأشياء من حولنا؟، د. عبد الكريم بكَّار، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، 1434هـ/2013م، 1/194.

(3) «أَتَتَقَلَّبُ الأُمم بِتَقَلُّب الأحوال، ونحنُ نحنُ؟»، مجلة (الأستاذ)، ج 18، السنة الأولى، الثلاثاء 1 جمادى الثانية 1310هـ، 20 سبتمبر 1892م، ص 409 – 422.

«ونحنُ الآن في حاجةٍ إلى العِلمِ، فإذا حصَّلناه جاء من بعدنا فعظَّم به الثروة، ثمَّ يأتي من بعده فيعدّ به العُدد، ثمَّ يأتي بعد هؤلاء مَن يقولُ للغربيين: **نَحنُ وأنتم**».

وقد ميَّز النّديم بين ما في أوروبا من إنجازاتٍ حضاريَّة في العِلمِ والصناعة ونُظم الحُكم، وبين ما عندهم من سلبيات وثغرات، فدعا إلى توجيه النقد للذين يقلِّدون أوروبا في السلبيات دون الإيجابيات؛ «إذ ليس من التهذيب أنْ نَذُم أوروبا ونقبّح أعمال أهلها وعوائدهم، فإنَّ لكلّ أمَّةٍ خصائص ألفتها وعادات لزمتها، وإنَّما نَذُم الذين أرادوا تقليد أوروبا فأخذوا بما عليه الغوغاء من التهالك في الخمر والقمار والفسوق، وتركوا ما عليه أرباب الأفكار ورجال المعارف من خدمة الأمَّة والبلاد ما فيه الصلاح والعمارية»[1].

وكان حِرصه شديداً على تفنيد المزاعم الاستشراقيَّة التي ادّعت أنَّ الإسلام هو السبب في تخلُّف المسلمين، فهذا الإسلام هو السبب الأوّل في نهضة الشرق وأهله، حتى جعلهم «العالَم الأوّل» على ظهر هذه الأرض لأكثر من عشرة قرون؛ «**فالدِّين الإسلاميّ والأديان الشرقيَّة لم تكن السّبب في التأخُّر – كما يزعم كثيرٌ من الطائرين حول دهاة أوروبا – بل إنَّ الدِّين الإسلاميّ كان السّبب الوحيد في المدنيَّة وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامِه**»[2].

---

(1) بِمَ تقدّم الأوروبيّون وتأخّرنا: 158، نقلاً عن مقال: (أَتتَقَلَّبُ الأُمم بِتَقَلُّب الأحوال، ونحنُ نحنُ؟)، مجلة (الأستاذ)، ج 18، السنة الأولى، الثلاثاء 1 جمادى الثانية 1310هـ، 20 سبتمبر 1892م، ص 409 – 422.

(2) بِمَ تقدّم الأوروبيّون وتأخّرنا.. والخلقُ واحد: 137.

وقد كان النّديم في طليعة الروّاد الذين ارتادوا ميدانَ الإجابة على ذلك السؤال الذي أرَّق عقول الشرقيين وضمائرهم عندما رأوا تراجع الدولة العثمانيَّة بوصفها الدولة الإسلاميَّة الجامعة، واجتياح الإمبريالية الغربيَّة لأقطار الشرق الإسلاميّ، وغواية النموذج الحضاريّ الغربيّ لقطاعٍ من النُّخبة والصفوة في بلاد الإسلام، وتشكيك كثير من المستشرقين في صلاحية الإسلام كي يكون نموذجاً للتقدُّم والنُّهوض.

في ذلك المناخ، وهذه الملابسات، تقدَّم النّديم وارتادَ ميدان الإجابة العلميَّة الموضوعيَّة العميقة على سؤال العصر؛ وذلك ليدعو النّديم أمَّته إلى اكتشاف حقائق وسنن التقدُّم والتأخُّر، والنهوض والتراجع، والفوز والخسران، فاتحاً بذلك أبواب الأمل أمام شعوب الشرق في الانعتاق من أغلال المأزق الحضاريّ الذي صنعه (التخلُّف الذّاتي الموروث)، وسعت إلى تكريسه الهيمنة الغربيَّة على بلاد الإسلام[1].

وكذلك ردَّ النّديم مزاعم الذين قالوا: إنَّ المناخ في البلاد الشرقيَّة هو السبب في كسل الشرقيين وقعودهم عن التقدُّم والنُّهوض؛ «ذلك أنَّ الجوهر هو الذي كان فيه المتقدِّمون من المصريين والفينيقيين والفُرس والهُنود والعرب والترك، وقد تحقَّقنا أنَّ التأخُّر إنَّما جاء من تعميم الجهالة بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبُعد الأغنياء عن الجمعيات، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات، فإذا أطلق الملوك حريّة الأفكار

(1) من تقديم د. محمد عمارة لنفس المصدر السابق: 94 – 95.

والمطبوعات من تحت المراقبة، وبذل الأغنياء الذهبَ في حياة الصنعة وتعميم المعارف في المدن والقرى ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتمعت كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدُّم؛ أمكنهم أنْ يوقفوا تيار أوروبا شيئاً فشيئاً حتى يضارعوها قوّةً وعِلماً».

ولمَّا ظهر في ذلك العصر بعض الكُتَّاب الذين سخّروا أقلامهم في نشر الأفكار الغربيَّة على نطاقٍ واسع، وجدنا النّديم قد تصدَّى لهم بقوله: «.. ولا نرى الشرق محتاجاً لشيءٍ أهمّ من نصحاء مخلصين يبيّنون طرقَ الإصلاح الحقَّة، ويغارون على أوطانِهم غيرةَ الحرِّ على حَرَمِه، ولا يميلون إلى النفرة وتفريق الكلمة الشرقيَّة والتفاخر بالاقتدار على الكتابة أو بسعةِ الاطلاع أو كثرة المعارف أو التحايل على التقبيح والشتم بعباراتٍ يتخيّل الكاتب أنَّها بعيدة عن الأفكار وهي أقرب لفِكرِ العامي من نعلِه، فما ضرَّ الشرقيين إلا اختلاف الوجهة، واستعمال ألسنتنا العذبة في تحويل أفكار إخواننا عن الوجهة الشرقية إلى الوجهة الغربية»[1].

- الأسباب الأصليَّة لتقدُّم الأوروبيين:

رصدَ النَّديم في هذه الدراسة أسباباً أصليَّةً أربعة بِها تقدَّمت الدول الأوروبيَّة في عصر نهضتها الحديثة، وهي التي يمكن استعراضها في النقاط التالية:

(1) نفس المصدر السابق: 142، نقلاً عن مجلة (الأستاذ)، ج 17، السنة الأولى، الثلاثاء 23 جمادى الأولى 1310هـ، 13 ديسمبر 1892م، ص 385 – 391.

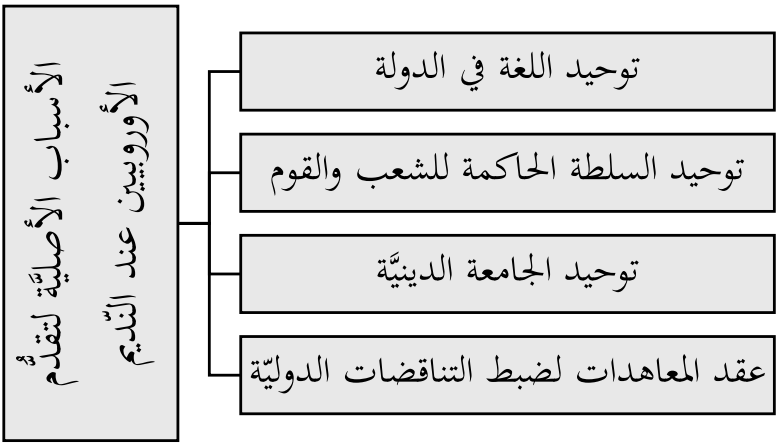

– توحيد اللغة في الدولة:

أخذَ عبد الله النّديم على ملوك الشرق عدمَ أخذهم بمبدأ توحيد اللغة الذي أخذَ به نظراؤهم الأوروبيون؛ ذلك أنَّه «لا ينكر أنَّ ممالك أوروبا كانت دوقات وكونتات وإيالات وممالك صغيرة وكبيرة، وأنَّ الذين صيَّروها إلى ما هي عليه الآن عائلات تسلَّطت على عائلات وضمَّت الأجزاء إلى بعضِها وصيَّرت كلَّ قطعةٍ عظيمة مملكة مستقلة، وعندما تغلَّبت هذه العائلات خافت من تحرُّك الهِمَم خلف الاستقلال فَهَدَتْها التجارب إلى توحيد اللغة في بلادها؛ لتُميت حَمِيَّة الجنس التي تدفع إليها اللغة، فلم يكن في بلاد فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا مَن يتكلَّم بغير لغة البلاد.. والمُراد بعدم التكلُّم بلغة الغير أنَّ المملكة تُوحِّد اللغة في المعاملات والتأليفات والتعليم والمخاطبات فلا يستعملون لغة الغير إلا لضرورةٍ تدعو إليها بحيث لا يتوسَّع فيها إلى حدِّ أنْ تسطو على اللغة المحليَّة.

وبهذا القانون نقلوا كلَّ جنسٍ دخل تحت سطوتِهم إلى لغاتِهم، فحكمت اللغات على الأجناس التي أخذت بِها وصيَّرتهم كأهلِها في الأخلاق والعادات؛ لنسيانِهم لغاتهم وانفعالهم بفواعل اللغة الموضوع لها تلك الألفاظ.. **وملوك الشرق أخطأوا هذا الغرض وتركوا المحكومين يتكلَّمون بلغاتِهم ويتعلَّمون بِها فبقيت الجنسيَّات حيَّة بحياةِ اللغة**، وظلَّت خاضعة بقَدرِ ما دَعَت ضرورة الضعف والفراغ من المعدات، وكلَّما فُتِح لجنسٍ بابُ ثورةٍ أو محرِّكٌ لاستقلالٍ تدافعَ حول الداعي وتفانى في الخروج من أَسرِ الغَير، يشهد بذلك الأمم التي حكمها العرب ولم يوحِّدوا اللغةَ فيهم فخضعوا بقَدرِ ما استعدُّوا للخروج من سلطتهم أو للتغلُّب عليهم حتى تمزَّقت المملكة وتوزَّعت في أيدي الثائرين والمتغلِّبين.. وهذا الذي أخافَ ممالك أوروبا فاتَّخذت ما حصل للعرب والترك والفرس كتاباً تدرس فيه وقاية ممالكها من العوارض المهدّدة لوحدة كلّ أمَّةٍ منها.

وكما اتَّخذت أوروبا توحيد اللغة لتوحيد الجنسيَّة في بلادِها التزمتها في الأمم المتغلِّبة عليها، ولكنَّها لم تجعل الانتقال إلى لغتِها إجباريًّا، بل التزمت التدرُّج لذلك بتعميم التعليم بِها؛ لئلا ينفر المحكومون إذا علموا سعيها في إماتةِ لغتهم، فهي تخدعهم باسم التعليم، حتى إذا انقرضت الطبقة الحاضرة خرجت التي بعدها مذبذبة، فإذا مَضَت جاءت الطبقة الثالثة من جنس الأمَّة الحاكمة، لغةً وديناً، فتُؤمِّن ثورتها وتحركها عليها؛ لكونِها صارت منها، وإذا دامت هذه الحرب الخفيَّة قرناً أو قرنين والشرق في غفلته منحدرٌ في تيار الأوهام، ماتت

الأجناس العربيَّة والتركيَّة والفارسيَّة والهنديَّة والمغوليَّة والحبشيَّة والإفريقيَّة، وأصبح الشرق مسكوناً بأممٍ أوروبيَّة، لغةً ودیناً، وإنْ وُلِدوا في آسيا وإفريقيا»[1].

– توحيد السلطة الحاكمة للشعب والقوم:

يرى النّديم أنَّ تفتُّت السلطة والدولة إنَّما يفتحُ الأبواب – وإنْ بالتدريج – إلى إضعاف السِّمات والقَسَمات الجامعة للجنسِ والقوم، ومِن ثَمَّ يفتح الثغرات لعوامل التخلُّف والتراجع والانحطاط.

فـ «عندما تَمَّ لكلِّ عائلةٍ أوروبيَّة الاستيلاء على قطعةٍ مخصوصة، وحَّدت السلطة في الجنسِ المتغلِّب، فَلَم تمكِّن أيَّ إنسانٍ من المتغلَّبِ عليهم مِن أيِّ إدارةٍ؛ فراراً من توزيع السلطة وضياع القانون بالأهواء والأميال الجنسيَّة، وخوفاً من اتِّساع سلطة المقهورين بِما يُحرِّكهم للاستقلال.. واستمرّت الحال كذلك حتى تَمَّ نقل الأجناس لغةً ودِيناً وصارَ المجموع جنساً واحداً.

وعند تغلُّب مملكةٍ أوروبيَّة على مملكةٍ شرقيَّة تجعل الإدارات العالية بيد رجالٍ منها؛ لتُوحِّد السلطة وتتمكَّن من القبض على أَزِمَّة القوى الحربيَّة والماليَّة والإداريَّة، فتراها تسوقُ الملايين من الشرق بعشرةِ رجالٍ منها. وهي لا تُمكِّن أجنبيًّا من إدارتِها، فلا ترى روسيًّا قائداً لجيشٍ إنجليزي، ولا إنجليزيًّا وزيراً لماليَّة روسيا، ولا فرنساويًّا وزيراً لمعارف إيطاليا، ولا إيطاليًّا وزيراً لحربيَّة فرنسا، وهكذا بقية الدول.

(1) بِمَ تقدّم الأوروبيّون وتأخرّنا: 123 – 125.

ودول الشرق أخطأت هذا الطريق، ولفَّقت العُمَّال من الأجناس المحكومة وغيرها؛ فانحلَّت عُرَى قواها، وكَثُرَ فيها الثورات والتغلُّبات حتى جاءت الدولة العربيَّة فوحَّدت سلطتها في دَورِها الأوّل فَنَمَت مملكتها بكثرة فتوحاتها ونفَّذت قوانينها الشرعيَّة والوضعيَّة في الممالك التي ربطت خيولها بأبواب ملوكها وأمرائها، فلمَّا اتَّسع نطاق المدنيَّة وجنح الخلفاء والأُمَراء إلى الرفاهة والسكون أسلموا أمور إدارتهم إلى الأجناس المحكومة بهم فدعاهم حبّ الأَثَرَة إلى نَزعِ ما بيد مواليهم وساداتهم، ورجعت العرب القهقرى وكثر المتغلِّبون، وفسد النظام، وجَرَت الدماء في كلّ جهة، وطمعت دول أوروبا فهاجمت الشرق بعد أنْ كانت ترعدُ من ذِكره، ثمَّ انتهى الأمرُ بجمع السلطة للأمَّة التركيَّة، فأخذت دَورها بما لا ينزل عن دَورِ العرب، بل تخطَّت من آسيا لأوروبا، وفتحت بعض قطع منها واستولت عليها قروناً، وما زالت تزاول الأعمال بنفسِها حتى وقفت برزخاً ضيّقاً بين أوروبا وبين بلادها وممالك الشرق، ولما انتهت في المدنيَّة إلى حدِّ الرفاهية والخُلود إلى الراحة وفوَّضت أمر كثيرٍ من الإدارات إلى غير جنسيّتها كانت تلك الأجناس الوسيلة العظمى لتداخل أوروبا في مملكتِها وكذلك بقيَّة الممالك الشرقيَّة التي أصبحت مَيداناً للعبِ رجال أوروبا بعقولِ أهلها»[1].

(1) نفس المصدر السابق: 125 – 126.

– توحيد الجامعة الدينيَّة:

يرى النّديم أنَّه لتحقيقِ ذلك في التاريخ الأوروبيّ الحديث؛ رُفِع شعار **(دين واحد للدولة الواحدة)**، وخاض الملوك والأُمَراء الأوروبيّون حروباً دينيَّة أُبِيدَ فيها 40٪ من شعوب وسط أوروبا، وذلك لتحقيق الوحدة والانسجام الدينيّ في كلّ دولةٍ من الدول القوميَّة الأوروبيَّة.

ذلك أنَّ «كلّ عائلة تغلَّبت على قطعةٍ في أوروبا وَحَّدت دينها وألزمت المحكومين بالأخذِ به وأراقَت غزير الدم في سبيل توحيد الجامعة الدينيَّة؛ لئلا تترك بينهم ديناً آخر يوجب النفرة والفتن الداخليَّة والتداخل الخارجي، وقد اعتنت أوروبا بالدِّين اعتناءً غريباً حتى ملأت بكلماته كتب التعليم من أيّ فنٍّ كانت، ورسمت الصليب الذي هو الصورة المحترمة ديناً على الملابس وأواني الأكل والشرب والبُسط والفُرش والآلات وأوراق الزيارة والمباني حتى على أعتاب الأبواب، فلا يكاد يقع بصرُ إنسان على شيءٍ إلا وعليه هذه الصورة المقدَّسة؛ ليكون الدِّين في فِكرِ الواحد منهم في كلِّ طرفةِ عين.

ولعِلمِهم أنَّ وحدة الدِّين إذا انضمَّت إلى وحدتي اللغة والسلطة قامت المملكة على أساسٍ متين؛ اهتموا بنقل الأمم الشرقيَّة بطريق التدرج.. فلم تقهر فرنسا أهلَ الجزائر وتونس على ترك دينهم كما فعلت إسبانيا في مسلميها عند تغلُّبها عليهم، حيث ألجأتهم إلى التنصُّر أو الخروج من البلاد، وكذلك إنجلترا لم تُكرِه مسلمي الهند، ولا روسيا قهرت مسلمي طرغستان والتركمان وغيرهم مِمّن هم في حوزتِها، وإنَّما التزمت كلّ دولةٍ أنْ تعمّم لغتها فيهم، وأنْ تفتح

المدارس لتعليم الأبناء على أخلاق الأمَّة الحاكمة، وتمنع تعلُّم الدِّين إلا مبادئ قليلة جداً تموّه بها على ضعفاء الإدراك؛ ليخرج المتعلِّمون فارغين من الدِّين فيسهل نقلهم لأيِّ دينٍ بعد، **فإنْ تعرّضت أمَّةٌ شرقيَّة لذِكرِ دينها ولو لم تكن محكومة بأمَّةٍ أوروبيَّة؛ نُودِي عليها بالتوحّش والخشونة والهمجيَّة، وقيل إنَّ هذا تعصُّبٌ دينيّ، مع أنَّ التعصّب الدينيّ لا يوجد إلا في صنع أوروبا، ولكنَّ القوّة تقولُ للضعفِ ما تشاء.**

وقد أخطأ ملوك الشرق هذا الطريق، واكتفوا بالفتوح أو التغلُّب على الغير وتركوه على معتقده كما كان يصنع قدماء المصريين والبابليُّون والفُرس والهنود وغيرهم، ثمَّ جاء الإسلام فاكتفى من الناس بالأخذِ به أو الإذعان لملوكه، وعندما نشر جناحيه في الشرق والغرب ترك أُمَماً كثيرة على أديانِهم المسيحيَّة والموسويَّة والبرهميَّة والمجوسيَّة والوثنيَّة وأعطاهم حريَّة التعبُّد من غير أنْ يتعرَّض لهم أحدٌ من المسلمين.. وهذه مزيَّة لا توجد في دينٍ غيره، ولكنَّه لم يَجْن من هذا الغَرسِ الجميل ثناءً ولا شكوراً، بل هاجمت أوروبا بأجمعِها الشام بالنزعات الدينيَّة وخرَّبت دياره وأراقت في كلّ شِبرٍ منه دم إنسانٍ فجلبت الدمار على مسلميه ومسيحيّيه وإسرائيليّيه، وأصبح فارغاً من معدات العمران مُحالاً بينه وبين التقدُّم بسُورِ الفقر الذي بَنَته أوروبا بيد التعصُّب الدينيّ، ومع كلّ هذه الفتن فإنَّ أصول ديننا تُوجِب علينا حسن معاملة مَن غايرنا ديناً، ومعاشرة الوطنيّ والمستوطن معاشرةَ المثيل وإنْ عاملنا بضدِّ معاملتنا له؛ لعدم إمكاننا التصرُّف في أصول ديننا.

ولم تكتفِ أوروبا بتوحيد الدِّين في بلادِها، بل عقد الأهالي الجمعيات الدينيَّة وربَّوا لها ألوفاً من القساوسة، وبذلوا لهم الملايين من الذهب وبثُّوهم في الشرق تحت حماية دولهم وعنايتها فجاسوا خلال إفريقيا وآسيا داعين إلى الدِّين، وقد انحدرَ الشرق في هذا التيار الذي لا مرسى له ولا مرجع إلا توحيد الدِّين شرقاً وغرباً، وقد أخطأ الشرقيون هذا الطريق فنامت الأمم في زوايا الإهمال وعكفوا على الملاهي يصرفون فيها الذهب والفضة، وتركوا العلماء والأحباء والرؤساء يجلسون في المساجد والمعابد والهياكل منتظرين مَن يقطع البراري والقِفَار؛ ليتعلَّم منهم الدِّين، وقد التزموا الطُّرقَ البطيئة وصعَّبوا على المتعلِّم طريق الحصول على المعارف، ولا نعيبهم بالتقاعد عن جَوْبِ الأقطار مع ما هم من الفاقة والحاجة إلى القُوتِ الضروريّ، وإنَّما نعيبُ الأغنياء وأصحاب الأوقاف الذين ضلُّوا هذا الطريق وجعلوا أموالهم غنيمةً لِمَن لا يستحقّها مِن نائمٍ في تكيَّة، أو شموعٍ لمولد، أو نذورٍ أضرحة، حتى مَن وُفِّق لرصدِ شيءٍ للتعليم صُودِر بما لم يكن في حسابِه.

ولهذا تأخَّرت المعارف في الممالك الشرقية، وعمَّت الجهالة عَوَامَّه، واقتصرَ العلماء على التعاليم الدينيَّة في بعض البلاد، وتُرِكَت العلوم الرياضيَّة فماتت الصنائع بموت أهلها وعدم بحث الملوك في إحيائها، وغفلة الأُمم عن فتح المدارس والمعامل على ذِمّة الجمعيات الخيريَّة والتجاريَّة، فأصبح الناس يعدُّون مخترعات أوروبا مِن وراء العقول، وحكموا على أنفسهم باستحالة الوصول إلى تقدُّم أوروبا؛ لفراغِهم من المبادئ العلميَّة، وبُعدِهم عن المسائل الدوليَّة»[1].

(1) نفس المصدر السابق: 127 – 130.

– عقد المعاهدات لضبط التناقضات الدوليّة:

بيَّن النَّديم أنَّ السببَ الرابع لذلك التقدُّم هو تلك المعاهدات التي عقدتها الدول الأوروبيَّة بعد استكمال عوامل تقدُّمها؛ وذلك لضبط تناقضاتها القوميَّة، ولتوجيه طاقاتها نحو استعمار بلاد الجنوب، ونهب ثرواتها، وإلحاقها بالمركز الحضاريّ الغربيّ، على أمل اجتثاث الإسلام – الهويَّة الشرقيَّة الكبرى المغايرة للغرب – في نهاية المطاف.

ذلك أنَّه «لمَّا تمَّت تربية أمم أوروبا تحت أحضان ممالكها وجمعيّاتها العلميَّة والتجاريَّة، ورأت الدول أنَّها لو بقيت على التقاطع والتضاغن، مع توحيد الدِّين بينها، صارت عرضةً للتفاني في سبيل الأطماع، وفتحت للشرق بتخاذلها باب تداخل في شؤونِها الحربيَّة أو السلميَّة، ولم تجد شيئاً تسدُّ به هذا الباب إلا المعاهدات الدوليَّة؛ لتأمن كلّ مملكةٍ شرّ جارتِها، وتلتفت لتنظيم إدارتها، فاجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حِفظِ الوحدة الأوروبيَّة مِن مسِّ الشرق لها، مهما تقلَّبت المسائل الدوليَّة بين أيديهم، وعلى توجيه الهِمَم إلى الشرق فتحاً واستعماراً، فتراهم إذا همُّوا بأمرٍ ضدّ مملكةٍ شرقيَّة خابر بعضهم بعضاً، فإذا أرضَى هذا ذاك وتمَّت كلمة التداخل والاستيلاء وثبت الدولة العاملة تحت مراقبة أخواتها، فإنْ فازت بالظفر فذاك، وإنْ خذلت تداركها الكلّ، وأوقفوا الشرقيَّة عند حدودها، وكلَّفوها ما لا يُطاق، فإذا انتهت مِن دَورِها قامت الأخرى لوثبتها التي أباحها لها الاتّفاق، وعلى هذا جَرَت ممالك أوروبا حتى مكَّنها الوفاق من التغلغل في إفريقيا وآسيا.

وقد أخطأت ممالك الشرق هذا الطريق الجليل، فاستبدلت الاتّفاق بالنفرة وبثّ العداوة بين أفراد الأمم، وانتهت العداوة إلى مساعدة دولةٍ شرقيَّة لدولةٍ أوروبيَّة على أمَّةٍ شرقيَّةٍ مثلها لاستيلائِها عليها، وما تشعر أنَّها واقعة في حبالتها بالقوّة أو بالحيلة الماليَّة، ولهذا لا نرى اتّحاداً بين ملوك الصين والهند، ولا بين هؤلاء الفرس، ولا بين المجموع والتُّرك، ولا بين هؤلاء والأفغان وبخارى ومراكش وزنجبار، وبهذا التقاطع تمكَّنت أوروبا من التداخل بين ملوك تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتَّى، فبتقاطعهم صارت ممالكهم أجزاء صغيرة في قارتين عظيمتين؛ فسهل الاستيلاء عليها واحدةً فواحدة، وكلّ ملكٍ ينظرُ الحاصل لجارِه ولا تترك همّته لجمع الكلمة الشرقيَّة أو الاتّفاق الدفاعيّ، وكان لأوروبا اليد القويَّة في إفساد ملوك الشرق وإيقاع العداوة بينهم بالأكاذيب الموهمة حتى صيَّرتهم أشد عداوة لبعضهم من عداوتِهم لها، بل بتلطُّفها في الخداع والتمويه صارت محبوبة عند البعض من ملوك الشرق»[1].

- الأسباب الفرعيَّة لتقدُّم الأوروبيين:

لقد رصدَ النّديم – في دراسته هذه – الأسبابَ الموضوعيَّة الأصليَّة الأربعة، التي أثمرت تقدُّم الأوروبيين والتي افتقدها الشرق والشرقيُّون في حقبة عزلتهم وتراجعهم الحضاريّ، حتى لقد صارت أسباب التقُّدم الأوروبيّ هذه لغزاً لدى كثيرٍ من الشرقيين!

(1) نفس المصدر السابق: 130 – 131.

وإلى جوار هذه الأسباب الأصليَّة الأربعة، التي أثمرت التقدُّم الأوروبيّ، رصدَ النّديم أسباباً فرعيَّةً ستّة، دعمت هذا التقدُّم، وعمَّقت جذوره، وأطالت من عمره، وساعدته على مواجهة الطوارئ والعاديات.. وهذه الأسباب الفرعيَّة السّتّة هي:

– إطلاق حريَّة الفكر والكتابة:

ذلك أنَّه بهذه الواسطة ربَّى الكُتَّاب الأممَ وهذَّبوهم ونقلوهم مِن حَضيضِ الجهل والخُمول إلى ذروة العِلمِ والظُّهور، ووجدت الدول رجالاً مدرَّبين لم تُنفِق في تربيتهم درهماً ولا ديناراً وإنَّما ربَّاهم المحرِّرون والعلماء.

وقد أخطأ الشرقُ هذا الطريق، فخاف ملوكه من الكُتَّاب والعقلاء فضغطوا على أفكارهم حتى أماتوها في أذهانِهم إلى أنْ جاءت الدولة العربيَّة

وأطلقت حريَّة الأفكار، وجمعت العلماء من جميع الجهات وترجمت كتبَ الأوائل الحِكَميَّة وغيرها، وفتحت باباً أغلقه الجهلُ قروناً طويلة.

ثمَّ انقضى دَور الضخامة وتوحيد الكلمة وجاء وقت المتغلِّبين، فتجزَّأت المملكة وتصدَّى الثائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس؛ فانطفأت أنوار العلوم الشرقيَّة وضيَّق ملوك الشرق على أرباب الأقلام، فباتَ الصين والهند والعراق وبلاد العرب والجبال والغرب على ما كانوا عليه من عداوة الكُتَّاب ونفي الظاهر منهم أو إعدامه حتى ألجأوا كثيراً منهم إلى الالتجاء لأوروبا وخدمتها بتغرير قومه وتضليلهم؛ انتقاماً أو قياماً بحقّ حاميه من الإعدام.. ولو أطلق ملوك الشرق حريَّة التحرير وجعلوا المحرِّرين تحت مراقبتهم، وساعدوا المخلص في خدمة مملكته وجنسه، وأسكتوا المفسد والمهيِّج لأحيوا الأمم التائهة في القِفَار وبعثوا فيهم أرواح غيرةٍ وحميَّة تُصانُ بها الممالك[1].

– تجميع رؤوس الأموال في مؤسَّسات وشركات مساهمة:

ذلك أنَّه بهداية الأُمم الأوروبيَّة إلى المعارف وطرق التقدُّم، تجمَّع أربابُ الأموال منهم لفتح صناديق الأعمال الماليَّة، فتحصَّلوا بالسّهام القليلة على نقودٍ كثيرة، واستعملوها في المعامل والتجارة، وساعدتهم الدول فَحَجَرت على مصنوع الغير وتجارته؛ لتروج البضاعة الأهليَّة وتحفظ الثروة في داخليَّة البلاد، وبهذه الطريقة اتَّسعت الثروة وارتفع الفقراء إلى مقام الأغنياء وأصبحت الممالك تباهي بعضها بثروة أهاليها ووفرة ماليّتها.

---

(1) نفس المصدر السابق: 131 – 132.

وقد أخطأ الشرقيُّون هذا الطريق، وجمعوا المال لوضعه تحت الأرض خبيئة أو لصرفه في الملاذ والشهوات، وتركوا صنائعهم عرضةً للضياع، واستعملوا مصنوع أوروبا حتى أماتوا الصنعة والصُّناع، وحوَّلوا ثروتهم إلى أوروبا، فترى الصانع الشرقيّ يَئِنُّ من ألمِ الفقر وهو جار الغني، ولكنّه لا يشعر بأنينِه؛ لاشتغاله عنه بالملاذ والملاهي»[1].

تشجيع التنافس والابتكار في علوم التمدُّن:

ذلك أنَّه لمَّا رَأَت دول أوروبا أنَّ المخترعات والصنائع النافعة لا تكونُ إلا مِن فريقِ الفقراء، سَنَّت قانون الامتياز والمكافأة والشهادات العلميَّة والعمليَّة ونياشين الشرف؛ لتبعث في الناس غيرة المجاراة والمباراة في التفنُّن والاختراع، وكلّما اخترعَ واحدٌ شيئاً كوفئ على اختراعه، والتزمه منه الأغنياء وأرباب المعامل، فكثر المخترعون، وانتهت بهم البعثة العلميَّة إلى استخدام البخار والكهرباء واكتشاف العوالم القديمة والحديثة.

وقد أخطأ الشرقيُّون هذا الطريق فحطُّوا على المخترعين، وتركوهم وأعمالهم وانكبُّوا على الأجنبيّ ومصنوعه، وأغمض الملوك عنهم عينَ الرعاية والاعتبار فَفَتَرَت الهِمَم وقعدت عن السعي خلف النافع من بناتِ الأفكار، واكتفى كلُّ صانعٍ بالبسيطِ من الأعمال المتداولة التي لابدَّ منها لكلِّ أمَّة[2].

(1) نفس المصدر السابق: 132 – 133.

(2) نفس المصدر السابق: 133.

– تعميم التعليم وتوحيده:

ذلك أنَّه لمَّا رأت دول أوروبا أنَّ الأميَّة ما تمكَّنت من أمَّةٍ إلا عرَّضتها للضياع والاستسلام إلى الغير؛ عمَّمت التعليم وجعلته إجباريًّا حتى أصبح الأميُّون يُعدُّون في ممالِكها العظيمة، وقد اعتمدت كلّ دولة على توحيد التعليم فعلَّمت الأمَّة الدِّين، وتاريخ الجنس، واللغة، وأخلاقها، وعاداتها، والقانون المدنيّ الجامع لوحدة الأمَّة، وتاريخ المملكة، وحقوق الملك، وواجبات الدفاع عنه، حتى سَرَت روح الحياة الدوليَّة في كلّ فردٍ من أفرادِها، واتَّسع نطاق الأفكار فأصبحوا في حروبٍ فكريَّة نتائجها الإحياء وامتداد السلطة.

وقد أخطأ الشرقيُّون هذا الطريق، فتركوا الأممَ تائهين في الجهالة العمياء؛ لتوهّمهم أنَّ المتعلّمين يعارضونهم فيما هم فيه، وما صيّرهم لذلك إلا إسناد بعض الأحكام إلى الجهلة وضعفاء العقول.

وقد نامت الأمم الشرقيَّة تحت ردم التهاون وعدم التبصّر حتى مات العلم وأهله، وما تحرّكت طائفة لعقدِ جمعيَّةٍ تساعد مَن بَقِيَ من العلماء على نشر المعارف وتوسيع دائرتها، بل كلّ غني وأمير يجعل الذنب للعلماء؛ لتقاعدهم عن جَوبِ البلاد وجَوسِ الفَيافِي والقِفَار، وهم يعلمون مِن شأنِ العلماء أنَّهم لا يملكون شيئاً من الذهب والفضة، وقد حبس الأمراء والأغنياء الذهبَ والفضة وجعلوهما وَقْفاً للملاهي واللذائذ، وكلّما هبَّت عليهم ريحُ تبْكيتٍ قالوا ما أخَّر الشرق إلا العلماء. وبموت أهل المعارف احتاجَ ملوك الشرق لاستخدام أناس من أوروبا يقومون بهم أَوْدَ ممالكهم. ومَن نظر لجمعيَّات أغنياء أوروبا وعدم حصر مدارسها في الشرق والغرب، **ورأى أغنياء الشرق وهم يبعثون أولادهم إلى مدارسهم ليتعلَّموا على قساوسة أوروبا أمورَ دينهم ودنياهم**

سفّه أحلامهم وأيقنَ أنَّهم العِلَّة الوحيدة في تأخُّر الشرق عن أوروبا، فالفقير العالم ماذا يقول؟ والصانع المعدم ماذا يصنع؟ والعاقل المحتاج ماذا يعمل؟ وكلٌّ يحتاج إلى المادة ولا مادة إلا جمعيَّات الأغنياء والأمراء واتجاه الملوك إليها بالعناية والمساعدة الماديَّة والمعنويَّة[1].

– إقامة مجالس الوزراء ومؤسَّسات الشورى:

ذلك أنَّه لمَّا رَأت ممالك أوروبا أنَّ الملوك كثيراً ما يقعون في خطأ الرأي بالانفراد فيه أحدثوا مجالسَ الوزراء والشورى التي تقيّدت بها الممالك ظاهراً، فألقت أوزارها على عواتق أعيان الأهالي، ومنتخبيهم لتستمدّ من أفكارهم ما به يحسن النظام وتبقى المملكة حيَّة بحياةِ قواها العاملة، وصارَ للأممِ الثقة بملوكهم ووزرائهم؛ لعِلمِهم أنَّهم لا يصرفون شيئاً ولا يحدثون عملاً ولا يبرمون أمراً إلا بمشورة نوَّابِهم، وبتبادل الأفكار بين الوزراء والنوَّاب ظهرت ثمرات عظيمة، واشتدّ عضُد الدول وعظمت قوّتها واتّسعت تجارتها ومعارفها، وكثر المرشَّحون للأعمال والإدارات العالية بالتربية في المجالس.

وقد أخطأ الشرقيُّون هذا الطريق بسبب الجهالة التي عمَّت الأمم الشرقيَّة، فَلَم يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانِهم ووُجهائِهم، ولا يحبّون كثرة العقلاء خوفاً من التغلُّب الذي يحلم به كلّ مَلِكٍ شرقيّ، وهو وَهْمٌ لا حقيقةَ له؛ ولذا نراهم إذا نبغَ في ممالكهم أناسٌ وضعوهم تحت سَوطِ التضييق حتى يبغض الغير طريقَ العقلاء والنُّبهاء؛ فراراً من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاءِ والعَنَاء[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: 134 – 135.

(2) نفس المصدر السابق: 135 – 136.

– إقامة المؤسَّسات لأهل الفكر والعلم والثقافة:

ذلك أنَّه قد أنتجت تربية الأمم على المعارف إحداث أندية السَّمر والتجارة، فاتّخذت المجالس العديدة لاجتماع أهل الأفكار ممتزجين ببعض الضعفاء؛ ينقلوا عنهم ويتربّوا تحت أحضانهم، وفي تلك المجالس تدورُ الأحاديث على الأمم والممالك وأعمال الملوك وأخلاق العالم وتاريخ العمران، فكانت هذه المجالس روحاً ثانية في جسد المملكة المتحرّك بروح الوزراء والنوّاب والعمال، وقد علم الملوك حسن مقاصدهم فَلَم يضيّقوا عليهم بشيءٍ يحولُ بينهم وبين مدارسهم الأدبيَّة.

والشرقيُّون أخطأوا هذا الطريق، وجعلوا مجالسهم قاصرةً على الغيبة والنميمة والسعي في أَذِيَّة فلان ومعاكسة (علان) والتحاسد والتباغض وتقبيح بعضهم بعضاً واللهو واللعب، وانقطعوا عن العالَمِ بالمرَّة، ومنهم مَن اقتصرَ على الإقامة بين أولاده، ومنهم نفرٌ قليل اشتغلوا بالمعارف واضطرهم تيار المجتمع المدنيّ إلى الانحدار معهم في غالب الأوقات، وقلَّ أن يجتمع جماعة للبحث فيما ينفع الأمَّةَ أو الدولة لعِلمِ العقلاء أنَّ أبحاثهم غير معوَّلٍ عليها ولا ملتفتٍ إليها؛ لانصراف معظم الأمَّة إلى الشهوات[1].

تلك هي الأسباب الأصليَّة والفرعيَّة التي رصدها العقل الفلسفيّ للنّديم، كأسباب للتقدّم الأوروبي والتي صاغها وقدَّمها – في دراسته هذه – ليقولَ لقومِه: إنَّ **للتقدّم سُنَناً وقوانين أبوابها مفتوحة** أمام كلّ بَنِي الإنسان، وما على الذين

(1) نفس المصدر السابق: 136 – 137.

يريدون الانعتاقَ مِن أغلال (التخلُّف الموروث) ومِنَ (الهيمنة الغربيّة) التي تحرس هذا التخلُّف الموروث إلا أنْ يأخذوا بالأسباب.. لا بالأوهام، أو الوقوف عند مجرّد الأماني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: **123**).

- مِن أسباب تأخّر الشرقيين:

إضافةً إلى تلك الأسباب، التي أوردَها النّديم لتقدُّم الأوروبيين والتي بضدّها تأخّر العرب والمسلمون؛ فقد أوردَ **أسباباً أخرى داخليَّة** ساهمت بدَورِها في تأخُّر الشرقيين، على رأسها:

- وجود طائفة من الموالين للغرب:

أرادَ الاستعمار الأوروبيّ، إمعاناً منه في المكر والخِداع، أنْ يُلبِس قبضته الغربيَّة قُفازاً شرقيًّا؛ ليُوقِع الشرقيين في شِراكِه وحَبائِله، فعَمَد إلى غواية قطاعاتٍ من المثقّفين الشرقيين الذين صنع عقولهم وفق مناهجه والذين علَّمهم في مدارسِ إرساليّاته، والذين استأجرهم ضدّ بَنِي جلدتِهم؛ ليكونوا أبواقاً يسوّغون لمقاصِده ونظريّاتِه، وامتداداتٍ سرطانيَّة بين شعوب الشرق ومنظومات قِيَمِها وقَسَمات هويّتها الحضاريَّة؛ لهذه الحقيقة — التي برزت في عصر النّديم والتي لا تزال بارزة حتى الآن — خاضَ النّديم طوال حياته معركةً شرسة ضدّ هؤلاء (المتغرّبين المتأوْرِبين[1] العُملاء الأُجَراء)؛ «فَشَرُّ الرجال مَن يُنفِق حياته في إفسادِ أهل بلاده وإغراءِ الغَيرِ بهم طمعاً في ذَهَبٍ يموت ويتركه فيفنى ويبقى ذكره القبيح

(1) نسبةً إلى أوروبا التي جعلوها قبلتهم.

خالداً في بطون أوراقه، ومَن لنا بتوحيدِ وجهتنا معاشرَ الشرقيين وقد نبتت لحوم الأجساد في خدمة الأجنبيّ، فانفعلت لها الأرواح الحاملة لقواها، فكلَّما حوَّلتها عن وجهتها الغربيَّة دارت إليها، فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابِها وقوفَ القانت الواعظ! ولا يُلام أجنبيّ نزح عن بلادِه ليخدمها في الشرق، ولكنَّ العجب مِن شرقيٍّ يخدمُ غربيًّا بسَلبِ حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحطّ من ملوكِه وأُمرائِه، فالأجنبيُّ المحصّن خيرٌ للشرقيين من هذا المحتال! لقد كذب كلّ مَن يقول: إنَّ الاستظلال بظلّ الغير حياة للوطنيَّة والمدنيَّة.

إنَّ الذين استمالتهم أوروبا فانتموا إليها هم أجانب مِنَّا وإنْ تكلَّموا بلُغتنا وسكنوا وطننا، بل وإنْ دانوا بديننا؛ لأنَّهم لا يقدرون على السعي في مصالح الشرق، ولا ينطقون بكلمةٍ فيها خير لأهله، فإنَّهم مقيَّدون بتعاليم الدول المنحازين إليها قياماً بحقِّ نعمتها عليهم»[1].

– ضعف واقع الخطابة:

حذَّر النّديم من أولئك الخطباء الذين يُزهِّدون الناس في أمر دنياهم، ويُرغِّبونهم في طلب العُزلة وترك العمل؛ «ومِن هذا القبيل الذين دوَّنوا دواوين الخطابة وجعلوها قاصرة على التزهيد في الدنيا والتحذير من المال وجمعه والفرار من المجامع والظهور والرضا بخشنِ العيش والصبر على الذلِّ والهَوان.

وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة، حيث تجتمع الأمَّة اجتماعاً لا يتَّفق لأمَّةٍ أخرى، فيدخل الرجل للصلاة وهو يفكِّر في عملٍ يُصلحه،

(1) نفس المصدر السابق: 143، نقلاً عن مجلة (الأستاذ)، ج 17، السنة الأولى، الثلاثاء، 23 جمادى الأولى 1310هـ، 13 ديسمبر 1892م، ص 385 – 391.

وصناعةٍ يتقنها، وإدارة يُحسنها، ومعيشةٍ يوسِّعها، ونظامٍ يحفظه، وإخاءٍ يُحافظ عليه، ووطنٍ يسعى في وقايته، وملكٍ يدفع عنه، وحقٍّ يُطالب به، ويخرج وقد ماتت همّته وانصرف عن الأفكار الجليلة بما غرسه الخطيبُ في فِكرِه من قُبحِ الدنيا وسوءِ مصير المشتغلين بها.. **فلو تصدَّت أوروبا لإماتة هِمَم المسلمين وصرفهم عن مَجدِ المُلك والدِّين والجنس، وقطعت دُهوراً في اختراعِ طريقٍ تصلُ به هذه الغاية؛ ما اهتدت إلى ما فعله الخطباء من تحويل الخطابة عن عهدها النبويّ إلى ما قاله المتملِّقون إلى الملوك أو الغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمَّة.**

ونحنُ نستفتي هؤلاء المثبِّطين: إذا كانت الدنيا يُحذَّر منها، فَلِمَن خُلِقَت؟ وإذا كان الاشتغالُ بها بُهتاناً وضَلالاً، ولا يشتغل بها إلا أعداء الله، فَلِم نتألَّم مِن تسلُّط الغير علينا ووقوعنا في أيدي المتغلِّبين ونعدّ الرضا بذلك ذنباً ومعصيةً؟

كلُّ هذا انصرافٌ عمَّا كان عليه السابقون، فقد كان النبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم يخطبُ الناس بوقائع الحال، وربما طرأ عليه الأمر في غير يوم الجمعة فيرقَى المنبر ويخطب به الناس، وجاء الخلفاء الراشدون على إثره؛ فكان أبو بكر يخطبُ بأحوالِ أهلِ الردَّة وخروجهم مِنَ الإسلام ووجوبِ قتالِهم، وكان عمر يُرتِّب جيوشه ويُولِّي الأمراء ويُفرِّق الألوية ويُعلِّم الأحكام وهو على المنبر، وكان عثمان يُخبِر الناس بخَرَاج البلاد وأحوال الفاتحين وهو يخطب، وكان عليٌّ يذكر الحاصل بينه وبين الثائرين عليه، ويُعلِّم الأحكام، ويُوصِي الحُكَّام، ويُلقِّن التوحيد، ويقصُّ أخبارَ السابقين وهو على المنبر، ولم نسمع أنَّ هارون الرشيد

خطب من ديوان، أو أنَّ المأمون أُلِّفَت له خطبة، أو أنَّ مولاي إدريس[1] جمع له العلماء كلاماً موزوناً مسجوعاً، بل كان يخطب كلّ خليفة وأمير بما يراه صالحاً للأمَّة، وما طرأ عليه من وقائع الأحوال الداخليَّة والخارجيَّة.

فعلى العلماء الأفاضل ورجال الخطابة أنْ يُغيّروا هذه الطريقة ويخطبوا الناسَ بضروريات دينهم ودنياهم، فإنَّهم إنْ فعلوا ذلك وعلَّموا الناس الدِّين والتجارة والمِلاحة والفلاحة والمعاملة والمخالطة، وذكروا للعامَّة أحوالَ ممالكهم وما تحتاجه من العناية بها والسعي في حفظِها، ونبَّهوهم على الوقائع الحاصلة في ممالك الغير تحريضاً على المجاراة أو تحذيراً من الوقوع فيها، وحذَّروهم من الفتنة والدخول فيها والهيجان والقُرب منها، وعلَّموا الناس الحقوقَ الوطنيَّة والمدنيَّة وواجبات العمران ومقدِّماته واجتهدوا في ذلك؛ أثَّروا في النفوس تأثيراً غريباً وقادوا الأمَّةَ إلى التقدُّم بسرعةٍ عجيبة وفعلوا في النفوس والقلوب ما لا تفعله الجرائد وأوامر الملوك والسلاطين.

فإنَّ الجرائد لا يقرؤها إلا العارفون بها وهم عددٌ قليل جدًّا بالنسبة إلى سَواد الأمَّة الأعظم، ويأخذون ما فيها على أنَّه وقائع أحوال، وأمَّا الخطبة فيسمعها الأُميُّ والقارئ والعالِم والجاهل، ويأخذون كلماتها على أنَّها إرشادٌ من واقفٍ موقف النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، يأمرهم وينهاهم، فتأثيرها في النفوس يكونُ عظيماً جدًّا؛ لتعلُّقِها بالدِّين»[2].

---

(1) إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى – أبو القاسم – (177 – 213هـ)، ثاني ملوك الأدارسة في الغرب الأقصى، وباني مدينة فاس سنة 192هـ.

(2) أَتَتَقَلَّبُ الأُمم بِتَقَلُّب الأحوال، ونحنُ نحنُ؟: 153 – 156.

محمّد فريد وجدي

يعتبر محمّد فريد وجدي من روّاد المفكرين الذين تناولوا جذورَ الأسباب التي أدَّت إلى تأخُّر المسلمين في المدنيَّة، كما كان مِن أوائل مَن تحدَّثوا عن سلامة المقوِّمات الفكريَّة الإسلاميَّة، وقدرتها على البقاء والاستمرار، ودورها في إنشاء الحضارة المعاصرة[1]، وذلك في كتابه (**تطبيق الدّيانة الإسلاميَّة على نواميس المدنيَّة**) الذي أصدره في وقتٍ مبكِّر سنة 1898م، ثمَّ ما لبث أنْ غيَّر عنوانه إلى (**المدنيَّة والإسلام**) في طبعته الثانية سنة 1901م، وقد كتبه في البداية باللغة الفرنسيَّة ثمَّ قام على ترجمتِه لاحقاً إلى اللغة العربيَّة[2].

وُلِد محمد فريد بن مصطفى وجدي سنة 1878م في أواخر عهد الخديوي إسماعيل الحافل بالإنجازات الحضاريَّة، والمضطرب أيضاً سياسيًّا واقتصاديًّا وماليًّا، وكذلك من حيث العلاقة بالغرب الاستعماري؛ مما جعل مصر قابَ قوسينِ أو أدنَى من الثورة العُرابِيَّة (1881م)، ثمَّ الاحتلال البريطاني (1882م)، لتدخل بعد ذلك في دوّامةٍ رهيبة من التحوُّلات والأحداث العِظَام التي استمرّت حتى رحيل وجدي سنة 1954م.

شهد فريد وجدي كثيراً من الأحداث المفصليَّة التي تركت بصماتها على شخصيَّتِه الفكريَّة، مثل الحربَين العالَمِيَّتين، الأولى والثانية، وتحوُّل مصر من

(1) محمد فريد وجدي: رائد التوفيق بين العلم والدين، أنور الجندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص 16.

(2) الأعلام للزركلي: 329/6.

ولاية تابعة رسمياً للسلطنة العثمانيَّة حتى بعد الاحتلال الإنجليزي، إلى دولة تحت الحماية البريطانيَّة مع إنشاء سلطنة مصرية (1914م)، ثمَّ تحوُّلها إلى الملكيَّة وحصولها على الاستقلال (1922م).

كما شهد أحداث الثورة العربيَّة الكبرى (1916م)، وحركات القوميَّة العربيَّة عموماً، وثورة (1919م) في مصر، والثورة الشيوعيَّة في روسيا (1917م)، إضافةً إلى سقوط الخلافة العثمانيَّة على يد أتاتورك (1924م) والذي كان حَدَثاً جَلَلاً، ناهيك عن تطوُّراتٍ سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة وعلميَّة وفكريَّة، في مصر والعالَمَين العربيّ والإسلاميّ، وكذلك على مستوى العالَم كلّه.

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

عُرِف عن محمّد فريد وجدي أنَّه كان من القلائل الذين بلغوا ذُرَى سامقة من النبوغ البحثيّ والفكريّ والزّخم الهائل من المؤلَّفات الموسوعيَّة[1] دون أنْ يكملوا تعليمهم النظامي، فهو ليس فقط لم يحصل على تعليمٍ عال، بل لم يُتِم تعليمه الثانوي أيضاً!، فضلاً عن أنَّه لم يكن مثل من استعاضوا بالدراسة في الأزهر عن الدراسة في الجامعات، وأقرب شيء أنْ نقول: إنَّه بَنَى نفسَه بنفسِه.

---

(1) يعتبر محمد فريد وجدي أوّل مَن عكف بمفردِه على تأليف دائرة معارف عربية حديثة، هي (دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري – العشرين الميلادي) التي استغرقت منه عشر سنوات من العمل، وخرجت سنة 1910م في عشرة مجلّدات وقرابة تسعة آلاف صفحة؛ لا لشيءٍ إلا ليُكمِّل – كما قال هو – نقصاً وجده في المكتبة العربيَّة في مجال الموسوعات، وليُسهِّل على العلماء والباحثين عملهم.

وقد وجدَ من نفسِه قدرةً على القيام بتحرير المجلات والجرائد، رئيساً للتحرير[1]، ومديراً للإدارة، وكاتباً مسترسلاً، يرقبُ الأحداث، ويفسِّر مجرياتها، ويُعلِّل نتائجها، فقد كان غزير الاطلاع، حسن التصوُّر والتصوير معاً، دافقَ الأسلوب، على نهجٍ أدبيٍّ لا يُغفِل عمق المعنى، وسلامة المنطق، كما أنَّ له رسالةً في الحياة عرفها منذ نشأته الأولى، وظلَّت تلازمه حتى مختتم حياته، وهي في كلِّ يومٍ تزيدُ سُطوعاً، وترسخُ ثباتاً، هذه الرسالة هي أنَّ الإسلام صالحٌ لقيادة الإنسانيَّة[2]؛ ما أسفرَ عن عنايته بتحليل الأسباب الداعية لتأخُّر حَمَلَة لواء هذا الدِّين وتقهقرهم، حتى أخرجتهم تلك الأسباب عن مساواة آبائهم في عُشْرِ فضائلهم، وقد أعادها بعد طول نظرٍ وتأمُّلٍ إلى «**سوء فهمنا لمعنى الدِّين وحمله على غير المراد منه**»[3].

وقد أشارَ الباحث معتز شكري[4] في تقديمه لكتاب (المدنيَّة والإسلام) إلى تميُّز المشروع الفكريّ العام لفريد وجدي بعددٍ من السّمات، مِن أهمِّها:

---

(1) تولَّى فريد وجدي تحرير مجلَّة الأزهر نيّفاً وعشر سنين. انظر: الأعلام للزركلي: 329/6.

(2) محمَّد فريد وجدي: الكاتب الإسلامي والمفكّر الموسوعي، د. محمد رجب البيومي، سلسلة أعلام المسلمين (86)، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م، ص 45.

(3) المدنية والإسلام: 155.

(4) معتز محمود عبدالحميد شكري: صحفي وباحث مصري، حصل على ليسانس الآداب بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة القاهرة عام 1975م، ودبلوم الترجمة الإنجليزية العالي بجامعة القاهرة عام 1984م، عمل مديراً لوكالة أنباء الشرق الأوسط، فاز بعددٍ من الجوائز الصحفية، شارك في ترجمة وتحرير دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية – دار الشعب – المجلّدان (16 و17)، كما شارك في دليل القارئ الواعي إلى بروتوكولات حكماء صهيون، وله عشرات المقالات والدراسات بالصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية وبعض المواقع الإلكترونية.

- الاقتناع الذاتيّ التامّ وإقناع الآخرين بالتالي بالإسلام كنسقٍ فكريّ قادر على التعاطي مع جميع مشكلات الحياة، ومؤهَّل بمفردِه – من خلال قِيَمِه وأُسُسه العامَّة وأفكاره الاعتقاديَّة وتطبيقاته التشريعيَّة والعمليَّة والأخلاقيَّة – لحلِّ إشكالية الصراع بين واقع الشرق المتخلِّف علميًّا وواقع الغرب المتقدِّم.

- مخاطبة الغرب لإعادة شرح الإسلام، ونفض الغبار الذي لَحِقَ به وسوء الفهم الذي غلَّف تعامل الغرب الأوروبيّ معه.

- تناول أسباب التخلُّف ونقاط الضعف الداخليّ للمسلمين لمعالجتِها وإصلاحِها.

- محاولة وضع نظرية تُثبِت صلاحية الإسلام للحياة المعاصرة بكلِّ جوانِبها، وبالرغم من كلِّ التحديات التي تمثِّلها.

- الانتصار لما أسماه: المذهب الرُّوحي وتفنيد أُسُس الماديَّة والمذهب المادي.

- محاربة البدع والخرافات والسلوكيَّات الخاطئة والناجمة عن تفشِّي الأُميَّة والجهل، ولاسيما بين الطبقات الأكثر فقراً، من قَبيل الممارسات الصوفيَّة الشعبيَّة، وكثير من عادات العوام وتقاليدهم وقيمهم[1].

(1) من مقدمة معتز شكري، ص 65.

- كتابه (الإسلام والمدنيَّة):

بدأ فريد وجدي هذا الكتاب بعدَّة أفكارٍ ذَكَرَ أنَّها كانت تجيشُ في نفسِه قبل سنوات ودفعته لتأليف الكتاب، وخلاصتها أنَّ العلاقة بين الشرق والغرب وصلت في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر إلى درجةٍ لم يسبق لها مثيل في التاريخ من حيث تشابك مصالح الطرفين، مما يوجب أنْ يتعارفَ الفريقان تعارفاً يمحو ما سبق من التناكر الذي كانت نتائجه دائماً اضطرام نيران الشقاق بينهما؛ مما يدعو إلى التقاطع المنافي لمطالب المدنيَّة المستقبَلة[1].

وقال إنَّه لابدَّ من تفهيم الأوروبيين حقيقة الدِّين الإسلاميّ وماهيَّته وإثبات أنَّه ضامنٌ للإنسان نَيل السعادتين، وكافلٌ له راحة الحياتين، وأمَّا وجهُ كون ذلك ضروريًّا لا مناصَ منه فهو «أنَّ الغربيين أصبحوا بجدِّهم ونشاطهم أصحاب السلطان والنُّفوذ على معظم العالَم الإسلاميّ، وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ومعتقدين ما يهذي به بعض كُتَّابِهم ضدَّه، فإنَّهم لا يستطيعون أنْ يروا في ديانة محكوميهم إلا عبئاً ثقيلاً على عقولهم، وحِمْلاً مُضنِياً لمداركهم، فلا يقرُّونهم عليه إلا احتراماً لعواطفهم فقط، راجين من العلوم العصريَّة والمعارف الطبيعيَّة القيامَ بتهذيبه في المستقبل».

ويُضيف أنَّ للأوروبيين العُذر في تصديق التُّهم ضدّ الإسلام والمسلمين ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدِّين إلا البدع التي اخترعها صغارُ العقول وقَبِلَها منهم العامَّة، وزادوا عليها أشكالاً من الأوهام والأضاليل تنفر

(1) المدنيَّة والإسلام: 4.

منها الطِّباع البشريَّة، وتُنافي أصول المدنيَّة.. وقد تساءل في دهشةٍ: «كيف نرجو أنْ يفهم الأوروبيون حقيقة ديننا، وأنَّه الملاك الوحيد للسعادات كلّها كونهم لا يعرفون مِن دين الإسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كلّ يوم مثل الصياح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات، ومثل اقتراف أشدّ المنكرات المنافية للأدب والعقل في الموالد التي تُقام في كثيرٍ من نقط القُطر المصري، ومثل الاجتماع إلى حلقاتٍ كبيرة على مرأى ومَسمَع من ألوف المتفرّجين والصياح الشديد بالذِّكر مع التمايل يميناً ويساراً إلى غير ذلك مما لو أردنا ذكره لطالَ بنا الكلام وخرجنا عن المقام.. فهل، والحالة هذه، نستطيع أنْ ننكر على مَن يعيبُ ديننا أنْ يلصق به شائنات التُّهم؟».

فلابدّ مِن وجهة نظره من «تفهيم العالَم أجمع أنَّ الدِّين الإسلاميّ فضلاً عن كونه بريئاً من الأضاليل التي ينسبها بعض الكَتَبَة ومُنَزَّهاً عمَّا يفعله العامَّة على مرأى من المتفرّجين فإنَّه ناموسُ السعادة الحقيقيَّة، وملاك المدنيَّة الصادقة، حتى ينبعثوا إلى احترامه ومحبَّته كما يحترمه ويحبّه بعض الفلاسفة الكبار الذين درسوه واعتقدوه: هذا الواجب يلقى على عاتق أبناء هذه المِلَّة الذين أسعدهم الجدّ بتعلُّم اللغات الأجنبيَّة».

ثمَّ يقول: «هذه الأفكار كانت تجيشُ في صدري منذ أربع سنوات وأنا إذ ذاك في سنّ البدء في العمل للوطن، فلم أرَ أفضل لخدمته من هذه الوجهة؛ فثابرتُ من حينها بهمَّةٍ لا تعرفُ الملل على درس ما يؤهلني إلى فهم حقيقة الإسلام حتى آنستُ من نفسي بعض القوَّة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس. فابتدأتُ أعمالي بتأليف كتابٍ باللغة الفرنساويَّة نفيتُ فيه عن الإسلام

كلَّ تهمةٍ ألصقها به المفترون، وأثبت الأدلَّة الحسيَّة وبالاستناد على البَدائِه العلميَّة أنَّه روح المدنيَّة الحقيقيَّة، وعين أمنية النفس البشريَّة، ونهاية ما ترمي إليه القوَّة العقليَّة، وأنَّ كلَّ رقيٍّ يحصل في العالَم الإنسانيّ ليس هو إلا تقرُّباً إلى الديانة المحمَّدِيَّة. ولم أكد أنتهي من تأليفه حتى بعثتني نفسي إلى ترجمته إلى لغتنا العربيَّة الشريفة؛ لكي أكون قد قمتُ ببعض الواجبين المطلوبين في آنٍ واحد».

وأوضح وجدي أنَّه بكتابه هذا يسعى لإثبات أنَّ المسلمين أضاءوا للبشريَّة أنوارَ المدنيَّة، وأسَّسوا أركانَ العدل والإنسانيَّة في جميع أرجاء الكرة الأرضيَّة، وسادوا أغلب ممالكها بأفضل أنواع السلطة الاعتداليَّة. وبالجملة صارت دولتهم دولة العالَم بأسرِه، بينما كان غيرهم يهيمُ في وِديانِ الجهالة، ويضرب في ليلِ الضلالة. وأنَّه من المستحيل أنْ يكون ذلك التطوُّر الغريب الذي دخلت فيه أمَّة العرب في سنين قلائل، بعد أنْ كان قد مضى عليها بضعة آلاف عام وهي كما لم تترق عمَّا كانت عليه قيد شبر، قد حدث كلّه بدون قواعد محكمة وأُسُس متينة[1].

فهو في كتابه يسعى للبرهنة على أنَّ في الإسلام نفسه من قواعد المدنيَّة ما لو اتبعته البشريَّة لحقَّقت التقدُّم الكامل والسعادة المطلقة؛ فكان من دعائه: «اللهم إنَّ المسلمين عن أسرار دينهم لمحجوبون، وعن بدائعه للاهون؛ فهبهُم اللهمَّ مَيلاً إلى ترييض نفوسهم في حقائق دينكَ السرمدي وقانونكَ الأبدي، وهب اللهمَّ بصائرهم قوّة تمتّعهم من دينهم بما متَّعت به آباءهم الأقدمين، إنَّك رحيمٌ بالمؤمنين».

---

(1) نفس المصدر السابق: 10 – 11.

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

أورَدَ فريد وجدي جملةً من الأسباب التي ارتآها موجِبةً لتأخُّر المسلمين عن رَكبِ الحضارة، وقد استهلَّ حديثه بأنَّ هذه المسألة قد بحثها قبله كُتَّابٌ فطاحل، إلا أنَّ أكثرهم أغضَى كلّ الإغضاء عن ذات العِلَّة، وكشفَ عن منهجيّته في التعامل مع هذه المسألة بقوله: «أمَّا نحن فلا نريد أنْ نسلكَ هذا المسلك الذي لم ينتج فائدةً ما، بل نريد أنْ نثقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصلَ بعون الله إلى معرفة ذات العِلَّة، ومتى عرفناها سَهُلَ علينا ولا شكّ معرفة دوائها وكيفيَّة تطبيقه».

وقد استطاع فريد وجدي بحدسِه الولوجَ إلى لُبِّ الداء الذي أصابَ الأمَّة في عصره، وساعده على ذلك ثقافته الموسوعيَّة وقدرته الفائقة على توليد المعاني.

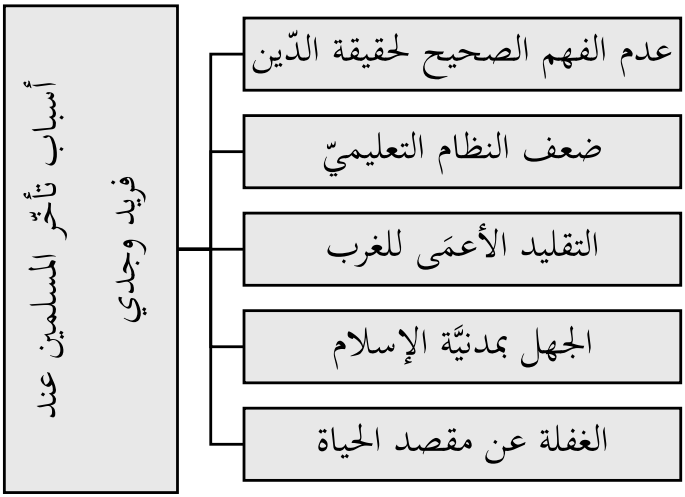

يقولُ في مبتدأ حديثه عن أسباب التأخُّر: «لا يخفَى على كلّ إنسان أنَّ مدنيَّة المسلمين التي تكوَّنت جُرْثُومتها[1] في جزيرة العرب فتفرَّعت أفنانها في مدَّةٍ قصيرةِ الأمد على أكثر بلاد المشرق، لم يكن لها من سببٍ أولى غير الديانة الإسلاميَّة، ويتمكَّن كلّ إنسان باستقرائه التواريخ وعلوم العمران أنْ يستدل على أنَّ هذه المدنيَّة كانت أسرع المدنيَّات سَيْراً، وأكثرها لألاءً، وأوسعها بقاعاً، وأعجبها منبتاً، وأقواها امتلاكاً لأزمَّة ذَويها، وتأثيراً على أذهان متَّبعيها، وأنَّها كانت جامعةً لناموسيّ كلّ السعادة الاجتماعيَّة وهما: العلم والعمل.

هذه أمورٌ يهديها النظر المجرّد في تاريخ المسلمين في مبدأ أمرهم، ولكنَّا الآن لو أَجَلْنا نظرنا جولةً صغيرة على جميع الأُمم الإسلاميَّة فلا نرى إلا عكس ما كان عليه آباؤنا الأُوَل؛ نرى نواميس الانحطاط سائرةً بِنا القهقرى، وآخذةً في مَحوِ وجودنا شيئاً فشيئاً، مع أنَّ كلّ العناصر المكوّنة لمجموعنا لم تزل تدّعي الإسلام وتحافظ عليه محافظةَ الإنسان على فؤاده، فهل ذلك مصداق لقولِ متطرِّفي فلاسفة هذا العصر من أنَّ شأن الديانات عموماً تقييد الإنسان عن الرُّقي ومنع النفوس عن التدرُّج في معارج الكمال؟

كلا، فإنَّ أقل نظرةٍ في حالة العرب في جهالتهم ووحشيَّتهم قبل الإسلام، ثمَّ مدنيَّتهم وسرعة رقيِّهم بعده مما لم يُعهد له مثيلٌ عند سواهم، تدلُّنا دلالةً واضحة على كذب هذه المقولة»[2].

---

(1) الجُرْثُومَة: الأصلُ. انظر: المعجم الوسيط: 114.

(2) المدنيَّة والإسلام: 153 – 154.

وهكذا نجده قد ردَّ مقولات فلاسفة الحداثة الغربيَّة، الذين زعموا فيها أنَّ الديانات هي التي تسبَّبت في تقييد حرية الإنسان عن المدنيَّة، مستشهداً في ذلك بمدنيَّة المسلمين التي انبثقت عن أصول دينهم الحنيف، وهي التي شَهِدَ لها فريقٌ مِنَ منصفي فلاسفة الغرب أنفسهم.

وقد أوجز أهمّ الأسباب التي ارتآها في مسألة تأخُّر المسلمين، من خلال النقاط الآتية:

– عدم الفهم الصحيح لحقيقة الدّين:

تأسَّفَ فريد وجدي على حالة كثيرٍ من المسلمين الذين غابتْ عنهم حقائق هذا الدِّين العظيم، فراحُوا يبتغون مرشدين قد ابتلوا بعدم الفهم الصحيح لحقيقةِ الدِّين، على الرغم مِن أنَّها من السهولة ومتانة القواعد، ثمَّ راحَ يسأل: هل يظنّ المسلمون أنَّ الله تعالى لم يُنزِّل القرآنَ إلا ليفهمه رجالٌ مخصوصون، أو ليُقْرأ سَرْداً وبدون تعقُّل على رؤوس القُبور وفي أوساط الطرقات، أو ليُتلى بألحان الغناء في ليالي الأفراح بين لَغَطِ النرجيلات ودُخان السجارات، أم هل يظنّون أنَّ أحاديث رسول الله ﷺ لا يصحُّ أنْ تُتلى إلا لقضاء الحوائج وحصول البركات في المنازل؟

ثمَّ أجابَ عن ذلك بقوله: «**ليعلمَ المسلمون أنَّ كلّ هذه الأمور تُنافِي الإسلام، وتُساعد على استجلابِ سَخَطِ ربِّ الإسلام**».

وتحذيراً من مغبَّة الوقوع في شَرَكِ هذه المنكرات، أكَّد أنَّ الإسلام لم يُعيِّن طائفةً من المسلمين لأمرٍ خاصٍّ بامتيازاتٍ خاصَّة تعلو بهم أمام القانون الإلهي عن مرتبة أقلّ المسلمين مكانة وجاهاً، بل فتح الباب للكلِّ، باب الفضل الربانيّ،

وقرَّر أنَّ ذلك الباب مفتوحٌ للكافَّة على السواء، يلجُهُ مَن أراد الولوج بدون احتياجٍ ولا عَوَزٍ لمرشد غير كتاب الله وسُنَّة رسوله، ولم يكتف بذلك بل حذَّر كافَّة متَّبعيه من الوقوع في أَشْراك مَن يدَّعون الإشقاء والإسعاد أو ينتحلون لأنفسهم حقًّا ليس لسائرِ الأفراد[1].

فهذه البِدَع والمنكرات التي عانَى منها المسلمون؛ قد أوجبت عليهم ذلك التّيه في ظلمات التأخُّر والتخلُّف عن رَكبَ المدنيَّة، ما لم تكن منهم ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: **104**)؛ لذا فقد رأى فريد وجدي أنَّ دواء المسلمين الوحيد هو أنْ يفهموا معنى الإسلام، ويدركوا أنَّ غرضه الأوّل هو ترقية حالتي الإنسان الماديَّة والأدبيَّة معاً؛ لارتباطهما ببعضِهما ارتباطاً كليًّا، لأجل أن تستطيع النّفس أن تعرج إلى ما أُعِدَّ لها من مقاوم العلاء عروجاً سريعاً. وكذلك أنّ يفقهوا أنَّ لفظة (عبادة) في الإسلام لا تعني فقط العبادة الجسميَّة من ركوعٍ وسجود، بل إنَّ كلّ ما يفعله الإنسان مريداً به أمراً ينبني عليه إصلاحٌ لذاته أو لأسرته أو لجمعيّته أو لبني نوعه أو للكائنات كلّها هو في نظر الإسلام من أحسن أنواع العبادة، وأشرف أشكال الطاعة لله عزَّ وجل[2].

وعلى ذلك، فقد صرَّح بأنّ «جيلنا الحاضر أكثرُ الأجيالِ شعوراً بضرورة فضائل الإسلام لبناء ما تهدَّم من مجدنا، وأشدّها تقريعاً لعلمائنا في تقصيرهم عن الإرشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر»[3].

---

(1) نفس المصدر: 67.

(2) المدنيَّة والإسلام: 167.

(3) نفس المصدر: 161.

ونتيجةً لضعف الإرشاد والتعليم اللّذين عانَى المسلمون من ويلاتِهما خلال الأزمنة الأخيرة، نجده قد أرشدَ إلى ضرورة الأخذ بكليَّات الشريعة وعدم الاكتفاء بالعبادات الظاهرة على أهميَّتها البالغة، فيقول في ذلك:

«إنَّه بإلقاءِ نظرةٍ على مجموعنا الآن، نرى سوادَنا الأعظم لا يفهم من الإسلام إلا أنَّه محضُ صلواتٍ للعبادة، ومجرَّدُ دعواتٍ يُقصد بها قضاءُ الحاجات في الدنيا، أو نَوال الدرجات في الآخرة، وأمَّا ما فيه من آيات الحِكمَة، ومعجزات الفضائل التي بعثَتْ الأمَّةَ العربيَّة من جَدَثِ خمولها الأوّل إلى ذروة جلالتها التالية، فقد ضربوا عنها صَفْحاً، مع أنَّها هي لباب الدِّين، وزُبدة الإسلام، والغرضُ الوحيد من إنزالِه وتشريعِه»[1].

– ضعف النظام التعليميّ:

اعتبرَ فريد وجدي أنَّ تراجع التعليم كان أحد أهمّ الأسباب الموجبة لتأخُّر المسلمين، فكان مِن أوائل مَن نادوا بإصلاح التعليم الأزهريّ باعتباره الضمانَ الوحيد لبقاء الأزهر، وإلا فيُشبه أنْ يكون مصيره مصير تلك المعاهد الأوروبيَّة التي كانت مِلكاً لرجال الدِّين، «وكانوا بإزاء الرُّقي العلميّ في القرن السابع عشر وما تلاه، يُمانعون المصلحين في إدخال العلوم الطبيعيَّة إلى معاهدهم، بل يأبون على ناصحيهم تغيير شكل دروسهم.. وما زالوا يدافعون ويندفعون حتى تغلَّب عليهم خصومهم بقوَّة ناموس الرُّقي وقلبوا تلك الكليات الدينيَّة إلى كلياتٍ علميَّة تُنابذ الأديان وتُعاديها، بعد أن طردوا رجال الدِّين منها»[2].

---

(1) نفس المصدر: 155.

(2) محمد فريد وجدي (حياته وآثاره): 125.

فكان أنْ أصدَرَ عدَّة مقالاتٍ كتبها في أوائل عهده بالقاهرة عن التعليم في الأزهر، وكان هو الذي أشارَ إلى هذه المقالات بمناسبة خبرٍ عن تقدُّم طلاب بالأزهر بعريضةٍ يطالبون فيها إذ ذاك (سنة 1908م) بتدريس العلوم التي تدرس بمدرسة القضاء، ترشيحاً لهم لتولِّي وظائف المحاكم، فكتبَ في التعليق على هذا الخبر، بعد أنْ أبدى سروره بهذه النهضة، وإنْ تأخَّرت عامين عن وقتها المناسب: «نذكر في هذه المناسبة أنَّنا كتبنا في نقص العلوم الأزهريَّة عدَّة مقالاتٍ سنة 1905م، فحضر إلينا جمهورٌ من الطلبة يطلبون إلينا أنْ نتوسَّط بينهم وبين مَن بيدهم الأمر في إنالتهم حقّهم من هذه العلوم، فقُلنا لهم: إنَّ الحكومات لا تُجيب إلا أصوات الجماهير عادةً، فإنْ كنتم تحسّون بهذه الحاجة فارفعوا عريضةً للجناب العالي ممضاة من نحو ألف طالبٍ أو ألفي طالب، فقالوا: وكيف السبيل إلى جمع هذه الإمضاءات والمشيخة متى شعرت بنا قطعت جراياتنا، وتصيَّدتنا، واعتبرتنا خارجين على النظام ولا سيما وهي تكره تلك العلوم أشدَّ الكُره، وتتبرَّم من درس الرياضة وتقويم البلدان، فقُلنا لهم: إنْ لم تفعلوا ذلك فلا نملكُ لكم شيئاً، فانصرفوا»[1].

وكان فريد وجدي قد كتب مقالتين بجريدة (المؤيَّد) في سنة 1906م، بعنوان: (**إصلاح الأزهر**)، وقد أعاد نشرهما في الجزء الثامن من المجلَّد الثالث من مجلَّة (الحياة)[2] بمناسبة ما أعلنته (نظارة المعارف) من خبر عزمها على إنشاء مدرسة للقضاء الشرعيّ.

---

(1) جريدة الدستور، عدد 20 مايو سنة 1908م.

(2) أصدرَ فريد وجدي مجلة (الحياة) عام 1899م، ثمَّ توقَّفت 1900م، وعادت للصدور سنة 1906، 1907، وتوقَّفت، ثمَّ عادت للصدور 1914، 1915م.

وقد اتَّجه في هاتين المقالتين إلى نقض الأصل الذي يتوكَّأ عليه معارضو الإصلاح، وهو أنَّ الأزهر مدرسةٌ دينيَّة لا شأنَ لها إلا بعلوم الدِّين، مِن أجلِ ذلك أُنشِئت، وعلى ذلك قامت، وفي هذا الطريق مضت حتى اليوم، وذلك عنده وضعٌ لا حقيقةَ له ولا سند يعتمد عليه، لا مِن تاريخ الأزهر خاصَّة، ولا مِن الأصل في المدارس الإسلاميَّة في القرون الأولى عامَّة، وإنَّما هو وضعٌ حادث في عصور الانحطاط، وفوق هذا فإنَّ هذا الوضع الذي يصرُّ معارضو الإصلاح على لزومه للأزهر، هو العِلَّة الرئيسيَّة فيما يعانيه، ولا سبيلَ إلى نهوض الأزهر من وهدته التي يتردَّى فيها إلا بزوال هذه العِلَّة الأولى.

أمَّا عن فساد دعوى أنَّ الأزهر مدرسة دينيَّة، فإنَّه يشرح ذلك بقوله: «يقول المتكلِّمون كلَّما عرضَ لهم ذكرُ الأزهر إنَّه (كليَّة دينيَّة)، وهي تسمية حادثة ضلَّلت أكثر المتكلِّمين عليه في مذاهب إصلاحه، وهي لا تنطبقُ على غرضِ بانيه ولا على ما فهمه أساتذته وتلاميذه قروناً كثيرة؛ والحقيقة أنَّ الأزهر كان (كليَّة علميَّة عامَّة) لا للدِّين خاصَّة، قصدَ بها واضعُها أنْ تكون على مثال كلّ الكليات التي كانت منتشرةً في العالَم الإسلاميّ، في القرن الرابع الهجري، وما عهدنا المسلمين في دورهم ذلك قد قسَّموا مدارسهم إلى دينيَّة ودنيويَّة، بل عهدناهم موحِّدين، فكانت المدرسة التي تعلَّم فيها ابن رشد الفقه، حتى صارَ من أصحاب الأقوال في مذهب مالك، هي نفس المدرسة التي تعلَّم فيها الرياضيات والطبيعيات والفلسفة، وكان الأزهر الذي نبغ فيه الجلال السيوطي في العلوم الدينيَّة هو نفس المعهد الذي درس فيه الطب والأقرباذين[1]،

(1) أي: علم العقاقير، وخصائص الأدوية.

وقُل مثل ذلك في سائر العلوم الرياضيَّة والفلكيَّة والتاريخيَّة التي كان الأزهر معهداً لها من لدن القرن الرابع الهجري إلى عصر سقوطه في القرون المتأخرة، وبناءً عليه فقد كان الأزهر كليَّة علميَّة للعلوم عامَّة لا للدِّين خاصَّة، وإنَّما غلب عليه الدِّين دون سائر العلوم الأخرى لرواج علومه في تلك الأزمان، لسرعة ارتقاء المتبحِّرين فيه في الجاهِ والشرف، وعندنا أنَّ مجرَّد تعديل هذه النظرة التاريخيَّة على الأزهر يعدِّل كثيراً من أفكار المتكلِّمين فيه».

ففريد وجدي في بحثه لمسألة الأزهر، لا يدرسها وحسب في نطاق تاريخه، وما تعرَّض له من عِلَل، وما لابسه من ملابسات انحرفت به، ولكنَّه يدرسها فوق ذلك، في ضوء ما تعرَّضت له المعاهد الدينيَّة عامَّة، والأوضاع التي صارت إليها الهيئات الدينيَّة في العالَم، وفي نطاق دراساته عن الدِّين والعلم وعلاقة ما بينهما ورأيه في الدِّين الإسلاميّ من هذه الناحية، فتوصل إلى أنَّ الأزهر، بانحرافه عن وضعه الأوَّل، وبخروجه على المبدأ الإسلاميّ، اتِّخاذه ذلك الطابع الدينيّ الخاص والشكل الكهنوتيّ الضّيق، إنَّما يحمل بذلك العِلَّة الأولى فيما يعانيه، مما يشفق دعاة الإصلاح من عواقبه، ويعملون على معالجته، ولن يُتاح ذلك له، مهما سنّ له من نُظم، إلا بإزاحة هذه العِلَّة عنه، وتعديل وضعه على النحو الذي يشرحه بقوله: «فرأيي أنَّ إصلاح الأزهر لا يتأتَّى إلا برفع هذه العِلَّة العامَّة عنه، وذلك إمَّا بجعله كليّة علميّة عامّة، ويكون الدِّين من بعض فروعها، كما كان غرضُ واضعه، وإمَّا قصره على أنْ يكون كليَّة دينيَّة محضة، على شرط إدخال العلوم الجديدة إليه، بحيث يكون المتخرّج منه صالحاً لأنْ تعتبره نوابغ البلاد عمدةً يُرجَع إليه في فهم الشريعة والديانة على الصورة

التي تتناسب ومكانة المعارف العصرية، ولا بدَّ من اعتبار شهادة الأزهر، بعد إدخال هذه العلوم إليه، شهادةً تُخوِّل صاحبها الحقَّ في التربُّع في الوظائف العالية، لكي لا يتَّخذ الدِّين صناعة، وهو المظهر الذي أصبح لا يُحتمل في نظر الناس الآن، وسيكونُ من أحقر الوسائل في المستقبل.

وكلُّ هذا لا يتأتَّى إلا بإخضاع الأزهر لنظامات المدارس العالية، بتقسيمه إلى قسمٍ تحضيريّ يليه قسمٌ ابتدائيّ ثمَّ ثانويّ ثمَّ عالٍ، ويحتاط لقبول الطلبة من جهة السنّ والصحَّة واللياقة بعينِ ما يُحتاط به لكلِّ مدرسةٍ في العالَم»[1].

وإذا كانت هذه المقالات قد أسخطت طائفةً من شيوخ الأزهر وأثارت غضبهم، فلا ريب أنَّها استطاعت أنْ تستهوي طائفةً من طلابه الذين كان يسوؤهم أنْ يروا هذه المفارقة الضخمة بين ما هُم عليه وما ينبغي أنْ يأخذوا به، فكانوا يتطلَّعون إلى آفاقٍ وراء ذلك الأُفُق الضيِّق الذي يتمثَّل في حلقات شيوخهم، وما يتردَّد فيها من أقوالٍ ومماحكاتٍ لفظيَّة لا صِلَةَ لها بالحياة الفسيحة الزاخرة وراء ذلك الأُفُق.

وقد أشارَ د. محمد طه الحاجري إلى أنَّ هذه المقالات أثارت تطلُّعات أولئك الطلاب نحو هذه المعارف التي كانت تتبرَّج لخيالاتهم، فاتَّجهوا إلى صاحب هذه المقالات يتحدَّثون إليه في شأنِها، ويتساءلون عن الوسيلة إليها، ويتمنَّون لديه لو استطاعوا أنْ يتزوَّدوا بالعلوم التي يرى ضرورة التزوُّد بها، أو لو أنَّه قَبِلَ أنْ يتَّخذهم تلاميذ له فيها.

(1) محمد فريد وجدي (حياته وآثاره): 124.

وراقت لديه الفكرة ولم يلبث أنْ شرعَ في وضعها موضعَ التنفيذ، ولم يكن يعوزه لذلك غير المكان الذي يُلقي فيه دروسه على طلابه هؤلاء، ولم يكد يُفاتِح في هذا الأمر صاحب المدرسة التحضيريَّة سيد أفندي محمد، حتى رأى أنْ يُوسِّع له مكاناً في مدرسته، يُحاضِر فيه طلابه. وهكذا، وبهذه البساطة، تكوَّنت هذه المدرسة الجديدة التي كان يقوم بالتدريس فيها وحده، وقد سمَّاها (**مدرسة العلوم العالية**)، وحدَّد الغرض منها بأنَّه: «**تخريج فرقة من حَمَلَة العلوم الدينيَّة، في المعارف العصرية والفلسفة الحديثة، ليكونوا على بينةٍ من أمرِ الدفاع العصريّ عن هذا الدِّين الحَنيف**».

أمَّا برنامج هذه المدرسة فيتلخَّص في «العلوم الكونيَّة والاجتماعيَّة، بأصولها وفروعها»، ثمَّ شرح تفصيلات هذه الجملة، فقال عن الشطر الأوَّل من هذا البرنامج: «فيـدخل تحت الاسم الأوَّل جميع العلوم الطبيعيَّة، على أسلوبٍ ينشئ لدى الطالب فكرةً عامَّة صحيحة عن الكون وعوالمه، والعلوم التي وُضِعَت لها»، وقد عقَّب على هذا بأنَّه سيضع لذلك كتاباً جامعاً على طريقةٍ جديدة مناسبة لوظيفة العلم الديني، مُجَلِّياً لهم فيه وجوه العِبَر الكونيَّة والآيات الوجوديَّة، مُنَبِّهاً أذهانهم إلى مآخذ البراهين الدينيَّة منها، على الأسلوب الذي دعا إليه دين الفِطرَة، الإسلام، لتنقلب العلوم الطبيعيَّة موقظاً لعاطفة الإيمان لا الإلحاد، وإنَّما تتسرَّب الضلالات إلى الأذهان من تعلُّم الطبيعيات لفساد أسلوب تدريسها».

ثمَّ جعل يتحدَّث بعد ذلك عن الشطر الثاني من شطري الدراسة، وهو العلوم الاجتماعيَّة، فقال: «أمَّا مقصودنا من تدريس العلوم الاجتماعيَّة

فالتطواف بحضرات الطلبة على جميع ما اكتشفته القرائح الإنسانيَّة من النواميس العاملة على ترقية هذا النوع المكرَّم، وما ينتاب تلك الترقية من أدوارٍ وأعراضٍ وأمراض، وما فتحه الله على العقول من علاجاتٍ ووسائل، ويدخل في هذا الباب درس الأمم من حيث علائقها بالأخلاق والأديان والشرائع الإلهيَّة والوضعيَّة والعادات والأساطير والحكومات والثروة.

هذه المعارف العامَّة قسَّمها العلماء إلى علوم، وانقسم العلماء في كلٍّ منها إلى مذاهب؛ فوجد علم العمران، والتاريخ، والأمم، والطبائع، والسياسة، والاقتصاد، والشرائع.. إلخ، وتولَّدت مذاهب الاشتراكيين والكومونستيين وغيرهم، مما لو خلا ذهنُ المتصدِّر لتهذيب الأمم وقيادتها، في هذا العصر من الإحاطة به جملةً وتفصيلاً، لخلا من ألزم ما يلزمه للقيام بوظيفته، فإنَّ الأمم في عقائدها وعوائدها وحكوماتها وثروتها لا تسيرُ كما يجيء، وإنَّما تسيرُ مقودةً بقوانين ثابتة اكتشفها العلم، فالإضراب عن تعلُّمها ممن يدَّعي أنَّه قائد مِن قوَّاد هذه الأمَّة يعدُّ إضرابا عن وسائله في القيادة، فلا يعجبنَّ بعد ذلك إنْ سقطَ اعتباره في نظر مَن هم تحت قيادته، وفيهم مَن هم أعلم منه بذلك».

وقد قدَّر د. محمد طه الحاجري توقيت افتتاح هذه المدرسة وبدء محاضراتها في منتصف عام 1907م، بناءً على صدور برنامجها في الشهر الذي صدر فيه الجزء الحادي عشر من مجلَّة (الحياة).

ونستطيع أنْ نتمثَّل صورةً من هذه المحاضرات فيما كان يُنشر من خلاصاتها في مجلة (الحياة)، وكانت أولاها، أو المحاضرة الافتتاحيَّة بعنوان: (**نظرة عامَّة على العلم**)، تحدَّث فيها المحاضر عن تقسيم العلوم عند أرسطو، ثمَّ انتقل إلى

الحديث عن آراء العلماء المحدثين في ترتيب العلوم، كـ ديكارت[1]، باكون[2]، ألمبير[3]، ديديرو[4]، وأوجست كونت[5]. وكأنَّما جعل هذه المحاضرة مقدِّمةً لمحاضراته التالية التي كان يتحدَّث فيها عن هذه الموضوعات، (كما نرى ذلك فيما كان يُنشر من خلاصتها):

ويبدو أنَّ هذه المدرسة وجدت إقبالاً غير قليلٍ على محاضراتِها من طلاب الأزهر، وكان فريد وجدي أرادَ أنْ يجعل دروسها متاحةً للجميع، لا يحتاجون

(1) René Descartes (1596 – 1650 A.D.).
(2) Francis Bacon (1561 – 1626 A.D.).
(3) Jean le Rond d'Alembert (1717 – 1783 A.D.).
(4) Denis Diderot (1713 – 1784 A.D.).
(5) Auguste Comte (1798 – 1857 A.D.).

في متابعتها إلى إذن، ولا يلتزمون بأيّ إجراء، ولكنَّه لم يلبث أنْ قيَّد الالتحاق بها؛ فاشترطَ لذلك بعض الشروط العلميَّة والتنظيميَّة، ونشر بذلك بياناً في جريدته (الدستور)، قال فيه:

«.. وقد توخَّينا أنْ نجعل الدخول إليها بلا استئذان تعميماً للفائدة ولكنَّا رأينا بالاختيار أنَّ بعض الذين يحضرون تلك الدروس غير كفءٍ لتلقِّي هذه العلوم العالية التي لا تليقُ إلا بالمنتهين في العلوم الشرعيَّة، فاقتضى الحال أنْ يُحصر عدد طلبتها في طائفةٍ صالحة للتلقِّي، ممن يكونون بلغوا درجةً عالية في العلوم الشرعيَّة، تؤهِّلهم لفهم أسرار الاجتماع، ودقائق المسائل الفلسفيَّة، وأنْ نسري على حضراتهم نظاماً مدرسيًّا، كأنْ يحضروا في مواعيد معيَّنة، وألا ينقطعوا عن الدراسة بلا عذرٍ، وأنْ يُسألوا فيما يتلقَّونه كلّ ثلاثة أشهر، حرصاً على أنْ يكونوا حاصلين على ما يُؤهِّلهم للوظيفة السامية التي ننتدبهم لها.

فعلى كلِّ مَن يرغب في حضور هذا الدرس أنْ يُثبت لنا كفاءته العلميَّة بشهادةٍ يُحضرها تدلُّنا على أنَّه يدرس الكتب العالية، وعلى وشك الحصول على شهادة العالميَّة، وإلا فلنا واسع العذر في عدم قبول كلّ طلبٍ يُقدَّم إلينا غير حاصلٍ على هذا الشرط، وإنَّا لا نفعلُ هذا التقييد تضييقاً لدائرة التعليم، ولكنْ لما ثبتَ لنا بالاختبار أنَّ عدداً صغيراً من الحائزين على هذه الشروط المتقدِّمة يُغنينا عن ذلك الجمّ الغَفير، ممن يحضرون درساً وينقطعون درساً آخر».

ولا يُعلم على وجه التحقيق متى انتهت الدراسة في هذه المدرسة، وقد أوضح د. الحاجري أنَّ كلّ ما نعلمه أنَّها ظلَّت مفتوحةً تستقبلُ الطلاب طوال

الوقت الذي كان (الدستور) ينشر فيه ذلك البيان عنها، أي أنَّها ظلَّت مفتوحةً – على الأقل – إلى آخر شهر يونيو سنة 1908م.

وبعد، فمهما يكون من أمر هذه المدرسة، وما لقيته من سخرية بعض الساخرين الذين جعلوا يتهكَّمون بها، ويعجبون الناس من مدرسةٍ تُسمَّى (مدرسة العلوم العالية) تقومُ في إحدى حجرات المدرسة التحضيريَّة، ويقومُ بالمحاضرة في مختلف موضوعاتها رجلٌ واحد، فإنَّها تؤدِّي إلينا صورة من طموح ذلك الشاب الذي لم يكن بلغ الثلاثين، وثقته بنفسه، وإيمانه بالغاية التي ظلَّت ماثلةً أمامه دائماً، يعمل لها، ويلتمس كلَّ وسيلةٍ لبلوغِها، مستهيناً بكلِّ جهدٍ يُبذل في سبيلها، وقد كانت هذه المدرسة من وسائله، كما كان له في الفلاسفة القدماء والشيوخ الأولين الذين كانوا يُلقون دروسهم في أيِّ مكان، ويَلقون طلابهم في أيِّ صورة، ويَحملون عبء الدرس في غير موضوع؛ مثالٌ ماثل تجاهه[1].

– التقليد الأعمَى للغرب:

أشارَ فريد وجدي إلى أنَّ بعضاً من أهل الإسلام أصبحوا يخجلون من اشتغالِهم بالأمور الدينيَّة؛ تقليداً لغيرهم وخشيةً مِن أنْ يُتّهموا بالقصور العقليّ؛ فـ «**إن كان كذلك فهو تقليدٌ أعمَى كان يُغنينا عنه إجالة نظرنا قليلاً في كتابنا السماويّ لنرى أنَّ الإسلام ليس بالدِّينِ الذي يأمرُ بالانزواءِ والاستكانة، أو بالتعصُّب مع الانغماس في المهانة، أو بإضناء الجسم في**

(1) محمد فريد وجدي (حياته وآثاره): 132.

العبادة، مِمّا هو منافٍ لمطالب المدنيَّة الحاضرة والمستقبَلة، بل هو الدِّين الذي يأمرُ بالكدّ والعمل، ويُحبِّب للإنسان السؤدد وعلوّ الهِمَم، ويهديه إلى الفضائل والشِّيَم، كلّ ذلك بحِكَمٍ لا تقارن حِكَمُ الفلاسفة بها إلا كما يُقارن نورُ المصباح بنورِ الشمس في رابعة النهار، فالمتكلِّم في الإسلام والحالةُ هذه لا يكونُ مُردِّداً لأفكارٍ قامت بتكذيبِها الشواهدُ الحاضرة، بل يكونُ ناطقاً عن لسانِ الحكيم العليم بحِكَمٍ لا يأتيها الباطلُ من بين يديها ولا مِن خلفِها، بنظرياتٍ تصيحُ بالدلالة عليها ألسنةُ هذا الوجود الصامت، بقواعدَ لا يعتريها خللٌ ولا يَعْتَورُها زَلَل، بأُسُسٍ عليها يقومُ العمران، ومنها يشرفُ الإنسان على جِنان العرفان، بأنوارٍ تنفُذُ إلى صميمِ الفؤاد، فتشرقُ فيه شمساً لا يخبو ضياؤُها ولا تنطمسُ لألاؤُها، تنيرُ على المرء حُزون هذه الحياة الكَدِرَة، وتفكُّ له عُقَدَها العَسِرَة، تداوي جِراحَ الأفئدة مِمّا أصابها من سهام الحوادث، وتضمِّد قروحها من طعناتِ الكوارث، وتطردُ عن النفوسِ شياطينَ أوهامِها، وتطهِّرها من غاشياتِ أحلامِها؛ فَتَسْكُنُ بعد اضطرابِها وتجعلها تتّجه إلى سعادتِها من بابِها، وتمزق دونها كثيفَ حجابِها؛ حتى تجعلها صالحةً لأنْ تطل على الملكوتِ الأعلى، وتنال منه زُبَد العِلمِ الأجلَى».

فلمَّا كان كثيرٌ من أهلِ الإسلام لا يلتفتونَ إلى هذه الحقائق الباهرة عن دينهم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: 42]؛ وقعوا في شِباكِ ذلك التقليد الأعمَى، مِمّا تسبَّب في تأخُّرِهم ووصولهم إلى تلك الحالة التي وصفَها بقوله: «إنَّنا ندّعي التمدن والتنوّر، ونميلُ للتشبُّه بالمتمدنين في الجري وراء اكتشاف مساتير الكون، ونرمي القاعدين مِنّا بالخُمول والموت

الفكريّ، ونُحِني رؤوسنا إعجاباً بنظريات الغربيين في العمران والسياسة والفلسفة، حالة كوننا صارفين النظر عن تدبُّر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذي لو أفنَى علماء العالَم كلّه أعمارهم في تدبُّر بدائعِهِ وحِكَمِهِ لما وصلوا إلى الغاية منه» [1].

ومِن بين أوجه التقليد التي أصابت كثيراً من خاصَّة المسلمين: تقليدهم للغربيين في نظرتهم الماديَّة للحياة والأحياء، ولذا فقد قضى فريد وجدي قرابة نصف قرن من عمره وهو ينافح الماديَّة والماديّين بكلِّ ما يملك من القوى العقليَّة، كما رصدَ حيّزاً خاصًّا من ماله المحدود لشراء كلّ ما يصدر باللغة الفرنسيَّة من الكتب الخاصَّة بالداروينيَّة والروحيَّة معاً؛ لأنَّه كان يعتقد عن يقينٍ أنَّ المذهب الماديّ واضح البطلان[2].

فكان أنِ اتَّجه لمحاربة أفكار هذا المذهب على النطاق الجامعي أسوةً بجامعات الغرب التي تبنَّت تلك الأفكار بقوّة، فكتبَ مقالاً جادًّا بمجلّة الرسالة، تحت عنوان (**التيارات الفكريَّة العالَمِيَّة والأزهر**)، وقد جاء فيه: «إنَّ الأزهر الذي أرادتِ العنايةُ الإلهيَّةُ أن تجعله مثابةً علميَّة للمسلمين، لا يزالُ يُعنى بالمؤلَّفات نفسها التي كان يُعنى بها آباؤنا الأوّلون، لحياطةِ الدِّين من شبهات المتشكِّكين، ومذاهب المضلِّلين، ولكنْ أين ما عليه المتكلِّمون من ذلك العهد، مِمّا عليه خلفاؤهم اليوم؟! وماذا كنتَ قائلاً حين تعلم أنَّ أكثر ما يُعنى به الأزهر الآن من دفع الشبهات والاستنكارات قد انقرضَ أهلُه

(1) المدنيَّة والإسلام: 165 – 166.

(2) محمَّد فريد وجدي (الكاتب الإسلامي والمفكّر الموسوعي): 94.

منذ قرون، وحلَّت محلَّها مذاهب ونظريات تحتاجُ للفهمِ الدقيق، ويحتاجُ دحضها أو تعديلها إلى النظرِ البعيد، والعلمِ الغزير.

كان آباؤنا يُعْنَوْن بعلم الكلام لمجرّد دحض شبهاتٍ من الدِّين، ونحن نطالبُ اليوم بوجوب تقرير دراسة التيارات الفكريَّة العالَمِيَّة في الأزهر، لا لهذه الغاية فحسب، بل لمقصدٍ لا يقلُّ عنها قيمة، وهو لِمَا في هذه الدراسات من الأثر العظيم في رفع مستوى النظر والتفكير، وتوسيع مجال الفهم للشؤون الإنسانيَّة، وهو ما يجب أن يكون عليه رجلُ الدِّين الذي جعلَ العِلمَ أساسه الرَّكين» [1].

فهذه النظرة الاستشرافيَّة التي أبداها فريد وجدي في هذا المقال، إنَّما تنمُّ عن وعي بضرورة إدراج هذه التيارات الفكريَّة العالَمِيَّة ضمن المناهج الأزهريَّة؛ كي يكونَ خريجُو هذه الجامعة على بصيرةٍ بمخاطر هذه الأفكار الغربيَّة على المجتمعات الإسلاميَّة، وبكيفيَّة الردّ عليها بطريقةٍ علميَّةٍ دقيقة، وهذا الذي دعاه للقولِ في مقالٍ آخر بنفس المجلّة: «.. فالسدُّ الوحيد الذي أراه يقاومُ تيارَ الإلحاد المندفع الذي يكتسح أمامه الأُمم والشعوب، هو أنْ يتضلَّع علماءُ الدِّين من هذا العلم الجديد، ويستخدموه لحلِّ شبهات المشتبهين، وكَبحِ جِماح المستهزئين» [2].

---

(1) مجلة الرسالة، العدد (653)، 1946/1/7م.

(2) نفس المجَّلة، العدد (757)، 1948/1/5م.

– الجهل بمدنيَّة الإسلام:

انكشفَ لفريد وجدي كثيرٌ من الحقائق التي غابت عن مسلمي عصره، فعدَّها مِن أسبابِ تراجع حضارتهم وانزوائِها عن مَجْدِها التّليد، وعلى رأسها جهلهم بمدنيَّة الإسلام؛ ذلك أنَّ «الدِّين الحقّ والمدنيَّة الفاضلة يتَّفقان في المبدأ والغاية»[1].

فَمِن دلائل جهلهم بمدنيَّة هذا الدِّين: جهلهم بأنَّه دينٌ خدمته العلوم الطبيعيَّة على غير عِلمٍ مِن ذَويها، «حتى صارت نصوصه في هذا القرن أوضح من الضياء، وأسهل جولاناً في العقل من الشعاع في الماء، فلا قاعدة دلَّت عليها التجارب، ولا نظرية تأسَّست بشهادة المشاعر يكونُ لها أثرٌ في ترقية الإنسان وتحسين بناء العمران إلا وهي صدَى صوت آيةٍ قرآنيَّة أو حديثٍ من الأحاديث النبويَّة، حتى يُخيَّل للرائي أنَّ كلّ جدٍّ ونشاطٍ يحصلُ من علماء الكرة الأرضيَّة في سبيل رفعة شأن الإنسانيَّة؛ لا يُقصد به إلا إقامة الحجج التجريبيَّة على صحّة قواعد الديانة الإسلاميَّة ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: 53)»[2].

وفي سبيل ترسيخه لمدنيَّة الإسلام، اضطرَّ فريد وجدي إلى الاستشهاد بكثيرٍ من أقوال الغربيين الذين أصَّلوا لمبادئ المدنيَّة الأوروبيَّة، رغبةً منه في إحالتِها لأصولِها الإسلاميَّة، وهذا ما دفعه لأنْ يقول معتذراً: «هذا وليغفر لي القُرّاء الكِرام كثرةَ استشهادي بأقوال علماء أوروبا؛ فإنِّي لم أقصد بذلك

(1) مهمّة الإسلام في العالَم: 298.

(2) المدنيَّة والإسلام: 47.

أنْ أستدلَّ بكلامهم على صِدقِ الدِّين، كلا، فإنَّ الإسلام أجلُّ من ذلك وأعلى، بل قصدي أنْ أبرهنَ على أنَّ كلَّ نواميس المدنيَّة التي سادت أوروبا في القرون الأخيرة فنقلتها من الظلمة إلى النور، ليست بالنسبة لنواميس الإسلام إلا كشُعاعٍ من شمس أو قطرةٍ من بحر»[1].

وقد أقرَّ فريد وجدي في كتابه (**مهمّة الإسلام في العالَم**) حقيقةَ أنَّ المدنيَّة الفاضلة لا تُنافي الدِّين، بل الدِّين هو المَثَلُ الأعلى لأرقَى مدنيَّة، ويعني بالدِّين: «الدِّين الإلهي الخالص من كلِّ شائبةٍ بشريَّة، لا الدِّين الذي تداولته الجماعات بالتحريفِ والتصحيف، والشرحِ والتأويل، حتى خرجَ عن حقيقته وأصبحَ هيكلاً حَجَرِيًّا غير قابلٍ للمماشات التطوُّرات التي تدخل فيها الإنسانيَّة في كلِّ مرحلةٍ من مراحل حياتها العقليَّة والماديَّة»[2].

– الغفلة عن مقصد الحياة:

لمَّا استحكمت غفلةُ المسلمين عن مقاصد حياتهم العصريَّة، كان ذلك داعِياً إلى تأخُّرهم ومُؤْذِناً بتخلُّفهم، وهذا الذي عناهُ فريد وجدي عندما كتَبَ بالعدد الأوّل من (مجلّة الحياة) سنة 1899م، تحت عنوان (**مقصد الحياة**): « فمقصدُ الحياة، والحالةُ هذه[3] هو الحيلولةُ بين مكارب الإلحاد وأذهان أبناء الشرق، ولذلك فهي ستجعل مطمح نظرها جملةَ نقاطٍ مهمّة:

---

(1) نفس المصدر السابق: 17 – 18.

(2) مهمّة الإسلام في العالَم: 296.

(3) المقصود تلك الحالة المتردّية التي وصل إليها العالَم الإسلاميّ في ذلك الوقت.

أولُها: **إقامةُ أقوى الأدلة العلميَّة على أنَّ الديانة الإسلاميَّة هي روح العمران، وقوام سعادة الإنسان،** بطرقٍ لا تجعل للشكوك مجالاً للأذهان، وسنسلكُ لهذا الغرض المسالكَ العصريَّة، وتأييد أقوالها بالحجج الفلسفيَّة الحسيَّة.

ثانيها: **تثبيتُ الأحوال الدينيَّة في العقول الطامحة،** كإثبات وجود الله تعالى والروح، والحياة الآخرة، وسنعتمدُ في ذلك على تحقيقات العلماء العصريّين، جَرْياً مع سُنّة الزَّمان، اعتقاداً مِنَّا بأنَّ نشأتنا الحديثة أحوجُ إلى هذه الخدمة منها إلى سواها، وإيقاناً من لدُنّا بأنَّ نقش أصول العقائد في أذهانِها بالطرق العصريَّة أنفعُ لها وللبلاد من تعليمهم الطبيعة والكيمياء»[1].

ويُؤَكِّد ذلك ما كتبه في مفتتح العدد الأوّل من السنة الثانية لنفس المجّلة: «إنَّنا أسَّسنا هذه المجلّة في مثل هذا اليوم من السنة الماضية، ومطمح نظرنا غرضان مهمّان، هما: تثبيت أصول الدِّين الإسلاميّ الحنيف في عقول أبنائه بنتائج العلم العصري، وإقامة الأدلّة العمرانيَّة والفلسفيَّة على أنَّ هذا الدِّين الكريم، هو منتهى ما يصلُ إليه الإنسان من حقيقة الدِّين، وغاية ما تدفعه إليه استعداداته الفطريَّة المنزوية في طيّ مواهبه الطبيعيَّة»[2].

---

(1) محمَّد فريد وجدي (الكاتب الإسلامي والمفكّر الموسوعي): 47 – 48.

(2) نفس المصدر السابق.

فالمُلاحظ أنَّ فريد وجدي قد حاول تثبيتَ عقائد المسلمين الذين انصرفوا عن مقاصد الحياة العصرية، مستخدماً في ذلك ما أُتِيح له من المسالك المستحدثة «جرياً مع سُنّة الزَّمان» التي اعتمدت على الحجج الفلسفيَّة الناتجة عن تأثرهم بالغرب وتقليدهم الأعمَى لنظرياته، وهذا مِن شأنِه تقليل حِدَّة التراجع التي تلبَّث به المسلمون، ولا تزال هذه المسالك تتجدَّد في كلِّ عصر بما يتناسب مع طبيعة أهله وتقبُّلهم للحقائق.

عبد الرحمن الكَواكِبيّ

يعتبر عبد الرحمن الكواكبيّ واحداً من أبرز روَّاد الفكر الإسلاميّ في العصر الحديث، وأحد أهمّ مَن تطرَّقوا بالبحث والتحليل العميق لأسباب تأخُّر المسلمين في القرون المتأخِّرة.

كان مولده حول منتصف القرن التاسع عشر، ووفاته بعد ختامه بسنتين، فحياته على وجهِ التقريب هي النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ملتقاه بطلائع القرن العشرين، وهذه حقبةٌ من حِقَبِ التاريخ الحديث يلوحُ عليها كأنَّها نشطت من عِقال؛ فكلُّ شيءٍ فيها ينفر من الجمود والركود ويتحفَّز للحركة والوثوب إلى التغيير[1].

وُلِد عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبيّ عام 1854م في مدينة حَلَب السوريَّة، لأسرةٍ يرجع نسبها إلى آل البيت، ميسورة الحال، عريقة في العلم والأدب، توفِّيت والدته عفيفة بنت مسعود آل نقيب (مفتي أنطاكية) وهو لمَّا يتجاوز السادسة من عمره، فنشأ بأنطاكية في كَنَفِ خالته صفيَّة التي كان لها أعظم الأثر في نشأته وصقل شخصيَّته.

---

(1) المجموعة الكاملة لمؤلَّفات الأستاذ عباس محمود العقاد، المجلد 17 (تراجم وسير 3)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1980م، ص 226.

تعلَّم في (المدرسة الكواكبيَّة) التي كان والده مدرِّساً فيها ومديراً لها، وأتقنَ الفارسيَّة والتركيَّة إلى جانب العربيَّة، وكان له اطلاعٌ واسع على سائر المعارف في عصره خاصَّة في المجال السياسيّ والفلسفيّ والقانوني، حيث انكبَّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها.

فلمَّا أتمَّ دراسته، انغمسَ في الحياة العمليَّة، وتنوَّعت أعماله، وتباينت اتجاهاته؛ فَمِن محرِّرٍ لجريدةٍ رسميَّة، إلى رئيس كتَّاب المحكمة الشرعيَّة، إلى قاضٍ شرعيٍّ في بلدةٍ من البلاد السوريَّة، إلى رئيس البلديَّة. ثمَّ هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكوميَّة فيُنشئ لنفسِه جريدةً في حَلَب اسمها (الشَّهباء)، أو يشتغل بالأعمال التجاريَّة، أو يقوم بمشروعاتٍ عمرانيَّة، ومِن كلّ ذلك يستفيد خبرة وتجربة بالحياة. وفي كلّ الأعمال الحكوميَّة والحرَّة يصطدم بنظام الدولة، وباستبداد الحُكَّام، وفساد رجال الإدارة، فيُنازلهم وينازلونه، ويحاربهم ويحاربونه، وينتصرُ عليهم حيناً، وينتصرون عليه حيناً، وسلاحه دائماً النزاهة والعدل والاستقامة، وسلاحُهم دائماً الدسائس واتّهامه بخروجه على النظام، ودعوته للشَّغب، وما شاكلَ ذلك مما هو عادة الظالمين[1].

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

تجلَّت عناية الكواكبيّ بدراسة أسباب تأخُّر المسلمين في كتابه الفذّ (**أُم القُرى**) الذي وقفَ فيه مِنَ المسلمين موقفَ الطبيب من المريض، يفحصُ داءه ويتعرَّف أسبابه،

(1) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009م، ص 225.

ويصف علاجه في أسلوبٍ قصصيٍّ جذَّاب، فهو بحقّ «بحثٌ مبتكر، يدلُّ على كبرِ عقلِه وقوّة تفكيره، وسَعة اطّلاعه، وصدقِ غيرته على العالَم الإسلاميّ»[1].

وفي هذا السياق، يشير د. محمد عمارة إلى أنَّ إيمانَ الكواكبيّ الذي لا يحدُّ بضرورة، بل حتميَّة نهوض هذه الأمَّة، قد جعله يفضِّل تعبير (**الفتور العام**)[2] كوصفٍ لمشاكل هذه الأمَّة ونواقصها، وسلبيات حياتها، رافضاً تعبير (الداء الدفين) أو (المزمن) أو (العُضال)؛ ولذلك دلالته الأكيدة على تفاؤل الرجل وإيمانه بالمستقبل المشرق لهذه الأمَّة وهذا الوطن الكبير[3].

كما يُشير المفكِّر والأديب المصري أحمد أمين إلى أنَّ أنصع صفحةٍ في تاريخ حياة الكواكبي، هي شعوره بفساد حال المسلمين، وتخصيص جزءٍ كبير من حياته في تعرُّف أحوالهم في جميع أقطار الأرض، وتشخيص أمراضهم وتلمُّس العلاج لهم؛ فعكف على مطالعة تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم، وما كتبه الكُتَّاب المحدَثون في ذلك في الكتب والمجلات والجرائد، ودرسَ أحوال المسلمين في المملكة العثمانيَّة. ثمَّ رحلَ إلى كثيرٍ من بلاد المسلمين؛ فساحَ في سواحل إفريقيا الشرقيَّة، وسواحل آسيا الغربيَّة، ودخلَ بلادَ العرب وجالَ فيها، واجتمعَ برؤساء قبائلها، ونزلَ بالهند وعرف حالها، وفي كلّ بلدٍ ينزلها يدرس حالتها الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، وحالتها الزراعيَّة، ونوعَ تُربتها وما فيها من

---

(1) نفس المصدر السابق: 228.

(2) عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م، ص 328.

(3) عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدّد الإسلام، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1408هـ/1988م، ص 149.

معادن ونحو ذلك، دراسةً دقيقة عميقة، ونزل مصر وأقامَ بها، وكان في نيَّته رحلةٌ أخرى إلى بلاد المغرب يُتم فيها دراسته، ولكنه عاجلته منيَّته[1].

وقد نشرَ نتيجة دراسته في مقالاتٍ كُتبت في المجلات والجرائد، ثمَّ جُمعت في كتابين: الأوّل: **(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)**، والثّاني: **(أم القُرى)**؛ أوّلهما في نقد الحكومات الإسلاميَّة، أمَّا الثاني ففي نقد الشعوب الإسلاميَّة، وهو الذي عليه مدارُ الحديث.

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

برعَ الكواكبيّ في صياغة نظريّته في تحليل أسباب تأخُّر المسلمين من خلال كتابه **(أُم القُرى)**؛ ذلك أنَّه شعر بفُتور الأمَّة وسلبيَّتها في جانب التنظيمات والاجتماعات، على المستويين النظريّ والعمليّ، في الوقت الذي نسي فيه المسلمون بالكليَّة حكمةَ تشريع الجماعة والجمعة وجمعيَّة الحجّ، فما كان منه إلا أنْ تخيَّل انعقادَ جمعيَّةٍ من المسلمين في مكَّة المكرَّمة، حضرها ممثلٌ أو أكثر لكلّ قُطرٍ إسلاميّ: فعضوٌ شاميّ، وعضوٌ إسكندريّ، ومصريْ ويمنيّ ونَجديّ ومدنيّ ومكّيّ وتونسيّ وفاسيّ وإنجليزيّ وروميّ وكرديّ وتبريزيّ وتَتَريّ وقازانيّ وتركيّ وأفغانيّ وهنديّ وسنديّ وصينيّ؛ «فقوّةُ جمعيَّةٍ منظّمة من هؤلاء النُّبلاء كافية لأنْ تخرق طبلَ حزبِ الشيطان، وتسترعي سمع الأمَّة مهما كانت في رُقادٍ عميق، وتقودها إلى النشاط وإنْ كانت في فتورٍ مستحكمٍ عتيق»[2].

---

(1) زعماء الإصلاح في العصر الحديث: 226.

(2) الأعمال الكاملة للكواكبي: 324.

وقد جعل هذا الكتاب بمثابة المضبطة لمحاضِر اجتماعات المندوبين الذين وفدوا على مكَّة في موسم الحجّ سنة 1316هـ/1899م، وقد أُسنِدت رئاسة هذه الجمعيَّة للعضو المكّيّ، والسكرتارية للسيد الفُرَاتِيّ – ويعني به الكواكبيُّ نفسَه – واجتمعوا كلّهم قبيل الحجّ في مكانٍ متطرِّف في مكّة يتداولون في حالِ المسلمين، وكان أوّل اجتماعٍ لهم في 15 ذي القعدة سنة 1316هـ.

لقد صاغَ الكواكبي هذه الجمعيَّة التي تخيَّل انعقادها في مهبط الوحي مكَّة المكرَّمة، وجعل منهج البحث فيها هو الكتمان؛ لأنَّه أدعَى إلى إفضاء كلٍّ بما في نفسِه في صراحةٍ، وتناسي الخلافات في المذاهب؛ فلا سُنِّي وشيعيّ، ولا شافعي وحنفي، فالكلُّ مسلم.. ثمَّ التحرُّر من اليأس في الإصلاح؛ فهذه أممٌ كثيرة كالرومان واليونان واليابان، استرجعت مجدَها بعد تمام ضعفها، خصوصاً وأنَّ الظواهر كلّها تدلُّ على أنَّ الزَّمان قد استدار، وبدأت تظهر أعراض الصحّة على المسلمين، ومِن أعظم الظواهر انعقادُ مثل هذه الجمعيَّة، ووضعُ برنامج المؤتمر، وهو يتلخَّص في بحثِ موضع الداء في المسلمين وأعراضه وجراثيمه ودوائه وكيفيَّة استعماله... إلخ.

– وقائع المؤتمر:

قال الرئيس: إنَّ أوضحَ عَرَضٍ من أعراض مرض المسلمين فتورُهم، وهو فتورٌ عامٌّ شامل لجميع المسلمين في جميع أقطار الأرض، لا يَسلَم منه إلا أفراد شُذّاذٌ، حتى لا يكاد يوجد إقليمان متجاوران، أو ناحيتان في إقليم، أو قريتان في ناحية، أو بيتان في قرية، أهلُ أحدِهما مسلمون والآخر غيرُ مسلمين،

إلا والمسلمون أقلُّ من جيرانِهم نشاطاً وانتظاماً، وأقلّ إتقاناً من نظرائهم في كلِّ فنٍّ وصنعة، مع أنَّ المسلمين في جميع الحواضر متميّزون عن غيرهم مِن جيرانِهم في المزايا الخُلُقِيَّة؛ مثل الأمانة والشجاعة والسّخاء، حتى توهَّم كثيرٌ من الحكماء أنَّ الإسلام والنظام لا يجتمعان! فما هو السبب؟

وقد لفتَ نظرَه العضوُ **الهنديّ** إلى أنَّه – مع تسليمه بما قال الرئيس– يودُّ أنْ يستثني بعض حالاتٍ فيها المسلمون خيرٌ من جيرانِهم، كبعض الوثنيين في الهند، والصابئة في العراق، فوافقه الرئيس، وشكره على دقَّةِ ملاحظته.

ثمَّ أخذوا – بعد التسليم بوجود العَرَض – يبحثون في الأسباب، وقد ذهبوا في ذلك كلَّ مذهب؛ **فالشاميّ** رأى أنَّ سبب الفتور يرجعُ إلى ما أصاب المسلمين من عقيدةٍ جبريَّة، فهذه العقيدة في القضاء والقَدَر على هذا النحو آلت إلى الزُّهد في الدنيا، والقناعة باليسير والكَفَاف من الرزق، وإماتة المطالب النفسيَّة فحُبِّ المجد والرياسة والإقدام على عظائم الأمور، فأصبح المسلم كميتٍ قبل أنْ يموت، والعقيدة بهذا الشكل مثبِّطةٌ لا يرضاها عقل، ولم يأتِ بها شرع.

والمقدسيّ رأى أنَّ السبب تحوُّل نوعِ السياسة الإسلاميَّة مِن ديمقراطيةٍ إلى استبداديَّة، فأفسدت العقولَ وأماتت الأخلاق.

وردَّ **التونسيّ** أنَّ بعض الأمم الأوروبيَّة محكومةٌ بحكومة استبداديَّة، ولم يمنع ذلك من تقدُّمها، وإنَّما السبب في نظره الأُمَراء المترفون الذين لم يَرْعَوا للأمَّةِ حقوقها.

وقال **الرُّوميّ**: إنَّ تحميل الأُمَراء التبعةَ كلّها غير سديد، فما هم إلا نفرٌ قليل من الأمَّة. والسبب الحقيقيّ في نظره فقدان المسلمين الحرية بجميع

أنواعها؛ مِن حريَّة تعليم، وحريَّة خطابة، وحريَّة البحث العلميّ؛ فَبِفَقد الحريَّة تُفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتختلُّ القوانين، وتسأم الأمَّةُ حياتها، فيستولي عليها الفتور.

ورأى **التبريزيّ** أنَّ السبب تركُ المسلمين أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاسترسل الأُمَراءُ في أهوائهم وشهَوَاتهم، وعُدِمَت المراقبة عليهم.

وقال **الفاسِيُّ**: إنَّ السبب هو إهمال الناس الاهتمام بالدِّين، حتى لم يبق له أثرٌ إلا على رؤوس الألسن، وأمراؤهم مثلهم لا يتراءون بالدِّين إلا بقصد تمكين سلطانهم على البسطاء من الأمَّة، هذا إلى ظُلمِهم وجَورِهم. وقد كان المسلمون أعزَّاء يوم توثَّقت بينهم الرابطة الدينيَّة، فلمَّا انحلَّت ضاعت الأخلاق، ففتروا، وخمدوا.

أجاب **المَدَنِيّ** بأنَّ فقْدَ الرابطة الدينيَّة والوحدة الخُلُقيَّة لا يكفيان سبباً لهذا الفتور العام. وعنده أنَّ السبب تدليسُ رجال الدِّين وغُلاة المتصوِّفين الذين لوَّنوا الدِّين بلَونٍ سيء فأضاعوه وأضاعوا أهله؛ وذلك أنَّ العلماء العاملين أهلٌ لكلّ تجلَّة واحترام، فلمَّا حسدهم مَن لا يستحقّ هذه المنزلة سلكوا مسلك الزاهدين. ومِنَ العادة أنْ يلجأ ضعيف المقدرة إلى التصوُّف كما يلجأ فاقدُ المجد إلى الكِبْر، وقليلُ المال إلى التظاهر بزينة اللباس والأثاث، فأفسدَ هؤلاء الدِّينَ بما أدخلوا فيه مما ليس منه، كالعِلم اللدنِّيّ[1]، وترتيب المقامات، ووراثة السرّ، والرهبنة، والتظاهر بالعفة، والتبرك بالآثار، والكرامة

(1) اللدنيّ: أي الذي يكون من لدن الله، يُلقى في النفس دون تعلُّم أو تلقين.

على الله، والتصرُّف في القَدَر، فسحروا عقولَ الجهلاء، واختلبوا قلوبَ الضعفاء كالنساء، والنساء بَذَرْنَ هذه البذور الضّارّة في أبنائهن وبناتهن، فماتت النفوس، وخَرِفَت العقول.. وهؤلاء المدلِّسون وُجِدوا في بغداد ومصر والشام، وغمروا السوق في الآستانة، وسَرَى مِن هذه العواصم إلى جميع الآفاق فأصبح المرضُ عامًّا.

وانضمَّ **الرُّوميّ** إلى هذا الرأي وزاده إيضاحاً، فقال: إنَّ داءنا الدّفين دخولُ ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين والجهَّال المتعمِّمين؛ وبلغ أمرُهم في البلاد العثمانيَّة أنْ صارت الألقاب العلميَّة منحةً رسميةً تعطَى للجهَّال، حتى للأميين والأطفال، فقد يكون طفلاً ويُمنح بالوراثة لقبَ (أعلم العلماء المحقِّقين)، ثمَّ (أفضل الفضلاء المدقِّقين)، ثمَّ وثمَّ حتى يوصف بأنَّه (أعلم العلماء المتبحِّرين، وأفضل الفُضلاء المتورِّعين، وينبوع الفضل واليقين)، وأكثرهم لا يُحسنون حتى قراءة ألقابهم، وطبيعيّ أنَّ هؤلاء يقابلون السلطان بالمِثل؛ فهو صاحبُ العظمة والإجلال، المنزَّه عن النظيرِ والمِثال، مَهْبِط الإلهامات، ومصدر الكرامات، سلطان السلاطين، ومالك رقاب العالَمين. وأصبح التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائرُ الخِدَمِ الدينيَّة سِلَعاً تُباع وتُشترى، وتُوهب وتُورث، وتَسلَّط هؤلاء المتعمِّمون على المجالس والإدارات، واتّخذ الأمراء من ذلك وسيلةً يعتذرون بها عند الدول الأجنبيَّة بأنَّ الرأي العام – وعلى رأسه المعمَّمون – لا يقبلون الإصلاح المدنيّ.

أجابَ **الكرديّ** بأنَّ هذا الداءَ خاصٌّ ببعض الولايات؛ ولكنَّ عَرَضَ الفتورِ عامٌّ في الولايات الإسلاميَّة التي فيها هذا الشأن وغيره، فلابدّ أن يكون السببُ

شيئاً أعمَّ من ذلك.. وعندي أنَّ السبب هو أنَّ المسلمين أصيبوا باقتصارهم على العلوم الدينيَّة، وإهمالهم العلوم الدنيويَّة، كالرياضة والطبيعة والكيمياء، على حين أنَّ هذه العلوم نمتْ في الغرب وترقَّت، وظهر لها ثمرات عظيمة في كافَّة الشؤون الماديَّة والأدبيَّة، حتى صارت عندهم كالشمس لا حياة لهم إلا بنُورِها؛ وأصبح المسلمون في أشدِّ الحاجة إليها في جميع أمورهم؛ مِن تربية الطفل إلى سياسة الدولة، ومِن عمل الإبرة إلى عمل المدافع والبوارج، ومِن استخدام اليد إلى استخدام الأسلاك والبخار، فابتعادُ المسلمين إلى الآن عن هذه العلوم النافعة الحيويَّة، جعلهم أحطَّ من غيرهم من الأمم، وكلَّما تمادت الأيام بعدتِ النسبة بينهم وبين جيرانهم.

أجابَ **الإسكندريّ**: إنَّ هذا يَصلح سبباً، ولكن ليس كلَّ السبب؛ لأنَّ فَقْد العلوم لا يصلح سبباً لفَقْدِ الإحساس الشريف والأخلاق العالية. وإنَّما السبب نومنا ويأسنا.

قال **التَّتَرِيّ**: إنَّ هذه شِكايةُ حالٍ لا شرحَ أسبابٍ. إنَّما السبب عندي فقدان القادة والزعماء؛ فلا أمير حازم يسوقُ الأمَّة طوعاً أو كرهاً إلى الرشاد، ولا زعيم مخلص تنقادُ له الأمراء والناس، ولا رأي عام يجمع الناس على غرضٍ نبيل.

والأفغانيُّ يرى أنَّ سبب الفتور الفقرَ، وهو قائدُ كلّ شرٍّ، ورائد كلّ فساد؛ فمنه الجهل، ومنه الانحطاط الخُلُقيّ، ومنه تَشَتُّت الآراء حتى في الدِّين؛ فليس ينقصنا عن الأمم الحيَّة إلا القوّة المالية. ولكنَّ المال لا يأتي إلا بالعلوم

والفنون العالية، وهذه لا تَنتشر في الأمَّة إلا بالمال، وبهذا تحدث مشكلة الدَّوْرِ، ويجب أنْ نبحث عن حلِّها.

أجاب المسلم **الإنجليزي**: إنَّ الفقر في المملكة الإسلاميَّة ليس طبيعيًّا؛ فهي بلادٌ غنيَّة، لو نُفِّذت تعاليم الإسلام من تحصيل الزّكاة والكفَّارات وما إلى ذلك، وصُرفت في وجوهِها لخفَّت وطأةُ الفقر. وإنَّما سببُ الفتور في نظره فقدُ الاجتماعات والمفاوضات وتبادل الآراء، فنسي المسلمون حكمةَ تشريع الجمعة والجماعة والحجّ، وصارت الخطبُ التي تُلقى تافهةً لا قيمةَ لها، وكان الغرض منها التحدث في الأحوال الطارئة، وبلغ مِن سوء رأيهم أنَّهم عدُّوا التحدثَ في الأمور العامَّة فضولاً، والكلامَ فيها في المساجد لَغْواً، فلمَّا انعدم الكلام في المصالح العامَّة أصبح كلّ شخصٍ لا يهتمُّ إلا بنفسِه، ولا اهتمام له بالصالح العام ولا بغير ذلك من الشؤون، حتى لو بلغهم خبرُ تخريب الكعبة – لا قدَّر الله – ما زادوا على أنْ يقطِّبوا جبينهم لحظةً وينتهي الأمر[1]. والأممُ الحيَّة في الوقت الحاضر تُهيئ الفرص للاجتماعات ومبادلة الآراء ما أمكن، بكثرة النوادي والمجتمعات، وتنظيم الرحلات والسياحات، وكثرة الخُطب والمحاضرات حتى في المتنزَّهات، وعقد المؤتمرات للمناسبات، وتذكيرهم بتاريخهم وأهمّ أحداثهم، وبثِّهم في الأغاني والأناشيد ما يبعثُ على حبِّ البلاد والحرية ويُحمِّس للخيرِ العام.

(1) الأعمال الكاملة للكواكبي: 356.

ورأى **الصينيّ** أنَّ السببَ هو تكبُّر الأمراء وميلُهم للعلماء المتملِّقين المنافقين، الذين يتصاغرون لديهم، ويتذلَّلون لهم، ويُحرِّفون أحكامَ الدِّين ليوفِّقوها على أهوائهم، فماذا يُرجَى من علماء دينٍ يشترون بدينهم دنياهم، ويُقبِّلون يد الأمير لِتُقبِّل العامَّةُ أيديهم، ويُحقِّرون أنفسهم للعظماء ليتعاظموا على ألوفٍ من الضعفاء؛ فأفضلُ الجهاد عند الله الحطُّ مِن قَدرِ العلماء المنافقين عند العامَّة، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين. وعندنا في الصين رجالٌ حكماء نبلاء، لهم نوعٌ من السيادة حتى على العلماء، وهؤلاء هم الذين يُسمَّون في الإسلام أهلَ الحلِّ والعقد، وهم خواصُّ الطبقة العليا في الأمَّة، الذين أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بمشاورتهم، وتاريخ المسلمين يدلُّ على ارتباط القوة والضعف بمنزلة أهلِ الحلِّ والعقد في الأمَّة. والخلاصة أنَّ سببَ الفتور استحكامُ الاستبداد في الأمراء، وانعدام أهل الحلِّ والعقد من الأمَّة.

وقال **النجديّ**: إنَّ سببَ فتور المسلمين الدِّينُ الحاضر نفسه، بدليل التلازم؛ فالدِّين الحاضر ليس دينَ السَّلف. إنَّ الدِّينَ الحاضر تركَ إعداد القوَّة بالعلم والمال والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، وإيتاء الزكاة، إلى غير ذلك مما بيَّنه إخواننا. قد يقول قائل: إنَّ كلّ دينٍ دخل عليه التغيير ولم يؤثِّر في أهله الفتور، بل قال كثيرٌ من رجال الغرب إنَّهم ما أخذوا في الترقي إلا بعد فصلهم الدِّينَ عن شؤون الحياة الدنيا. والجواب: أنَّ كلَّ أمَّةٍ لابدَّ لها من نظامٍ ثابت تسيرُ عليه، ويلائم نفسَها وبيئتها وعلاقاتها التجاريَّة والسياسيَّة؛ والقانون الطبيعيّ الذي يتَّفق والطبيعة البشريَّة هو إذعان الإنسان لقوةٍ غالبة هي الله الذي يوحي به الإلهام الفطريّ. ولهذه الفطرة علاقة عظمى بتنظيم شؤون حياته، وهي أقوى وأفضل وَازِع، وكلّ الأديان راجعة

إلى أصلٍ صحيحٍ واحد، فإذا تغيَّر أو فسدَ؛ فسدَ الناسُ لاختلالِ هذا الوازع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(طه: 124)، و (الأمَّة كلَّما قربتْ من الأصل الصحيح والمبادئ الصحيحة قربتْ من الكمال).

- ملخَّص أسباب فتور المسلمين:

خلص الكواكبيّ في كتابه (**أُم القُرى**) إلى حَصرِ أسباب فتور المسلمين في ثلاثة أنواعٍ أساسيَّةٍ، وذلك على لسان رئيس المؤتمر الذي دعا السيد الفراتي (الكواكبي) لتلخيص المحاضِر السابقة للمؤتمر، وتَعداد أسباب فتور المسلمين، كما كلَّفه أنْ يزيد عليها من الأسباب ما يراهُ إنْ وجد غير ما ذكره الأعضاء؛ فلخَّص أسبابَ فتور المسلمين في الأنواع التالية:

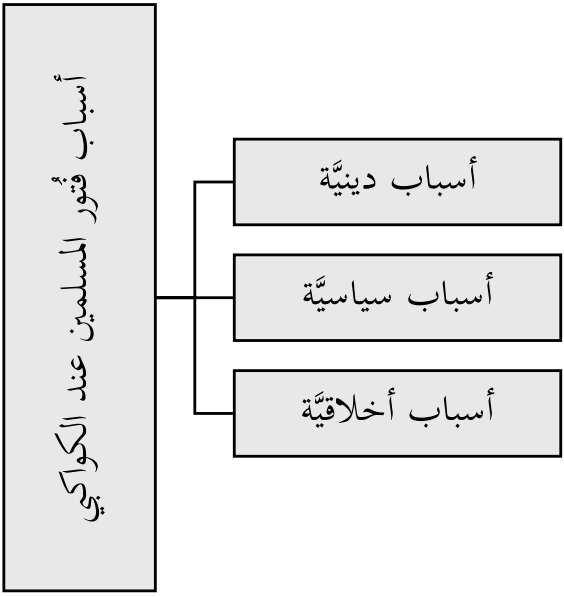

– النوع الأوّل: الأسباب الدينيَّة:

1. تأثير عقيدة الجَبْر في أفكار الأمَّة.
2. تأثير المزهِّدات في السعي والعمل وزينة الحياة.
3. تأثير فتن الجدل في العقائد الدينيَّة.
4. الاسترسال للتخالف والتفرُّق في الدِّين.
5. الذُّهول عن سماحة الدِّين وسهولة التديُّن به.
6. تشديد الفقهاء المتأخِّرين في الدِّين خلافاً للسلف.
7. تشويش أفكار الأمَّة بكثرة تخالف الآراء في فروع أحكام الدِّين.
8. فقد إمكان مطابقة القول للعمل في الدِّين بسبب التخليط والتشديد.
9. إدخال العلماء المدلِّسين على الدِّين مقتبساتٍ كتابيَّة وخرافاتٍ وبدعاً مضرَّة.
10. تهوين غلاة الصوفيَّة الدِّين وجعلهم إياه لهواً ولعباً.
11. إفساد الدِّين بتفنُّن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات.
12. إدخال المدلِّسين والمقابريَّة[1] على العامَّة كثيراً من الأوهام.

(1) أي المعظِّمين لسكان القبور من الأولياء الصالحين، والمرتزقين من وراء هذه البدع الدخيلة على الإسلام.

13. خلع المنجّمين والرمَّالين والسَّحرة والمشعوذين قلوب المسلمين بالمرهبات.
14. إيهام الدجالين والمداجين أنَّ في الدِّين أموراً سِريَّة، وأنَّ العِلمَ حجاب.
15. اعتقاد منافاة العلوم الحكميَّة والعقليَّة للدِّين.
16. تطرُّق الشرك الصريح أو الخفي إلى عقائد العامَّة.
17. تهاون العلماء العاملين في تأييد التوحيد.
18. الاستسلام للمذاهب ولآراء المتأخِّرين وهجر النصوص ومسلك السلف.
19. الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعيَّة الحجّ.
20. العناد على نبذ الحريَّة الدينيَّة، جهلاً بمزيَّتها.
21. التزام ما لا يلزم لأجل الاستهداء من الكتاب والسّنّة.
22. تكليف المسلم نفسه ما لا يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمورٌ به.

– النوع الثّاني: الأسباب السياسيَّة:

1. السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤوليَّة.
2. تفرُّق الأمَّة إلى عصبياتٍ وأحزاب سياسيَّة.
3. حرمان الأمَّة من حريَّة القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل.
4. فقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمَّة.

5. ميل الأُمَراء، طبعاً[1] للعلماء المدلِّسين وجَهَلَة المتصوِّفين.

6. حرمان العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم.

7. اعتبار العلم عطيَّة يُحْسِن بها الأُمَراء على الأخصاء، وتفويض خدمة الدِّين للجُهلاء.

8. قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء.

9. تكليف الأُمَراء القضاة والمفتين أموراً تهدم دينهم.

10. إبعاد الأمراء النبلاء والأحرار وتقريبهم المتملِّقين والأشرار.

11. مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم.

12. فقد قوّة الرأي العام بالحَجْر والتفريق.

13. حماقة أكثر الأمراء وتمسُّكهم بالسياسات الخرقاء.

14. إصرار أكثر الأمراء على الاستبداد عناداً واستكباراً.

15. انغماس الأمراء في الترف ودواعي الشهوات، وبُعدهم عن المفاخرة بغير الفخفخة والمال.

16. حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجنديَّة فقط.

---

(1) أي بحسب الطبع والسجيَّة.

- **النوع الثّالث: الأسباب الأخلاقيَّة:**

1. الاستغراق في الجهل والارتياح إليه.
2. استيلاء اليأس من اللحاق بالفائزين في الدِّين والدنيا.
3. الإخلاء إلى الخمول ترويحاً للنفس.
4. فقد التناصح وترك البُغض في الله.
5. انحلال الرابطة الدينيَّة الاحتسابيَّة.
6. فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد.
7. فقد التربية الدينيَّة والأخلاقيَّة.
8. فقد قوّة الجمعيات وثمرة دوامها وقيامها.
9. فقد القوّة المالية الاشتراكيَّة بسبب التهاون في الزّكاة.
10. ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال.
11. إهمال طلب الحقوق العامَّة جبناً وخوفاً من التخاذل.
12. غلبة التخلُّق بالتملُّق تزلُّفاً وصغاراً.
13. تفضيل الارتزاق بالجنديَّة والخِدَم الأميريَّة على الصنائع.
14. توهُّم أنَّ علم الدِّين قائمٌ في العمائم وفي كلّ ما سُطِّر في كتاب.
15. معاداة العلوم العالية ارتياحاً للجهالة والسفالة.
16. التباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشؤون العامَّة.
17. الذهول عن تطرُّق الشرك وشآمته.

وقد زاد السكرتير أشياء على ما سبق، أهمُّها: الغفلة عن تنظيم شؤون الحياة، وعدم توزيع الأعمال توزيعاً عادلاً، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهن، وسقوط الهِمَّة، وانتشار داء التّواكُل.

ولم يرضَ المؤتمر بالاكتفاء بالبحث في الأمراض وعلاجها، بل اقترحَ إنشاء جمعيَّة دائمة تُعنى بإصلاح المسلمين، وتشرف على تنفيذ برنامجَها في الإصلاح، وهذه الجمعيَّة تؤلَّف من مائة عضو: عشرةً عاملين، وعشرةً مستشارين، وثمانين فخريين، ولا عدد للأعضاء المساعدين المحتسَبين، واشترط في الأعضاء العاملين شروطاً دقيقة، من العفة والأمانة والإخلاص وسعة العلم والقدرة على التأثير وإمكان التفرُّغ للعمل لأغراض المؤتمر، وجعل مركزها مكَّة، ولها شُعب في الآستانة ومصر وعدن والشام وطهران وتَفْليس وكابل وكلكُتَّا وسنغافورة وتونس ومرّاكش وغيرها، والجمعيَّة لا تكون تابعةً لحكومةٍ ما، ولا تتقيَّد بمذهبٍ دينيّ خاص، ويكون شعارها: (**لا نعبد إلا الله**)، ويكون مِن أهمّ أغراضها تعميم التعليم بين المسلمين، والترغيب في العلوم والفنون النافعة، وإيجاد المدارس العالية يتخصَّص كلٌّ منها للتوسُّع في فرعٍ من فروع العلم، وتوحيدُ أصول التعليم، ووضع مناهج للرقيّ بالأخلاق وتنفيذها، وإنشاء مجلَّة شهريَّة للجمعيَّة لتأييد أغراضها .. إلخ.

وقد اتَّفقوا على أن يكون مركز الجمعيَّة المؤقَّت هو مصر؛ لتقدُّمها في العلم والحرية، ولأنَّها أسبق الأمم الإسلاميَّة في ذلك.

وأخيراً تعرَّض الكواكبيّ للنزاع القائم بين الترك والعرب في زمنه، وناصرَ العربَ على الترك، ورأى أنَّهم أصلح للأخذِ بزمام الدولة؛ ووضع مشروعاً لنظام الحُكم بيَّنه وأوضحه.

وانفضَّ المؤتمر بعد أن اجتمع اثني عشر اجتماعاً وصل فيها إلى النتائج الآتية:

1. المسلمون في حالةِ فتورٍ عام.

2. يجب تدارك هذا الفُتور.

3. جُرثومَة الدَّاء الجهلُ.

4. الدَّواء تنوير الأفكار بالتعليم، وإيقاظ الشرق للترقِّي، وخصوصاً في الناشئة.

5. تأسيس الجمعيَّات التي تقوم بهذا العلاج.

6. المكلَّفون بذلك كلُّ مكلّفٍ قادرٍ على عمل، وخاصَّةً نُجباء الأمَّة مِنَ السَّراة والعلماء.

- نظرةٌ عامّة في فِكر الكواكبيّ:

الناظر إلى محاولات الكواكبيّ في تشخيص وعلاج أمراض العالَم الإسلاميّ، يجد أنَّها إنَّما تنمُّ عن سِعَةِ اطلاعٍ وصدقِ إخلاص، وسموّ فكرٍ وبُعدِ نظر؛ فقد انتقل بالبحث في أسباب تأخُّر المسلمين إلى مناطق جديدة لم تعهدها أقلام الباحثين في ذلك الزمن المشحون بالثارات والأحقاد التي بثَّها المستعمر الأجنبي في بلاد المسلمين، سواءً في أثناء وجوده أو عقب خروجه من خلال عملائه وأُجَرائه الذين وكَّلهم بمهامِ عمله في غيابه!

أمَّا كتابه الفذّ (**أُم القُرى**)؛ فهو «روايةٌ جدِّية ليس فيها غرامٌ وغزل، بل فيها غرامُ مؤلِّفه بالعالَم الإسلاميّ، يعاني في سبيله ما يعاني المحبّ الهائم،

ويودُّ من صميم قلبه أنْ يصل محبوبُه إلى أعلى درجات الكمال، ويضحِّي من أجله بماله الذي ضيَّعه عليه الظَّلمة لتمسُّكه بالحقّ، ويضحِّي بوطنه فيهجره؛ لأنَّه لم يستطع أن يجهر برأيه في حَلَب فجهر به في مصر؛ ولا بأس، فكلُّ بلدٍ إسلاميّ وطنه.

كان يحبُّ التخصُّص، ويُنادي بأنَّ كلّ قادر يحصُر نفسَه في فرعٍ من فروع العلم أو الفنّ حتى يتقنه؛ حتى وضع ذلك في نظام المدارس التي كان يتمنَّى إنشاءها؛ فطبَّق ذلك على نفسِه، فلم يوزّع نفسَه بين فِقهٍ ولُغة، وما إلى ذلك، **إنَّما وهبَ نفسه لإصلاحِ المسلمين**، فدرس التاريخَ الإسلاميّ في دقَّةٍ وإمعان يتعرَّف فيه الأسباب والنتائج، كما تدلُّ عليه كتابته، وساحَ في البلاد الإسلاميَّة سياحةً فاحصةً منقِّبة، ودرس كلّ قُطرٍ إسلاميّ ومزاياه وعيوبه، حتى إنَّه لمَّا وضع روايته (أُم القُرى) أنطقَ كلَّ عضوٍ بعقليَّةِ قُطرِه: النجديّ يشكو مِن ضياعِ الدِّين، والرُّوميّ يشكو من ضياع الحرية وسلطة المتعمِّمين، والإسكندريّ يشكو ضعف الأخلاق، والإنجليزيّ يَنْعَى على المسلمين عدمَ المجتمعات وتبادل الرأي بالخُطب والمحاضرات ونحو ذلك»[1].

(1) زعماء الإصلاح في العصر الحديث: 250.

بديع الزَّمان النُّورسي

يعتبر العالِم والمجاهد التركيّ بديع الزَّمان سعيد النُّورسي (ت: 1379هـ/1960م) أحد أبرز دُعاة الإصلاح الدينِيّ والاجتماعيّ في العالَم الإسلاميّ بالعصر الحديث، كما أنَّه مِن أهمّ مَن وقفوا على أسباب تأخُّر المسلمين في عصره.

وُلِد سَعيد ميرزا في أحد أيَّام ربيع سنة 1294هـ/1877م، في قريةٍ صغيرةٍ شرقيّ تركيا تُدعَى قرية «نُورس»، وهي إحدى قُرى ناحية «اسپاريت» التابعة لـ «خيزان» إحدى أقضية ولاية «بتليس».

وكان مولده في عائلةٍ كُرديةٍ متوسطةِ الحال، تشتغلُ بالزراعة وتَملِك بعض المواشي والأبقار، واسم والده «ميرزا» ولشدَّة وَرَعِهِ وتقواه لُقِّبَ بـ «**الصُّوفي ميرزا**»، وأمُّه تُدعى «**نُوريَّة**» وكانت تقيَّةً؛ فما أرضعت أطفالها إلا وهي على طُهرٍ ووُضوء.

تلقَّى سعيد أولَ علومه سنة 1882م في كُتَّابِ قريةٍ قريبة تُسمَّى «طاغ»، وقد ظهرت عليه أماراتُ الذَّكاء والتفوُّق منذ طفولته المبكِّرة، إذ لم يكن كأطفال القرية الآخرين، فكان مُحِبًّا للاستطلاع، يرغب بمعرفة سبب كلِّ شيء يقع عليه نظره أو يمرُّ بخاطره، فكان دائمَ الاستفسار، كثيرَ الأسئلة، وكان والداه يتحمَّلان بكلِّ صبرٍ أسئلته الكثيرة التي لا تكاد تنتهي. وكان مِن أحبِّ الأشياء إليه حضورُ مجالس الكِبَار والاستماع إلى ما يدورُ

فيها من حديث وما يُطرَح فيها من آراء، ولاسيَّما مجالس علماء قريته، الذين كانوا يجتمعونَ في منزل والده في ليالي الشِّتاء الطويلة، حيث يقبع سعيد الصَّغير في زاويةٍ من الغرفة وقد أرهفَ سمعه إليهم في مسامرتهم ونقاشهم.

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

ظهرت عناية بديع الزَّمان بتحليل أسباب تأخُّر المسلمين في مضمار المدنيَّة؛ فظهَرَ له أنَّ السبب الأوَّل في ذلك يرجع إلى تبايُن الأفكار واختلاف المشارب لدى منتسبي ثلاث شُعبٍ كبيرة، يُعدُّونَ مرشدين عموميين للجميع، وهم: منتسبو المدارس الحديثة، والمدارس الدينيَّة، والتَّكايا.

ذلك أنَّ «تباين الأفكار هذا قد هزَّ أساس الأخلاق الإسلاميَّة وفرَّق اتِّحاد الأمَّة، وأخَّرنا عن رَكبِ الحضارة؛ لأنَّ أحدهم يُكفِّر الآخر ويُضلِّله، بينما الآخر يَعدُّ الأوّل جاهلاً لا يُوثق به. وهكذا سادَ الإفراط والتفريط. وعلاجُ هذا الداء هو الصُّلح النابع من توحيد الأفكار، وربطُ العلاقات ووصلُها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافحَ الجميع، ويتَّفقوا جميعاً لئلا يُخلّوا بنظام الرُّقي»[1].

ومع انتقاله إلى مدينة «وان» في سنة 1894م، شرعَ بديع الزَّمان في معالجة هذه الأسباب التي وقفَ عليها لتأخُّر المسلمينَ، حيث بدأ يتلفتُ إلى قضية الأخذ بالعلوم الحديثة وكيفية الاستفادة منها في واقع المسلمين ومستقبلهم. كان دخوله إلى هذه المدينة بدعوةٍ مِن واليها حَسَن پاشا، حيث بَقِيَ عنده

(1) صيقل الإسلام: 445.

بإصرارٍ وإلحاحٍ منه، لكن ما إنْ سَمِعَ طَاهِر باشا بقدومِ هذا العالِمِ المشهور حتى ذهب إليه ورَجاهُ أنْ يقيمَ عنده، فقد كان هذا الأخير يملكُ مكتبةً كبيرة تحوي كتب العلوم الحديثة كالفيزياء والجيولوجيا والرياضيات وغيرها، علاوةً على الكتب الإسلاميَّة، كما كان يملكُ مُختبراً علمياً في قصره؛ فقد كان شغوفاً بالعِلمِ وواسعَ الاطِّلاع، وكان مجلسه ملتقى العلماء، فقَبِلَ ذلك.

في هذا المنزل تيسَّرت له لأوَّلِ مرَّة كتب العلومِ الحديثة، فأقبل على قراءتِها بشغفٍ واهتمام، وكان السبب المباشرَ لذلك دخولُه مرةً في نقاشٍ علميّ مع أحد أساتذة المدارس، إذ علمَ آنذاك قُصورَ باعِهِ في هذه العلوم، لذا فقد انكبّ على هذه العلوم وأحاطَ بأُسُسِها، بل ألَّف كتاباً في هذه الفترة عن الرياضيات، ولكنَّ هذا الكتاب أصبحَ طُعْمةً للنيران في حادثةِ حريق، لذا فإنَّه كان يستطيع تناولَ جميع المواضيع العلميَّة، وليست الدينيَّة فقط، في المجالس التي كانت تُعقد في قصر طاهر باشا أو في المجالس الأخرى ويُجيب عن جميع الأسئلة الموجَّهة إليه، فزادت شهرتهُ لتعدُّد مواهبه ولذكائه الخارق وقوَّة ذاكرته، حتى أُطلِقَ عليه لقب «**بديع الزّمان**».

استقرَّ بديعُ الزَّمان في مدينة «وان» سنواتٍ عدَّة، قضاها في إرشادِ النَّاس وفي تدريس الطُّلاب، وكانت له طريقةُ تدريسٍ خاصَّة تختلفُ عن طُرُق التدريس التي كانت مُتَّبعةً آنذاك في المدارس الدينيَّة، إذ كان يُدرِّس بروحِ العصرِ الجديد ويستخدم العلوم الحديثة في تقوية براهينه، ويُوصِل معلوماته إلى تلاميذه بطرقٍ سهلةٍ متجنِّباً الطرقَ المعقدة القديمة في التدريس.

كان بديعُ الزَّمان يشاهد عدم جدوَى الطرق القديمة المتَّبعة في المدارس الدينيَّة أو في حلقات العلماء، ويرى كيف أنَّ الطُّلاب لا يتزوَّدون من العلوم الحديثة شيئاً فيأسف ويغتمّ لذلك، **فاقتنعَ بأنَّ الخطوة الأولى للإصلاح يجبُ أن تبدأ بإصلاح نظام التعليم**، إذ كان يرى أنَّ المدارس الحكوميَّة الاعتياديَّة تدرِّس القوانين العلميَّة دون التأكيد على أنَّها نواميس إلهيَّة، وأنَّ المدارس الدينيَّة تدرِّس العلوم الدينيَّة دون الإشارة إلى العلوم الحديثة؛ لذا فالإصلاح يبدأ مِن قيام المدارس الحكوميَّة بتدريس الدِّين بجانب العِلم لكي لا ينحرفَ الطلابُ إلى الشكِّ وإلى الإلحاد، وقيامِ المدارس الدينيَّة بتدريس العلوم الحديثة لكي لا ينحرف طلابها إلى التعصُّب أو إلى ضيقِ الأُفُق.

لذا أصبحَ إنشاء مدرسة إسلامية تجمع بين تدريس الدِّين وتدريس العلوم الحديثة مَطمَحه وأمله، وكان يريد إنشاءَ هذه المدرسة في شرقيِّ الأناضول في مدينة «وان» أو في «ديار بكر» باسم «**مدرسة الزَّهراء**» لتكون شقيقةً للجامع الأزهر في مصر؛ فقد كان يرى بأنَّ هذه المدرسة تُصالِح بين أهل المدرسة «الدينيَّة» والمدرسة «الحديثة» وأهل الزَّوايا «التَّكايا»، وتجعلهم يتَّحِدونَ – على الأقل – في المقصد، وذلك بما تُحدِث فيما بينهم من المَيلِ وتبادل الأفكار[1].

وفي أثناء إقامته في «وان» كان يتتبَّع مع طاهر پاشا الأخبار التي تنشرها الجرائد، وفي أحد الأيَّام ناوله الپاشا إحدى الجرائد مشيراً إلى خبرٍ مثيرٍ هزَّهُ

(1) سيرة ذاتية: 571.

مِنَ الأعماق هزًّا عنيفاً، إذ نشرت هذه الجريدة ما قاله وزير المستعمرات البريطانية «**غلادستون**»[1] في مجلس النوَّاب البريطاني وهو يحمل في يده مصحفاً: «**ما دامَ هذا القرآنُ موجوداً في يدِ المسلمين، فَلَن نستطيعَ أنْ نحكمهم، فإمَّا أنْ نأخذه مِن يدهم أو نقطعَ صلته بهم**».

وتجاه هذا التصريح المعادي لمشاعرِ المسلمين والذي يبيّن فيه المستعمرون نيَّاتِهِم وخططهم في الطرق التي تكفُل لهم الاستمرارَ في استعمارِ وامتصاصِ دماء الشعوب الإسلاميَّة، فقد ثارت ثائرةُ بديع الزَّمان وأعطى عهداً بأنْ يكرِّس حياته لإظهار إعجاز القرآن للعالَمِ أجمع، قائلاً: «**لأبرهِنَنَّ للعالَمَ بأنَّ القرآنَ شمسٌ معنوية لا يخبو سَناها، ولا يمكن إطفاءُ نورها**»[2].

وقد قوَّى هذا الخبرُ مِن عَزمِه على إنشاء «**مدرسة الزَّهراء**» التي يستطيعُ مِن خلالِها وبواسطتِها تحقيقَ هذا العهد وهذا الوعد، ومِن بديعِ كلامه في ذلك: «**إنَّ ضياءَ القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلَّى الحقيقة، فتتربَّى همةُ الطالبِ وتعلو بكلا الجناحَين، وبافتراقهما يتولَّد التعصُّب في الأولى والحِيَل والشُّبهات في الثانية**»[3].

وقد جاءَ ربطُ بديع الزَّمان بينَ هذه المدرسة ورسائل النُّور، بما يوحي بأنَّ هذه الرسائل ستكونُ بمثابة (المنهج) الذي على طلاب المدرسة أنْ يدرسوه،

---

(1) William Ewart Gladstone (1809 – 1898 A.D.).

(2) نفس المصدر السابق: 89.

(3) نفس المصدر السابق: 567 – 568.

وعلى هذا المنهج أنْ يُشكِّل حلقةَ الوصلِ بين العلومِ الدينية والعلومِ الحديثة. لذا، فقد انتهجتْ رسائلُ النُّورِ مع العلوم الحديثة الأسلوبَ الآتي:

- إنَّ قمةَ العلومِ ونهاية حدودها، قد خطَّها الأنبياءُ عليهمُ السَّلام بمُعجِزاتِهِم، وإنَّ جميعها تستندُ إلى الأسماء الحُسنى وتنتهي إليها.
- إنَّ ما يستعظمه الإنسان من المكتشفات الحديثة، سوف يكونُ من الأمورِ البسيطة في المستقبل، لذا لا يستحقُّ ذلك الإعجاب إلا بقدر ما يُذكِّر بعظمةِ اللهِ سبحانه.
- إنَّ جميعَ ما اكتشفه العِلم ليس إلا أثراً من آثارِ الله سبحانه في الوجود، وهو أحسنُ وسيلةٍ لرؤيةِ حكمته سبحانه وقدرته وعظمته.
- لذا لابدَّ من إثارة عنصر التفكير عند الإنسان، عندَ النظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرض، أي تعويده على العبادة الفكرية.
- ولابدَّ مِن سَردِ الأمثلةِ لتمهيد العقل وتهيئة النفس، وتحضيرها لقَبولِ الآياتِ والأحاديث بإذعانٍ كامل؛ حيث ضاقت عقولٌ سُقِيَت بغيرِ ماءِ الإسلام أمامَ كثيرٍ من الآياتِ والأحاديثِ الشريفة.

ولمَّا كانت الرسائل تجعلُ القارئَ ينظرُ إلى الكونِ وكأنَّه كتابٌ ربَّانِيٌّ مفتوح، وقد نُقِشَت فيه أسماؤه الحُسنى جلَّ جلاله، لذا فإنَّه يفهمُ بكلِّ سهولةٍ

حِكمَةَ المخلوقات أو الحوادث أو الأمور المختلفة تحتَ أنوارِ تجلّيات تلك الأسماء الحُسنى[1].

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

كان بديع الزّمان دائمَ السعي في بيان حقيقة الإسلام المتضمّنة للحريَّة الشرعيَّة الحقَّة والحضارة المثلى، فقرَّر السَّفرَ إلى الشَّام في أواخر سنة 1910م، وهناك ألقَى خُطبةً في الجامعِ الأمويّ بدمشق في شتاء 1911م، بناءً على إصرارِ العلماء هناك، واستمعَ إليها ما يقرُب من عشرة آلاف شخص، بينهم ما لا يقلُّ عن مائة من كِبارِ علماء الشَّام، ثمَّ طُبِعَت هذه الخُطبة لاحقاً في رسالةٍ سُمِّيت (**الخُطبة الشاميَّة**).

صدَّر بديع الزَّمان هذه الخُطبة – بعد أنْ خرجت مترجمةً للعربيَّة – بقوله: «هذه الرسالة العربيَّة قد أُلقيتْ درساً في الجامع الأُمويّ بدمشق قبل أربعين عاماً، وذلك بناءً على إصرار العلماء هناك، واستمعَ إليها ما يَقرب من عشرة آلاف شخص، بينهم ما لا يقل عن مائة من كبار علماء الشام.

إنَّ الحقائق الواردة فيها، قد أحسَّ بها (سعيد القديم) بإحساسٍ مسبَق، فزفَّها بشائر عظيمة بيقينٍ جازم، ظنًّا منه أنَّ تلك الحقائق وشيكة التحقُّق، بيد أنَّ الحربين العُظميين، والاستبدادَ المطلق الذي استمرَّ ربع قرنٍ من الزمان[2]، قد أدَّيا إلى تأخُّر تحقُّق تلك الحقائق أربعين أو خمسين عاماً.

---

(1) آفاق مستقبل العلم والدِّين ومشروع مدرسة الزهراء للنورسي، كنعان دميرطاش، مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة 1، الجزائر، العدد العاشر، ديسمبر 2006م، ص 155 – 156.

(2) أي منذ انتهاء الخلافة العثمانية سنة 1923م إلى سنة 1950م.

والآن قد بدأت تباشير تحقُّق ما أخبر عنه تلوحُ في أفق العالَم الإسلاميّ، بمعنى أنَّ هذا الدرس المهم ليس مجرّد خطبة قديمة، قد عفا عليها الزمن، بل هو درسٌ اجتماعيّ إسلاميّ، يحتفظُ بكاملِ جدَّته وطراوته وحقيقته طوال هذه الفترة.. وكلُّ الذي حدث هو أنَّ عام 1327هـ قد أصبح عام 1371هـ، وأنَّ الجامع الأموي قد حلَّ محلَّه جامع العالَم الإسلاميّ الذي يضمّ ثلاثمائة وسبعين مليون نسمة[1]»[2].

وقد شخَّص فيها ما رآه مِن أمراض الأُمَّة الإسلامية الماديَّة منها والمعنويَّة، وكذلك الأسباب التي أدَّت إلى تعرُّض العالَم الإسلاميّ للأسْر والمهالك، وبيَّن فيها طُرَقَ العلاج والخَلاص، وبشَّر المسلمينَ جميعاً بل الإنسانية قاطبةً بأنَّ الإسلامَ سيظهرُ على الأرضِ كافَّة، مُبيّناً أنَّ أعظم رُقيّ ماديّ ومعنويّ سيُحقِّقه الإسلام، وستتجلَّى الحضارة الإسلامية بأبهَى مظهرها وستُطهِّر الأرض مِنَ اللَّوثات، كلَّ ذلك مقروناً بدلائل عقليَّة رصينة.

ومِمَّا جاءَ في هذه الخُطبة: «لقد تعلَّمتُ الدروس في مدرسة الحياة الاجتماعيَّة البشريَّة، وعلمتُ في هذا الزَّمان والمكان أنَّ هناك ستَّة أمراضٍ جعلتنا نقفُ على أعتابِ القرون الوسطى، في الوقت الذي طارَ فيه الأجانب – وخاصَّة الأوروبيون – نحو المستقبل»[3].

---

(1) كان ذلك تعداد المسلمين آنذاك.

(2) الخطبة الشامية: ص 8

(3) صيقل الإسلام، الخطبة الشاميَّة، ص 461 – 462.

ويمكن استعراض الأمراض التي عرَضَ لها بديع الزَّمان في خطبته، من خلال الشكل التالي:

وفي سبيل معالجة هذه الأمراض الفتَّاكة، بيَّن بديع الزَّمان – في ستَّةِ كلماتٍ – ما اقتبسه مِن «فَيضِ صيدلية القُرآن الحكيم الذي هو بمثابة كلية الطبِّ في حياتنا الاجتماعية»:

– الكلمة الأولى: الأمل:

«أي شدَّة الاعتماد على الرحمة الإلهيَّة والثقة بها.

نعم، إنَّه بناءً على ما تعلَّمته من دروسِ الحياة، يسرُّني أنْ أزفَّ إليكم البُشرى يا معشرَ المسلمين، بأنَّه قد أَزِفَ بزوغُ أمارات الفجرِ الصادق ودنا

شروقُ شمسِ سعادة عالَمِ الإسلام الدنيوية وبخاصَّة سعادة العثمانيين، ولا سيما سعادة العرب الذي يتوقَّف تقدُّم العالَمِ الإسلاميّ ورقيُّه على تيقُّظهم وانتباههم، فإنَّني أعلنُ بقوَّةٍ وجزم، بحيث أُسمِعُ الدُّنيا كلها وأنفُ اليأسِ والقنوط راغم:

أنَّ المستقبلَ سيكونُ للإسلام، وللإسلامِ وحده، وأنَّ الحُكم لن يكونَ إلا لحقائقِ القرآنِ والإيمان. لذا فعلينا الرضا بالقَدَرِ الإلهيّ وبما قَسَمَه الله لنا؛ إذ لنا مستقبلٌ زاهر، وللأجانبِ ماضٍ مشوَّشٌ مختلط»[1].

– الكلمة الثانية: اليأس داءٌ قاتل:

«إنَّ مِمَّا أملت عليَّ تجاربي في الحياة، وتمخَّض فكري عنه هو: أنَّ اليأس داءٌ قاتل، وقد دبَّ في صميمِ قلبِ العالَمِ الإسلاميّ. فهذا اليأسُ هو الذي أوقعنا صرعَى – كالأموات – حتى تمكَّنت دولةٌ غربيَّة لا يبلغ تعدادها مليوني نسمة مِنَ التحكُّم في دولةٍ شرقيةٍ مسلمة ذات العشرين مليون نسمة، فتستعمرها وتسخرها في خدمتها.

وهذا اليأسُ هو الذي قتلَ فينا الخِصالَ الحميدة، وصَرَفَ أنظارنا عن النفعِ العام وحَصَرَها في المنافعِ الشخصيَّة.

وهذا اليأسُ هو الذي أماتَ فينا الروح المعنويَّة التي بها استطاعَ المسلمونَ أنْ يَبْسطوا سلطانهم على مشارِقِ الأرض ومغارِبِها بقوَّةٍ ضئيلة، ولكنْ ما إنْ

(1) نفس المصدر السابق: 462.

ماتت تلك القوَّة المعنويَّة الخارقة باليأسِ حتى تمكَّن الأجانب الظَّلَمَة أنْ يتحكَّموا في ثلاثمائة مليون مسلم ويكبّلوهم بالأغلال.

فما دامَ هذا الداء قد فَتَكَ فينا إلى هذا الحدِّ، ويقتلنا على مرأى مِنَّا، فنحنُ عازمون على أنْ نقتصَّ مِنْ قاتلنا، فنضربَ رأس ذلك اليأس بسيفِ الآية الكريمة: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: 53). ونَقصِم ظهره بحقيقة الحديث الشريف: «**مَا لا يُدرَك كُلُّه لا يُترَك جُلُّه**»[1].

– الكلمة الثالثة: الصدق أساس الإسلام:

«لقد علَّمتني زبدةُ تتبُّعاتي وتحقيقاتي في الحياة بتمخُّض الحياة الاجتماعية أنَّ الصدق هو أُسُّ أساسِ الإسلام، وواسطةُ العِقد في سجاياه الرَّفيعة ومزاج مشاعره العُلويَّة. فعلينا إذن أنْ نُحيي الصدقَ – الذي هو حجرُ الزَّاوية في حياتنا الاجتماعية – في نفوسنا، ونُداوي به أمراضنا المعنوية.

أجل، إنَّ الصدق هو عقدة الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية. أمَّا الرياء فهو نوعٌ من الكذبِ الفعليّ. وأمَّا المداهنة والتصنُّع فهو كذبٌ دَنِيءٌ مرذول. وأمَّا النفاق فهو كذبٌ ضار جداً، والكذب نفسه إنَّما هو افتراءٌ على قُدرةِ الصانع الجليل.

---

(1) «**ما لا يُدرَك كُلُّه لا يُترَك جُلُّه**» هو معنى الآية ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: **16**)، والحديث: «**اتق الله ما استطعت**»، ولفظ الترجمة قاعدة وليس بحديث. انظر: كشف الخفاء للعجلوني: 196/2.

إنَّ الكُفرَ بجميعِ أنواعهِ كذب. والإيمان إنَّما هو صدقٌ وحقيقة. وعلى هذا فالبَونُ شاسع بينَ الصدقِ والكذب بُعدَ ما بين المشرقِ والمغرب. ولا ينبغي أنْ يختلطَ الصدقُ والكذب اختلاطَ النُّورِ والنَّار، ولكنَّ السياسةَ الغادرة والدعاية الظالمة قد خلطتا أحدهما بالآخر. فاختلطت كمالات البشرية ومُثُلها بسفسافها ونقائصها.

إنَّ الصدقَ والكذب بعيدٌ أحدُهما عن الآخر بُعدَ الكُفر عن الإيمان؛ فإنَّ عروجَ مُحَمَّد ﷺ في خَيرِ القرون إلى أعلى عليين بوساطة الصدق وما فتحه من كنوزِ حقائقِ الإيمان وأسرارِ الكَون.. جَعَل الصدقَ أَروَجَ بضاعةٍ وأثمنَ متاعٍ في سُوقِ الحياة الاجتماعية؛ بينما تردَّى مُسيلمة الكذَّاب وأمثاله إلى أسفلِ سافلين بالكذب؛ إذ لمَّا حدثَ ذلك الانقلاب العظيم في المجتمع تبيَّن أنَّ الكذبَ هو مفتاح الكُفرِ والخرافات، وأفسدُ بضاعةٍ وأقذرها. فالبضاعة التي تُثيرُ التَّقزُّز والاشمئزاز لدى جميع النَّاس إلى هذا الحدِّ، لا يمكن أنْ تمتدَّ إليها يدُ أولئك الذين كانوا في الصفِّ الأوَّل من ذلك الانقلاب العظيم، أولئك الصحابة الكِرَام الذين فُطروا على تناولِ أجودِ المتاع وأثمنه وأفخره، وحاشاهم أنْ يُلوِّثوا أيديهم المباركة بالكذب ويَمُدُّوها عمداً إلى الكذبِ ويتشبَّهوا بمسيلمةَ الكذَّاب، بل كانوا بميولهم الفطرية السليمة وبكلِّ ما أوتوا من قوَّة في طليعةِ المبتاعينَ للصدقِ الذي هو أروج مالٍ وأقوم متاع، بل هو مفتاح جميع الحقائق ومرقاة عروج مُحَمَّد ﷺ إلى أعلى عليين.

ولأنَّ الصحابةَ الكرام قد لازموا الصدقَ ولم يحيدوا عنه ما أمكنهم ذلك؛ فقد تقرَّر لدى علماء الحديث والفقه «أنَّ الصحابةَ عدولٌ، رواياتهم لا تحتاجُ إلى تزكية، كلُّ ما رووه مِنَ الأحاديث عن النبيِّ ﷺ صحيح». فهذه الحقيقة المذكورة حُجَّة قاطعة على اتِّفاق هؤلاء العلماء.

وهكذا فإنَّ الانقلابَ العظيم الذي حدثَ في خيرِ القرون أدَّى إلى أنْ يكون البَوْنُ شاسعاً بين الصدقِ والكذب كما هو بين الكُفرِ والإيمان. إلا أنَّه بمرورِ الزَّمن قد تقاربت المسافةُ بين الصدقِ والكذب، بل أعطت الدعاياتُ السياسية أحياناً رواجاً أكثرَ للكذب، فبرزَ الكذب والفساد في الميدان وأصبحَ لهما المجالُ إلى حدٍّ ما»[1].

– الكلمة الرابعة: المحبَّة:

وذلك أنَّ «الود والمحبَّة والأخوة هي مِن طباعِ الإسلام وروابطه والذي يحملُ في قلبه العداء فهو أشبهُ ما يكون بطفلٍ فاسد المزاج، يرومُ البكاء بأدنى مُبرِّرٍ للبكاء، وقد يكون ما هو أصغرُ مِن جناحِ ذبابة كافياً لدفعه إلى البكاء، أو هو أشبهُ ما يكون برجلٍ متشائم لا يُحسِنُ الظنَّ بشيءٍ ما دامَ سوءُ الظنِّ مُمكِناً، فيحجبُ عشرَ حسناتٍ للمرءِ بسيئةٍ واحدة، ومِنَ المعلومِ أنَّ هذا منافٍ كلياً للخُلُق الإسلاميّ القاضي بالإنصاف وحُسن الظن»[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: 475 – 477.

(2) نفس المصدر السابق: 479.

– الكلمة الخامسة: تضاعف السيئات والحسنات:

ذلك «أنَّ الدرسَ الذي تعلَّمته مِنَ الشورى الشرعيَّة هو أنَّ سيئةَ امرئٍ واحدٍ في هذا الزَّمان، لا تبقى على حالِها سيئةً واحدة، وإنَّما قد تكبُرُ وتسري حتى تصبح مئة سيئة. كما أنَّ حسنةً واحدةً أيضاً لا تبقى على حالِها حسنةً واحدة، بل قد تتضاعف إلى الآلاف. وحِكمَةُ هذا وسرُّه هو أنَّ الحريَّة الشرعيَّة والشورى المشروعَة قد أظهرتا سيادةَ أُمَّتِنا الحقيقية؛ إذ إنَّ حَجَرَ الأساس في بناءِ أُمَّتِنا وقوامَ روحها إنَّما هو الإسلام، وإنَّ الخلافةَ العثمانيَّة والجيشَ التركيّ مِن حيث كونِهما حاملين لرايةِ تلك الأمَّة الإسلامية فهما بمثابةِ الصَّدَفَة والقلعة للأُمَّة، **وأنَّ العربَ والتُّرك هما الأخوان الحقيقيَّان وسيظلان حارِسَين أمينين لتلك القلعة المنيعة والصَّدَفَة المتينَة**»[1].

– الكلمة السادسة: الشُّورَى:

«إنَّ مفتاحَ سعادة المسلمين في حياتِهم الاجتماعيَّة، إنَّما هو «الشورى». فالآية الكريمة تأمرنا باتِّخاذِ الشورى في جميعِ أمورنا، إذ يقولُ سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:38).

أجل، فكما أنَّ تَلاحُقَ الأفكار بين أبناء الجنسِ البشريّ إنَّما هو شورى على مرِّ العصورِ بوساطة التاريخ، حتى غدا مدارَ رُقِيّ البشرية وأساسَ علومها،

(1) نفس المصدر السابق: 480.

فإنَّ سببَ تخلُّف القارَّة الكبرى التي هي آسيا عن رَكبِ الحضارة، إنَّما هو لعدمِ قيامها بتلك الشورى الحقيقيَّة.

إنَّ مفتاح قارَّة آسيا وكشافَ مستقبلها إنَّما هو الشورى، أي كما أنَّ الأفراد يتشاورونَ فيما بينهم، كذلك ينبغي أنْ تسلكَ الطوائف والأقاليم المسلكَ نفسه فتتشاوَر فيما بينها.

إنَّ فكَّ أنواعِ القيود التي كَبَّلت ثلاثمائة بل أربعمائة مليون مسلم[1]، ورَفَعَ أنواعَ الاستبداد عنهم إنَّما يكونُ بالشورى والحرية الشرعية النابعة من الشهامة الإسلامية والشَّفقة الإيمانية، تلك الحرية الشرعية التي تتزيَّن بالآداب الشرعية وتنبذ سيئات المدنيَّة الغربية»[2].

(1) كان ذلك تعداد المسلمين في العالَم خلال هذه الفترة.

(2) نفس المصدر السابق: 483.

سعيد حليم باشا

يُعتبر المفكّر التركيّ سعيد حليم باشا أحد أبرز السياسيين المرموقين في الدولة العثمانيَّة، فهو حفيد مُحمَّد عَلي مؤسِّس مصر الحديثة، ووالدُه أحد أعضاء مجلس الدولة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وهو في الوقت نفسِه أحد كبار العقول الفكريَّة الإسلاميَّة في بدايات القرن العشرين.

وُلِد الأمير سعيد بالقاهرة في 19 فبراير 1864م، وانتقلَت عائلتُه إلى إسطنبول سنة 1870م، وتلقَّى تعليماً خاصًّا في صغره، تعلَّمَ فيه العديدَ من اللغات كالعربيَّة والفارسيَّة والفرنسيَّة والإنجليزيَّة، وأنهَى تعليمَه الجامعيّ في السياسة بسويسرا، وفي 21 مايو 1888م منحَهُ السلطان عبد الحميد رتبة باشا مدني، وعيَّنه عضواً في مجلس الدولة، ولم يكن يتجاوز عمره الثلاثين عاماً، وما لبث إلى أنْ رُقِّي إلى رتبة حاكم الروملي في 22 سبتمبر 1900م، ولكن بسبب وشاية إلى السّراي العثمانيّ، فَقَدَ اهتمامَه بأمور السّراي، وتحوَّلَ اهتمامُه إلى القراءة في الدراسات الاجتماعيَّة والتاريخيَّة.

طُرِد سعيد حليم باشا من إسطنبول في سنة 1903م بسبب علاقته بجمعيَّة (تركيا الفتاة)، فذهب إلى مصر ثمَّ إلى أوروبا ليُوطِّد علاقته بالجمعيَّة، وفي هذه المرحلة تحوَّلَ وضعُه من كونه رجل الدولة العثمانيّ إلى المعارضة، فانضمَّ إلى جمعيَّة (الاتحاد والترقي)، وعُيِّنَ مفتّشاً فيها 1906م، ليعود مع الاتحاديين إلى إسطنبول بعد إعلان المشروطيَّة الثانية سنة 1908م.

وفي هذا العام عُيّن رئيساً لبلديَّة (يني كوي) عن قائمة الاتحاد والترقي، ثمَّ عُيّنَ رئيساً ثانياً للجمعيَّة العامَّة لبلديَّة إسطنبول في السنة نفسها، وفي 14 ديسمبر من نفس العام تمَّ تعيينُه عضواً في مجلس الأعيان من قِبَل السلطان عبد الحميد. وفي خِضَمِّ كلّ هذه الأعباء السياسيَّة لم يَنفَصِلْ عنِ اهتماماتِه العلميَّة، فعُيّنَ عضواً في المجلس الإداريّ لدار الشفقة، واستقالَ لاحقاً من مجلس الأعيان، وسافر إلى باريس، وأجرى دراساتٍ حول الإسلاميين، وفي سنة 1909م حضر مؤتمر جمعيَّة الاتحاد والترقي في سلانيك كعضوٍ لمجلس الأعيان، وفي 3 يوليو 1912م ذهبَ إلى لوزان ليُوقِّعَ على (اتفاقيَّةِ لوزان) مع القادة الطليان، وظلَّ يترقَّى في الوظائف حتى عُيّنَ وزيراً للخارجيَّة، كما عُيّنَ بمنصبِ الصدر الأعظم في 17 يونيو 1913م.

كان من أهمِّ الأحداث التي حدثَتْ في عهده دخولُ الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في الحرب العالَمِيَّة الأولى، وقد كان رافضاً للاشتراكِ في هذه الحرب، ومِن هذا الوقت كانت وظيفتُه كصدرٍ أعظم للبلاد وظيفةً شكليَّة ليس أكثر، وبمرورِ الوقت استقالَ عن وظيفة الصدر الأعظم في 3 فبراير 1917م.

بعد هُدنة موندروس سُلِّم إلى الديوان العالي بدعوى أنَّه كان مسؤولاً عن مذابح الأرمن، وفي 28 مايو 1919م نفاه الإنجليز إلى موندروس ثمَّ إلى مالطة، ولأنَّه لا يوجد أدلة على صحة اتهامه بمذابح الأرمن أطلِقَ حرًّا في 13 أبريل 1921م، لكن لم يُقبل

طلبُه بالعودة إلى إسطنبول من قِبَل السُّلطة، واستقرَّ الوضع على أن يذهب إلى روما، وفي 5 ديسمبر 1921م اغتالَه أحد الأرمن أمام منزلِه بروما[1].

- عنايته بأسباب تأخُّر المسلمين:

بالإضافة لتجربة سعيد حليم باشا السياسيَّة، فقد كان أيضاً من كبار العقول الفكريَّة الإسلاميَّة في القرن العشرين، وهو مِمَّن جمعوا بين المعرفة النظريَّة والخبرة العمليَّة، وكان ذا حِراكٍ واسع في الفضاء العام، ولذا فقد انطلقَت معارضتُه السياسيَّة للسلطان عبدالحميد من فهمِه المجرّد لمبادئ الإسلام في الحُكم؛ التي رأى أنَّه تمَّ الجَور عليها، فلم يكن انخراطه مع إسلاميين آخرين في التحرُّكات الإصلاحيَّة أواخر الدولة العثمانيَّة من منطلقات تغريبيَّة ولا قوميَّة، على أنَّه لاحظَ سريعاً أنَّ مِن بين رفاق الدَّرب مَن أخذَ يميلُ تجاه الدفع باتجاه التغريب والقوميَّة، ولاحظَ تأثُّراً بالحالة الفرنسيَّة على وجه التحديد، فراحَ ينشر مؤلَّفاته بالفرنسيَّة ليُخاطب بها النُّخبة المروِّجة لدَورِ الإسلام في تأخُّر المسلمين، لتُترجَم بعدها إلى التركيَّة بواسطة صديقه الشاعر الإسلاميّ الكبير محمد عاكف، فتُثير بدورِها موجةً من النقاش في مجتمعٍ يفتقرُ إلى تحليلاتٍ اجتماعيَّة عميقة[2].

---

(1) للمزيد من المعلومات عن سعيد حليم باشا: ينظر إلى:

مقدمة المشرف على ترجمة (الرسائل الكاملة للمفكر التركي سعيد حليم باشا): أ.د. رمضان يلدرم.

مئوية سعيد حليم: حفيد محمد علي الذي انشغل بتأخّر المسلمين، محمد الأرناؤوط، موقع العربي الجديد، 17 مارس 2021م.

مادة (سعيد حليم باشا) في موسوعة المعارف الإسلاميَّة (باللغة التركية).

(2) من مقدمة أ. د. رمضان يلدرم، ص 12.

نتيجةً لهذا، فقد ظلَّ هذا التراث الفكريّ مجهولاً في العالَم العربيّ، إلى أنْ تيسَّر مؤخَّراً صدور (**الرسائل الكاملة للمفكِّر التركي سعيد حليم باشا**) مترجمةً إلى العربيَّة من قِبَل إحدى المؤسَّسات البحثيَّة العربيَّة[1]، وهي مكوَّنة من ثمانية رسائل كتبها خلال الفترة من 1910 إلى 1921م.

الرسالة الأولى: مقلدتُنا

الرسالة الثانية: الملكيَّة الدستوريَّة/المشروطيَّة

الرسالة الثالثة: أزمتنا الاجتماعيَّة

الرسالة الرابعة: أزمتنا الفكريَّة

الرسالة الخامسة: التعصُّب

الرسالة السادسة: لماذا تأخَّر المسلمون

الرسالة السابعة: الأسلمة

الرسالة الثامنة: النظام السياسيّ في الإسلام

(1) وهي مؤسَّسة (وَعي للدراسات والأبحاث) في قطر، ويعود الفضل في تبنّي مشروع هذه الترجمة للدكتور نايف بن نهار (مدير مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة بجامعة قطر، ورئيس مؤسَّسة وَعي)؛ الذي قدَّم بهذا العمل واحداً من أبرز رجال الفكر الإسلاميّ العثمانيّ التركيّ للقرّاء العرب.

وقد ظهرت عنايته البالغة بتحليل أسباب تأخُّر العالَم الإسلامي في رسالته السادسة (**لماذا تأخّر المسلمون**)؛ التي بدأ العمل فيها كمقالات في مجلة (سبيل الرشاد) ابتداءً من 12 سبتمبر 1918م، ثمَّ نُشِرت مجموعة في السنة نفسها، وقد سجَّل سعيد حليم باشا في هذه الرسالة ملاحظةً مفادها أنَّ حديث التغيير والتقدّم ومشكلة تخلُّف العالَم الإسلاميّ كان حديث زمانه، ولأنَّ تخلُّف المسلمين كان عامًّا؛ ولأنَّ البحث في أسباب تخلُّفهم لم تكن موضوعيَّة وحياديَّة؛ فقد أعاده البعض للقاسم الجامع بينهم وهو الإسلام، وبذلك أخذت قضية تخلُّف المسلمين شكلاً دينيًّا، وبرأيه فلو لم يطرح المسيحيون هذا التفسير ويجعلوا منه موضع نقاش؛ فلا شكّ أنَّ هذا الأمر لم يكن ليصل إلى هذا النحو.

فنجده قد ردَّ تخلُّف المسلمين إلى عوامل اجتماعيَّة واقتصاديَّة وماديَّة، يمكن تعويضها بالتربية والتعليم، لكنَّه في الوقت نفسه رفض تحليلات الغربيين بردِّ هذا التخلُّف للإسلامِ نفسِه، فذلك نقلٌ للمشكلة إلى سياقٍ ميتافيزيقي وإهمالٌ للعوامل الموضوعيَّة، وهو بنفس الوقت هجومٌ غربيّ باسم الماديَّة على الإسلام لا يقلُّ عن الهجوم الصليبيّ باسم المسيحيَّة قبل ذلك.

وخلال مراجعته لكتاب (**الرسائل الكاملة**)، أشار د. إبراهيم إسماعيل[1] إلى أنَّ سعيد حليم باشا كان يرى من خلال رسالته السادسة بأنَّ الحدث الاجتماعيّ تؤثِّر فيه المعتقدات الدينيَّة كما تؤثِّر فيه عوامل مثل التاريخ ونمط

(1) باحث في العقائد والأديان، الدوحة، قطر.

الشخصيَّة والطبيعة العقليَّة والبيئة والمناخ، ويرى بأنَّ سؤالاً مثل: لماذا حالَ الدِّين الإسلاميّ بين الدول الإسلاميَّة وبين التقدُّم الذي يعيشه الغرب؟ هو سؤالٌ خاطئ، وآثاره سلبيَّة؛ لأنَّه يوجِّه البحث عن حلٍّ للتخلّف في سياق ميتافيزيقي، وبذلك سنترك الطبيعة التاريخيَّة والاجتماعيَّة للحدث، وسيتم الوصول لنفس النتيجة السلبيَّة التي وصل إليها مَن سَلَكَ ذات الطريق قبلنا، فهو يرى أنَّ تخلّف المسلمين ناتجٌ عن سلوكيَّات جاهليَّة تجاوزت الإسلام حيث استوردت بعض الأقوام الإسلاميَّة من تاريخِها الجاهلي قبل الإسلام، كما أنَّه تخلّف ماديّ تجريبيّ، ساهمت في تكريسه عداوة الدول الغربيَّة لدول المسلمين، فهو يرى أنَّ الحروب الصليبيَّة والعداوات اللاحقة خلقت نوعاً من الكُره المتبادل، الأمر الذي جعل بعض المسلمين يزدرون التطوُّر التدريجيّ للحضارة الغربيَّة ولا سيما عبر المنهج التجريبيّ في دراسة الطبيعة، التي كانت الصناعة أوّل ما ازدهر من آثارِه، فوفّرت الصناعة قدراً كبيراً من الكفاءة مع القليل من الجهد، خصوصاً مع اكتشافات الفيزياء والكيمياء، لكنَّ ذلك التقدُّم الصناعي أيقظَ شهوة الربح على حساب الآخرين، فكان الاستغلال والسيطرة والغزو ونهب ثروات الآخرين، وبذلك الواقع الصناعي المتقدّم عجز المسلمون عن مواجهة الغربيين بسبب المعدات وأدوات الحرب الجهنَّمِيَّة، وبذلك ساهم الغزاة بسلوكيَّاتِهِم الوحشيَّة مرّة أخرى بتكريس ردّة فعل المسلمين، فالناس لا يطيقون الرضوخ للهيمنة.

كما يُشير سعيد حليم باشا – خلال هذه الرسالة – لإشكاليَّة أنَّ دعاة التنوير في العالَم الإسلاميّ لديهم تصوُّرات خاطئة تحول دون أدائهم لواجباتهم،

فالأمر عندهم يحل بتقليد الغرب، ويرى أنَّ عموم الأمَّة تنشد التقدّم عبر المبادئ والتقاليد النابعة من دينِها، لكن التنويريين قلة، وهم وإنْ كانت أهدافهم وطنيَّة لكنَّها قائمة على مبادئ غربيَّة، ولذلك فثمَّة فجوة بين عموم المجتمع وبين التنويريين في جميع أنحاء العالَم الإسلاميّ، نتجَ عن ذلك ازدراء التنويريين للمجتمع الذي لا يطيعهم فيما أرادوا، وأدى عجز التنويريين عن إقناع الشعب بمشروعهم لجعلهم يمارسون ضغوطاً مترافقة مع الضغوط التي يثيرها الأجانب، فوصلت الحياة المعيشيَّة إلى حدٍّ لا يُطاق.

يرى سعيد حليم باشا أنَّ بناء نموذج حضاري مثالي لا يستمدّ من دين الأمَّة وتاريخها لا يمكن الوصول إليه أبداً، لأنَّ المُثُل التي لا تستند إلى قِيَم أخلاقيَّة ومعنويَّة دينيَّة لن تؤثّر في قناعات الناس بشكلٍ فعّال، وستتحوّل إلى شعارات تفتح المجال للانتهازيَّة والأنانية، كما أنَّ الطبقة المثقَّفة في بلاد المسلمين لن تؤدِّي واجباتها بشكلٍ جيّد إلا إنْ خدمت الأهداف الوطنيَّة للمجتمعات الإسلاميَّة، لا جعلها مسرحاً لتجربة مختلف الأفكار الغربيَّة[1].

- أسباب تأخُّر المسلمين في نظره:

من خلال إلقاء نظرة متفحّصة على كامل الرسائل الثمانية التي وصلتنا لسعيد حليم باشا، نجد أنَّ هناك أسباباً عامَّة لتأخُّر المسلمين قد أوردها في عدَّة مواضع متفرّقة، يمكن جمع شتاتها في النقاط الآتية:

(1) İsmailoğlu, İbrahim. "Kitap İncelemesi: er-Resâilü'l-kâmile li'l-mufekkiri't-Türkî Saîd Halîm Paşa". Akademik Analiz 2 (Nisan 2024), 106-107.

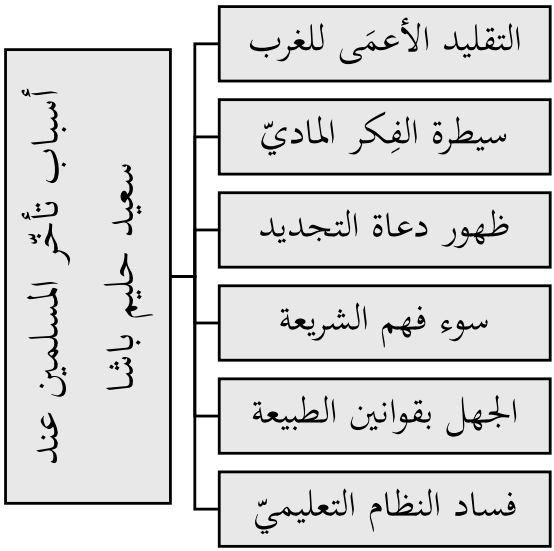

– التقليد الأعمَى للغرب:

أفاضَ سعيد حليم باشا في الحديث عن هذا السبب لِكَونِه أحد الأسباب المحوريّة التي ساهمت بشكلٍ مؤثّر في تسارُع وتيرة تأخُّر المسلمين؛ ذلك أنَّ الكثير من مثقَّفي عصره كانوا يعتقدون بأنَّ الوصول إلى سعادة المجتمع المستحَقّة إنَّما يكون حَصراً بتقليد أنظمة الأُمم الغربيَّة الاجتماعيَّة والسياسيَّة؛ فـ «تقليدنا للأُمم الغربيَّة بهذا الشكل في حقيقته هو انسلاخٌ عن هويّتنا وعاداتنا وتقاليدنا وعقائدنا، بل انسلاخٌ عن وجودنا التاريخيّ والفعليّ بأكملِه»[1].

(1) رسالة (الملَكيّة الدستورية – المشروطيّة): 44.

ونجده قد تحسَّر على هذا الوضع البائس الذي وصلت إليه الدولة العثمانيَّة؛ وذلك أنَّ «الحاصل المستقرّ في هذا البلد أنَّه يكفي في قبول الأفكار التجديديَّة والاحتفاء بها أن تكون غربيَّة، فمجرَّد كونها من الغرب يُضفي عليها سحراً ورَواجاً، وفي الوقت نفسه كان استيراد الأفكار يعفي قطاعاً كبيراً من تحمُّل المسؤولية وتحمُّل الفشل، ويرفع عنهم اللَّوم، كما كان يعطي في الوقت نفسه آمالاً أخرى في تقدُّم هذه البلاد»[1]. وهذا الذي دفعه للتأكيد على حقيقة أنَّ تقدُّم الإنسان لا يكونُ إلا بجهودِه وذكائِه الذاتيّ، وفهمِه للبيئة المحيطة به، والاحتياجات التي طرأت في الزمان والمكان، ويكون تطبيق كلّ ذلك عن طريق ذوي الأهليَّة.

وفي رسالته (النظام السياسيّ في الإسلام)[2]، أشارَ سعيد حليم باشا إلى أنَّ الأشخاص الذين نُسمّيهم التنويريين لا يُفكِّرون في حقيقة أنَّه إذا كان عند الغرب: (**كلّ الطرق تُؤدّي إلى رُوما**)، ففي العالَم الإسلاميّ: (**كلّ الطرق نُؤدّي إلى مكّة**)، وهذا يعني أنَّ كلاً من هذين العالَمَين مُلزَمٌ باتّباع مَسارٍ مختلفٍ، واتجاهٍ مختلف، وتاريخٍ آخر، والوفاء بواجباتٍ خاصَّة به، نابعة عنه في تنمية البشريَّة[3].

---

(1) رسالة (أزمتنا الاجتماعيَّة): 53.

(2) كتَبَ سعيد حليم باشا هذه الرسالة وهو في مَنفاه في مالطة، وقد نُشرت في روما سنة 1921م، وفي فرنسا من السنة نفسها، وتُرجمت إلى الإنجليزيَّة والأرديَّة، كما ترجمها محمد عاطف أرصوي إلى اللغة التركيَّة ونشرها في مجلة (سبيل الرشاد) في سنة 1922م، وفي هذه الرسالة يصف النظام السياسيّ في الإسلام ويشرح خصوصيّته وتفرُّده.

(3) رسالة (النظام السياسيّ في الإسلام): 142.

ونجده قد ذكَّر هؤلاء المثقَّفين مِمَّن تلبَّثوا بهذا التقليد الأعمَى بالحقيقة الآتية: إنَّ إعجابهم وتصفيقَهم للغرب ليس نتيجةَ بحثٍ شامل قاموا به، ولا هو مبنيٌّ على نتيجةٍ توصَّلوا إليها من خلال مقارنة ما لدى الغرب مع النظام الإسلاميّ، فهذه ليست حقائق مَبنيَّة على الصحّة.

ثمَّ حاولَ الوقوف على السبب الرَّئيس لإعجابِ هؤلاء المثقَّفين بالغرب – وخاصَّة أسلوب حياتهم –؛ مؤكِّداً أنَّ هذا الإعجاب يعودُ إلى «الرفاهية الماديَّة التي تعرف هذه الدول كيفيَّة تحقيقها، وبالمِثل فإنَّ سبب كراهيتهم العلنيَّة تجاه المجتمع الإسلاميّ، ومنها بطبيعة الحال المؤسَّسات الإسلاميَّة الجميلة والرائعة؛ هو بُؤسُ الظروف الماديَّة للأُمم الإسلاميَّة»[1].

وقد أكَّد على ضرورة الكشف عن زَيفِ أحلام غالبيَّة مثقَّفي عصره عن الغرب، وكذلك الأفكار التي تُضلِّلُهم، فَهُم على قناعةٍ تامَّة أنَّ المجتمع الغربيّ قد منحَ الأفراد الحرية والمساواة بدرجةٍ لم يتمتَّع بها أيّ مجتمع آخر حتى الآن، مؤكِّداً على أنَّه ينبغي قياس درجة الحرية والمساواة التي يتمتَّع بها الفرد في أيّ مجتمع من خلال استمراريَّة التكافل الاجتماعيّ، والتوازن في ذلك المجتمع، أي بدرجة العدالة الاجتماعيَّة الموجودة هناك، فإذا كانت الخصومات والعدوات بين الطبقات الاجتماعيَّة لا تزال موجودةً في الغرب لدرجة أنَّ بعضَ الطبقات تخنقُ بعضها الآخر، وإذا كان ما يسمى بالتضامن الاجتماعي لا يُمكِن رؤيته إلا بين أفراد الطبقة الواحدة، فذاك أمرٌ يضرُّ

(1) نفس الرسالة السابقة: 158.

المجتمع بأسرِه، وما دام التوازنُ الاجتماعيُّ يتعرَّضُ للتهديد والانتهاك باستمرار، فمِنَ الطبيعيّ القول بأنَّ الحرية والمساواة التي يُقالُ إنَّها موجودة في أوروبا ليست رائعةً كما تَصوَّرَ مُثقَّفونا[1].

فهذا التقليد الأعمَى قد أوصلَ هؤلاء التنويريين إلى حالةٍ من الانسحاق أمام الحضارة الغربيَّة العقيمة، «لدرجة أنَّنا لم نقف على أسباب نشوء وتطوُّر الحركات السياسيَّة في الغرب، ونبدو عاجزين عن فهم تلك الأسباب، لقد وقعنا في أخطاءٍ حَجَبَتْ عنَّا فهم الأسباب التي تصنع الحضارة، وبدلاً من أنْ نصنعَ مثل الأُمم الغربيَّة المتقدِّمة صنعنا العكس تماماً؛ إذ إنَّه لن توجد أمَّة من بين هذه الأمم قد نقلت مِن جيرانِها وهي تبني مؤسَّساتها السياسيَّة والاجتماعيَّة كما فعلنا نحن، كما لا توجد واحدةٌ من هذه الأُمم سَعَت في تشكيل خصائص مجتمعها النفسيَّة والاجتماعيَّة وفقاً لأمَّةٍ أخرى، ولا توجد أمَّة من هذه الأمم تخلَّت عن الشخصيَّة المعنويَّة لمجتمعها لتسعى في نقل شخصيَّة معنويَّة لمجتمعٍ آخر، وتنقادُ له تمام الانقياد».

كما أشارَ إلى أنَّ «تقليد الآخرين واستيرادَ منتجاتِهم؛ يَحولُ بيننا وبين إدراكنا لأنفسنا، ويُسبِّب أكبر تذبذب اجتماعيّ تُصاب به أيّ أمَّة، وبالتالي فإنَّه يَحولُ بينها وبين الإصلاح، ولابدَّ أنْ نكون على يقينٍ بأنَّ سبيل التقليد هذا لا يُنتج حياةً سياسيَّة صالحة لنا على الإطلاق»[2].

---

(1) رسالة (النظام السياسيّ في الإسلام): 161 – 162.

(2) رسالة (مقلِّدتُنا): 28 – 29.

كما أشارَ إلى أنَّه على مرِّ سنين متطاولة اعتقد البعض أنَّ تخليصَ البلاد من الأزمات التي فيها، وإيصالها إلى السعادة، طريقه الوحيد هو ترجمة المتون الدستوريَّة لدى الغرب، ومحاولة فرض قبولها العام بين الناس، وتحريف بعض نصوصها حتى تطبّق على الأرض، بينما كان من الواجب أنْ نعي أنَّ هذا ليس كافياً في تحقيق النهضة.

«ولكي نحصلَ على دستور يُوفِّر العدالةَ، ونؤسِّس لنظام قضائيّ، ذهبنا إلى مجتمعٍ لا يُشبِهُنا على الإطلاق، لا في الأصل، ولا في البنية الروحيَّة، ولا في العادات والتقاليد، ولا في الثقافة والحضارة، ولا في غير ذلك، ذهبنا إلى دستور فرنسا وغيرها من الأمم، لنلتمس مِن عندها قوانين نؤسِّس عليها نظامنا العدليّ.

جذبتنا بنية النظام القضائيّ وكماله في نظرنا، واعتُقد أنَّنا لو قبلنا هذا النظام فإنَّ ذلك سوف يكون كافياً بالنسبة لنا، على أنَّ أحداً لم يتساءل في ذلك الوقت أنَّ نظاماً يُستَورَدُ من فرنسا التي لا تُشبهنا من أيّ ناحية من النواحي، هل سيصلُحُ تطبيقُه لدينا أم لا؟! ولهذا فليس غريباً أنْ تكون الاصطلاحات القضائيَّة التي هي في حقيقتها معاكسة للممارسات القضائيَّة الموجودة في بلادنا على مدى عقود، ليس غريباً ألّا تأتي بأيّ نتيجةٍ إيجابيَّة على الإطلاق.

وقد اتّبعنا نفس الطريق لنؤسِّس لنظام تعليميّ في بلادنا، وكانت النتائج أنْ ظهرت أضرارٌ أكثر مما كان عليه الوضع في السابق، وربما سنلجأ بعد أجيال إلى إزالة ما فرضناه من قبل، لكن بعد فوات الأوان.

والغريب في الأمر أنَّه بعد هذه النتائج العكسيَّة التي تتعارض مع التجربة والفطرة السليمة؛ ما زالت هذه الطريقة التي يتّبِعها هؤلاء تحظى بتقديرهم واحترامهم، ومنذ خمسين سنة وحتى الآن نُعلِّق فشلنا الدائم على عدم وجود رجال دولة يُطبِّقون برامج الإصلاحات التي نستورِدُها من الغرب! إنَّ القول بأنَّه لا يوجد في هذه الأمَّة على مدى خمسين سنة مَن يُعالج أمرها ويرسم طريق نهضتها؛ يُظهِرُ أنَّنا ضَعيفو الحيلةِ خاسرون، فليس منطقيًّا أن تخلو أيّ أمَّة من الأمم من طبقةٍ مثقَّفة وعلميَّة تُدير شؤون مجتمعها، وترسمُ لها طرقاً آمنة وحيويَّةً للنهضة، ذاك أمرٌ يأباه العقل، ومجرَّدُ اعتقاد أنَّ تلك الطبقة المثقَّفة ليست موجودة بيننا؛ هو أحد أسباب فشلنا الواضح»[1].

وقد وصلَ سعيد حليم باشا إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّه إذا تَركَ مجتمعٌ مبادئَه وأصوله الاجتماعيَّة والسياسيَّة، واستبدلَ بها مبادئ وأصول اجتماعيَّة وسياسيَّة أخرى فقد وقع في أمرٍ خاطئ يُنذِر بالوقوع في المهالك، وإنْ كان يبدو مناسباً في ظاهره. كما وصل إلى أنَّه ينبغي علينا أنْ نفهم مبادئنا الاجتماعيَّة، ونعطي الأولويَّة لحماية هذه الأصول، فإنْ لم نفعل ولم نعتمد على أصولنا الاجتماعيَّة بشكلٍ مستمرّ؛ فإنَّنا نحكم على مجتمعنا بالفناء.

وأخيراً، فهؤلاء التنويريون لم يدركوا حقيقة اختلاف الوحدة السياسيَّة بين الغرب والشرق؛ «فالوحدة السياسيَّة في المجتمع الغربيّ تنبني على العلاقة بين الناس بتشاركهم في النَّسب واللسان والمذهب، لكن الوحدة السياسيَّة

(1) رسالة (الملَكيّة الدستورية – المشروطيّة): 35.

عند العثمانيين لا تتوقَّف على التشارك في النسب واللغة، ولا حتى بالعادات والتقاليد في كثيرٍ من الأحايين، ولهذا فإنَّ الوحدة السياسيَّة العثمانيَّة ليست كما هي عند بلاد الغرب المسيحيّ مبنيَّة على القوميَّة، وإنَّما هي مبنيَّة على الوحدة والأخوَّة الدِّينية، وعليه فإنَّه بالانتساب إلى الإسلام وبواسطة هذا الحسّ يُعدُّ المسلمون كلّهم في العالَم إخوة»[1].

– سيطرة الفِكر الماديّ:

في رأيه أنَّ فكرة الماديَّة الغربيَّة كانت أحد أهمّ أسباب تأخُّر المسلمين؛ ذلك أنَّ هذه الفكرة «هي التي وجَّهت الضربة القاضيَة والنهائيَّة للمجتمع العثمانيّ، والغريب أنَّ التصوُّر الماديّ يظهر في الدول الإسلاميَّة لأوّل مرّة الآن منذ 1300 عام، ولو لم تستورد نخبة المفكِّرين هذه الفكرة من الدول الغربيَّة وينقلوها إلى بلادنا باعتبارها أكبر خدمة للوطن، لَكان هذا الواقع – الذي لم ينشأ بنفسِه – بعيداً عن بلادنا إلى الأبد».

كما أشارَ سعيد حليم باشا إلى أنَّ سبب ظهور الفِكر الماديّ وتصوُّراته في الدول الغربيَّة؛ هو عدم توافق المعتقدات المسيحيَّة مع المعتقدات الناشئة عن التطوُّرات العلميَّة الجديدة، وعلى العكس من ذلك؛ فلا يوجد مثل هذا الصراع في المعتقدات الإسلاميَّة، لذلك كان فكر وتصوُّر الماديَّة غريبَين على المجتمعات الإسلاميَّة لفترةٍ طويلة[2].

---

(1) نفس الرسالة السابقة: 43.

(2) رسالة (أزمتنا الاجتماعيَّة): 56.

– ظهور دُعاة التجديد:

يرى سعيد حليم باشا بأنَّ أزمة العثمانيين الفكريَّة تتمثَّل في أنَّ بعض نُخَبِهِم الثقافيَّة بدلاً من الاستفادة من منجزات الحضارة الغربيَّة وتوظيفها في تقدُّم الدولة العثمانيَّة؛ اختارت الذّوبان في الوعي الغربيّ، ولذلك فَهُم ينشرون المرض الذي ألَمَّ بهم على أنَّه العلاج للتحرُّر الوطنيّ، وينتج عن ذلك أنَّه باسم التقدُّم والنهضة؛ يتم تعكير المجتمع وجرّهِ إلى المجهول[1].

فهذه النُّخبة الثقافيَّة أو دعاة التجديد «المتنوّرين» كانوا مِن أهمّ العوامل التي ساهمت في تأخُّر المسلمين، وهو يرى بأنَّ ظهور أمثال هؤلاء الدعاة كان بسبب الكوارث التي عانت منها البلاد العربيَّة والإسلاميَّة نتيجة الاضطراب الاجتماعيّ الذي حدث، كما أنَّ هؤلاء الدعاة لم يكونوا أكثر استنارة من العلماء الذين أغرقوا هذه البلاد في ظلام الجهل والفُجور.

ويقدِّم نقداً شاملاً لهؤلاء الدعاة الذين «لم يتمكَّنوا من متابعة التطوُّرات العلميَّة والتقنيَّة التي ظهرت بسرعة في الغرب، وحدث كلّ ذلك بسبب الواقع التاريخيّ الذي أصابنا، واغترابُ مجتمعنا عن هذه التطوُّرات العلميَّة والتقنيَّة أدَّى إلى توقُّف تنميتنا الوطنيّة، والنتيجةُ أنْ سقط مجتمعُنا في تخلُّفٍ واضح مقارنةً بالأُمم الغربيَّة، ولهذا فإنَّه بدلاً من تحميل علماء الدِّين وأصحاب الفِكر

(1) İsmailoğlu, İbrahim. "Kitap İncelemesi: er-Resâilü'l-kâmile li'l-mufekkiri't-Türkî Saîd Halîm Paşa". Akademik Analiz 2 (Nisan 2024), Pg. 105.

والتنوير مسؤولية تخلُّفنا؛ فإنَّه قد حُمِّل الدِّينُ هذه المسؤوليَّة، وكما أن قِيَمَنا الأخلاقيَّةَ والروحيَّةَ مرتبطةٌ بديننا، فقد أُحيلَت الأخطاء إليها بالتَّبَع».

فهو يرى أنَّ هؤلاء الدعاة قد تسبَّبوا في حدوثِ خطأٍ في التصوُّر، خُلِصَ به إلى أنَّ الإسلام كان عقبةً في طريق التنمية، كما نُسِيَ به أنَّ الإسلام قد أسَّس الدولة العثمانيَّة بقفزةٍ فريدةٍ من نوعِها، واستطاع أنْ يُرِيّ جِيلاً من الإنسانيَّة أنتجَ حضارةً رائعة، «أمَّا حالُ علماء الدِّين والمفكِّرين فلم يفعلوا شيئاً سوى تكرار نفس الاتهامات غير المبرَّرة التي تَعرَّضَ لها الدِّين بسبب فساد طبقاتنا وجهلها، في حين ظنَّ دعاةُ التجديد هؤلاء بأنَّ تحقيق التحرُّر الوطنيّ والرفاهية يعتمدُ على تطبيق فهم الماديَّة – التي عَدُّوها المصدرَ الحقيقيّ لتقدُّم الغرب – على بيئتنا. ومجتمعُنا لم يفعل شيئاً لهذه الأفكار سوى أنْ غضَّ الطرف عنها تماماً».

ولمَّا كان اعتقاد هؤلاء الدعاة بأنَّ الفكر الماديّ ونتائجه هي أساس التقدّم ووسيلة الحضارة؛ تجلَّت القيمة الحقيقيَّة لإصلاح البلدان الإسلاميَّة، وخاصَّة بعد ما وصل إليه الوضع الاجتماعيّ، وهي أنَّ الأدلة الواقعيَّة تُظهِر بأنَّ الدِّين له أهمية حيويَّة في هذه البلدان، وأنَّه يحكم بشكلٍ غير محدود أكثر مما هو عليه في البلدان غير الإسلاميَّة.

ثمَّ خلُص إلى أنَّ الداء الذي أصابَ هؤلاء الدعاة يكمُن في «استيراد الفهم الماديّ – الذي لم ينشأ عندنا – وتطبيقه في بلادنا، وهذا يكشف عن خطأ جوهريٍّ لم يؤد إلا إلى تفكُّكِ مجتمعنا العثمانيّ إلى ما فيه نهايته»[1].

(1) نفس الرسالة السابقة: 57 – 58.

وقد حملَ على هؤلاء الدعاة تبنّيهم لسياسة (**التغيير**) بدلاً من (**التصحيح**)، فنجده يشيرُ إلى أنَّه في فرض هذه السياسة سيُحرَمُ الناسُ من المعرفة والخبرة التي اكتسبوها في الماضي، ويتحمّلون الكثير من المتاعب والآلام، ولا يُمكِنُهم الاستفادة من ماضيهم، ما سيُؤدّي إلى إضاعة الوقت القيّم في التردُّد والشكّ ومحاولة إصلاح ما تمَّ ارتكابُه من أخطاء جديدة، ويترتّب على ذلك نتائج أكثر ضرراً وخطورة من الأخطاء والعيوب المُراد تصحيحها أصلاً، ويتولَّد عن ذلك مشاكل جديدة[1].

– سوء فهم الشريعة الإسلاميَّة:

فهو يرى أنَّ السببَ في تخلُّف مجتمعاتنا الإسلاميَّة عن المجتمعات الغربيَّة هو «سوء فهمنا للشريعة المحمَّدِيَّة»؛ ذلك أنَّ الشريعة الإسلاميَّة كانت دائماً صاحبة سلطة لها تأثير غير محدود على حياتنا بأكملِها، وصولاً إلى أدقّ التفاصيل، ولها تأثيرٌ على تفكيرنا الثقافيّ الذي هو أساس وجودنا المعنويّ، كما أثَّرت دائماً بشكلٍ واضح في تطوُّر كياننا الروحيّ؛ فضرورات الحياة البشريَّة والقدرة على اختيار السلوك والتطوُّر والإيمان بنظامٍ عقائديّ راسخ لا يكون إلا بدينِ الإسلام وحده لا بغيره.

وقد أضافَ إلى ذلك ما نسبه بعض المسيحيين لما حدثَ في العالَم الإسلاميّ إلى الدِّين؛ «لأنَّ ما حدث عندهم أثناء سعيهم للتقدّم والتحضّر كون الدِّين الذي ينتمي له الرهبان ورجال الدِّين هو العائق الوحيد لتلك الغاية؛

(1) رسالة (أزمتنا الفكريَّة): 74.

فكان من الطبيعي أن يُفكِّروا بذات الطريقة ويُطبِّقوها على الدِّين الإسلاميّ، وعلى العالَم الإسلاميّ، ويقيسوه على ما حدث عندهم، أمَّا الاعتقاد بأنَّ التخلُّف وعدم اللحاق بركبِ الحضارة أمرٌ راجع إلى الدِّين الإسلاميّ فلا شكَ بأنَّه خطأ، وهذا التصوُّر الخاطئ ليس نابعاً من الحقائق التاريخيَّة والتجارب المجتمعيَّة في التاريخ الإسلاميّ، وإنَّما نابعٌ من النظرة السالفة الذِّكر التابعة للتصوُّرات المسيحيَّة، لذلك فإنَّ الاعتقاد بأنَّ الشريعة الإسلاميَّة هي سبب تخلُّفنا اعتقادٌ باطل وفارغ ومُبالَغ فيه، ولا يمكن أن يكون دليلاً بحالٍ على النقص في ديننا[1].

– الجهل بقوانين الطبيعة:

جاء تركيزه على أنَّ كارثة التخلُّف الماديّ التي وقع فيها المجتمع الإسلاميّ، إنَّما سبَّبها جهله بقوانين الطبيعة، وبسبب هذا الجهل ظنَّ أنَّه فقيرٌ وضعيف، وفي النهاية فَقَدَ استقلالَه السياسيّ، ولأجل القضاء على الجهل الذي تسبَّب في مرضه هذا، يرى سعيد حليم أنَّ على هذا المجتمع أن يتعلَّم من الغرب العلوم التي يفتقرُ إليها.

وقد عبَّر عن هذه المعضلة بقوله: «لقد تمتَّعَ بالقوّة الماديَّة والسعادة الدنيويَّة أولئك الذين عرفوا كيفيَّة الاستفادة من خيرات الطبيعة، ومعلومٌ للجميع أنَّه للاستفادة مِن هذه النِّعَم، لابدَّ من معرفة القوانين التي تحكم الطبيعة، والحصول على العلوم المستمَدّة من هذه القوانين، وعندما تُعرَفُ هذه

(1) رسالة (التعصب): 90 – 91.

الحقيقة على هذا الوجه، فيجب الاعتراف بأنَّ سبب تخلُّفِ المسلمين هو جهلهم تجاه هذه العلوم والفنون.

وللتغلُّب على هذه المعضلة، فقد أشارَ سعيد حليم باشا إلى أنَّ حلّ مشكلة العالَمِ الإسلاميّ والمرض الذي أصابه هو «الإسراعُ دون تلكُّؤ في الحصول على مقاليد الفنون والعلوم الطبيعيَّة، التي كان إهمالُها سبباً للتخلُّف، هذه الفنون والعلوم الطبيعيَّة موجودةٌ في أوروبا اليوم؛ لذا فإنَّ الشيء الذي يجب القيامُ به واضحٌ بالنسبة لنا، وهو أن نتعلَّمَ هذه الفنون والعلوم الطبيعيَّة من الأوروبيين. نعم، لقد أخبرنا النبيُّ الكريم ﷺ قائلاً: «**اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَو فِي الصّين**»[1]. فعلينا أن نتعلَّم طرق التجربة التي نسيناها، ونتعلَّم النظريات والمعارف الجديدة التي لم نعرفها من قبل، وبذلك نكون قد أطعنا نبيَّنا»[2].

إلا أنَّه قد حذَّر في الوقت نفسه من قبول المذاهب الاقتصاديَّة للدول الأوروبيَّة، أو أساليب المؤسَّسات التجاريَّة ورأس المال، أو أشكال العلاقات التي بينها، مؤكِّداً على أنَّه «من خلال نظرة سريعة يتبيَّن لنا أنَّه مِنَ الضروريّ الامتناع عن أخذ هذه الجوانب من الغرب؛ لأنَّها تتعارضُ إلى حدٍّ ما مع مبادئ الإسلام الأساسيَّة»[3].

---

(1) حديثٌ باطل: أورده الإمام الألباني رحمه الله في (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة)، رقم (416).
(2) رسالة (النظام السياسيّ في الإسلام): 157.
(3) نفس الرسالة السابقة: 154 – 158.

– فساد النظام التعليميّ:

ركَّز سعيد حليم باشا على قضية فساد النظام التعليميّ بوصفِها أحد نتائج المؤثِّرات الأجنبيَّة التي تسبَّبت في أزمات المسلمين الاجتماعيَّة.

وقد أشارَ إلى أنَّه مع مقارنة الواقع العثمانيّ المتردِّي بالواقع الغربي المتقدِّم؛ حدث أنْ انبهرت فئة من العثمانيين بأضواء الحضارة الغربيَّة ورأوا أنَّ تجاوز مشاكل الواقع العثمانيّ والعبور إلى واقعٍ متقدِّم يقتضي السعي نحو التغريب والفرنسة تحديداً، حتى إنَّ مَن تحدَّث الفرنسيَّة بدلاً عن التركيَّة؛ ومَن هجرَ الدِّين وانغمسَ في القمار واتَّخذ العشيقات؛ فقد بلغ أعلى درجات التمدُّن بمقياس هؤلاء، وهذا يعني بالضرورة جرّ الفساد والانحطاط لدين الدولة وأخلاقها وعاداتها التي كانت تُعَدُّ من معوّقات الحداثة، فتمَّ التعدّي عليها بشكلٍ عنيف، والتحقَ عددٌ كبير من الطلاب ليدرسوا في فرنسا، والواقع أنَّ الدول الغربيَّة أنشأت مؤسَّسات ماليَّة وتعليميَّة لجذبِ المؤيّدين وقابلي الانتداب، والمبشّرين بثقافة تلك الدول[1].

ويرى سعيد حليم أنَّ هذا الفساد قد تجلَّى في صورةِ انقسام لحالة هذا المجتمع مع افتتاح أيّ مؤسَّسةٍ تعليميَّةٍ جديدة:

(1) İsmailoğlu, İbrahim. "Kitap İncelemesi: er-Resâilü'l-kâmile li'l-mufekkiri't-Türkî Saîd Halîm Paşa". Akademik Analiz 2 (Nisan 2024), Pg. 104.

- قسمٌ يدعو إلى كلّ تجديد، ويفتح الباب أمام كلّ واردٍ من الأفكار، وهؤلاء يُمثّلون أكثر الطبقات العليا (رجال التنوير)، أولئك الذين يتزعَّمون فكرة تقليد الأُمم الأخرى بشكلٍ مبالَغ فيه.

- وأمَّا القسم الآخر الذي يتكوَّن من مجموعةٍ مِنَ المتنوّرين ومِنَ الشعب العاديّين، فَهُم على العكس من سابقيهم، إذ يُعارِضون أيّ حركةٍ من حركات التجديد، ويَنفرُونَ منها، وسادت هذه المعارضة جميعَ أنحاء البلاد.

أرجَعَ سعيد حليم هذا الإشكال إلى سيادة العِلم والتقنية في سياقِها الماديّ وحده بعيداً عن الحضور الأخلاقيّ، قائلاً: «لقد تأسَّست المؤسَّساتُ التعليميَّةُ فقط على المبادئ الرائعة للعلم والتقنية والعقليَّة الحديثة، على أنَّ التّشبُّه عقيم بطبيعتِه يجعلُه لا يخرج عن دائرة التقليد، ولذلك لم تَعُدِ المخرجات التعليميَّة كافيةً لتشويه سمعة هذا النظام التعليمي، فقد أنشأ دعاة التجديد عندنا هذا النظام بدافع تحسين التدريس، على أنَّ نتائجَه كانت أبعد مما ظنُّوا؛ مما أدّى إلى اضطراب المجتمع والحياة العامَّة على حدٍّ سواء.

فمع الفهم الذي أوجدَه نظام التعليم الجديد، والذي يُعَدُّ النموذجَ الأمثل في الوصول إلى المعلومة الجديدة، عُوِّد الشبابُ على قبول الأشياء الماديّة، والتي يقبلها العقل فقط لا غير[1]، وهو ما أثَّر في تربيتِهم وأخلاقِهم التي أصبحت

(1) يشير للعقلانية في إطار الفكر المادي.

قاصرة وغير مكتملة، ولم يستطع الجيلُ الجديدُ الذي نشأ على مِثل هذه العقليَّة أن يُقاوم الرغبةَ في المعرفة والفهم على هذا النحو، أمَّا الجوانبُ الأخرى الأساسيَّة في المجتمع مثل التقاليد والهويَّة الاجتماعيَّة والتربية والاحترام والطاعة وغيرها مِنَ الأخلاق فقد تمَّ تنحيتُها.

أصبح هؤلاء الطلاب في منزلةٍ أحطّ من منزلة الجهل الذي عاشه آباؤهم؛ نتيجةً لتعليمٍ غير مكتمل وغير ملائم، وزال تماماً ما كان يُعرَف باحترام الأبوّة وبرّها، وفي النهاية ظهرت نتائج لم تكن من قَبل؛ وبعضها تجلَّى في قوانين صدرت بدعوى الدفاع عن الأطفال وحماية حقوقهم، أدَّت إلى رفع سلطة الوالد عن ولده، فبرزت ملامح جديدة لربِّ الأسرة.

لقد أفسدَ النظامُ التعليميُّ المجتمع العثمانيَّ الذي صمد وجاهدَ قروناً طويلة، وتغلَّبَ على العديد من الكوارث، على أنَّ الأجيال الجديدةَ التي خرّجها هذا النظام لم تُبْقِ من الماضي إلا الذكريات. وبالرغم من إدراكِ مجتمعنا طبيعةَ الوضع الحاصل، إلا أنَّه لم يَعرف ماذا يفعل بسبب ضعفِه وإرهاقِه، فقد سقط مجتمعُنا في فوضى عقليَّة واجتماعيَّة نتجت عن نمطِ العلم والمعرفة للجيل الجديد، الذي سعى وسط هذا التفكُّك لإنشاءِ بنيةٍ اجتماعيَّةٍ جديدة على أنقاض الماضي»[1].

(1) المصدر: 50 – 51.

وقد ظهرت عناية سعيد حليم باشا بإصلاح التعليم العثمانيّ في رسالة (**الأسلمة**)[1]، حيث وجَّه رسالةً إلى أولئك الذين يتولَّون مهمَّة تجهيز الناشئة وتكوين الأجيال القادمة أنْ يُقدِّروا بشكلٍ صحيح درجة مسؤوليَّتهم الكبيرة تجاه وطنهم، قائلاً: «ما يجبُ فعله الآن هو النظرُ إلى التعليم العثمانيّ قبل كلّ شيء، فإصلاحُه حاجة مُلحَّة، وتزويد أُمَّتِنا بتربية أخلاقيَّة روحيَّة عالية، إذ يجب أنْ يكون هذا التعليم الذي سيُبنَى على فهم الإسلام وواقعه، مستمدًّا من مبادئ الإسلام مباشرة، وبطريقة تستجيبُ لاحتياجات العصر على أكملِ وجه.

وبناءً على ما وصلنا إليه؛ فإنَّ قيمة الأساليب التي يجبُ اتباعها في التعليم والتربية ستكونُ بقَدرِ درجة الخدمة التي ستقدِّمُها تلك الأساليب في تحقيق الغرض من الإسلام، ونعني بالطريقة هنا كلّ الوسائل التي يجب استخدامها لجعلِ الفرد قادراً على أداء مهمَّة معيَّنة، وتحقيق غرض معيَّن، ولهذا فإنْ لم يكن هناك هدف محدَّد، فلا يمكن أنْ يكون ثمَّة نظام حقيقي»[2].

(1) أحد أهمّ رسائل سعيد حليم باشا، كتبها بالفرنسيَّة وترجمها إلى التركيَّة محمد عاكف أرصوي، وبدأ نشرها بمجلة (سبيل الرشاد) اعتباراً من 15 نوفمبر 1918م، ونُشرت مجموعة في السنة نفسها. انظر: مقدمة أ. د. رمضان يلدرم لـ (الرسائل الكاملة)، ص 15.

(2) الرسائل الكاملة، رسالة (الأسلمة)، ص 138.

الطاهر ابن عاشور

يُعتبر المفكّر والعلّامة التونسي محمد الطاهر ابن عاشور (ت: 1393هـ/1973م) أحد أعلام هذا العصر، وركنٌ من أركان الحركة الإصلاحيَّة، وإمامٌ مجتهد من أئمة الدِّين، الذين يوضِّح الله بهم طريق الإنسانية من قرنٍ إلى قرن، ومفخرة تونس العلميَّة، ورائد الحركة الإصلاحية، فيها عزمَ على إنجاز مشروعه الإصلاحي من خلال التعليم الزيتوني، وقد بلغ شأواً بعيداً في مضماره.. والشيخ سليل أسرة كريمة بالدِّين، جليلة بالفقه، توارث أَهْلوها المناصب العلميَّة والسياسيَّة. نشأ نشأةً زيتونيَّة، وتدرَّج في سُلَّم معارفه تدرُّجاً سريعاً، ويُعلَّل نبوغ هذه الشخصية إلى البيئة العائليَّة عامَّة، والاهتمام المركَّز عليه من قِبَل جَده للأم الوزير الشيخ محمد العزيز بو عتور (ت: 1325هـ/1907م) خاصَّة[1].

- أليس الصبح بقريب؟!

ضمَّن الشيخ ابن عاشور آراءه التربويَّة والتعليميَّة في كتابٍ عنونه بجزءٍ من آيةٍ قرآنيَّة[2]، فكان العنوانُ مثيراً: (**أليس الصبح بقريب**)، وقد بدأ التفكير في تأليفه سنة 1321هـ/1902م، وهو يعبِّر عن مناسبته في كتابة هذا العمل بقوله: «قد كان حدَا بي حادي الآمال، وأملَى عليَّ ضميري، مِن عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربيّ الإسلاميّ الذي

(1) من مقدمة أ. د. بلقاسم الغالي في كتابه (الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: حياته وآثاره)، ص 13.
(2) سورة هود: 81

أشعرتني مدَّة مزاولته متعلِّماً بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق، فعقدتُ عزمي على تحرير كتابٍ في الدَّعوة إلى ذلك وبيان أسبابه، ولم أنشَبْ أنْ أزجيت بقلمي في ابتداء التحرير فإذا هو يسابقني كأنَّه من مطايا أبي العلاء القائل:

ولو أنَّ المطي لها عقول وجدِّك لم نَشُدَّ لها رحالا

وصادفتُ أيَّام عطلة التدريس الصيفيَّة في ذلك العام، فقضيتُ هواجِرَها الطويلة، وبُكَرَها الجميلة، في هذا العمل، مشتغلاً به عن محادثة الأحباب، وعن دَعة التنعم بمغتَسَلٍ باردٍ وشراب، حَتَّى وقف بي القلم عند انتهاء الاستراحة في مدَّة شهرين إلى تحرير جملةٍ كانت مشجِّعتي على مراجعة عملي هذا في ثلاثة أصياف وعنونته (أليس الصبح بقريب)»[1].

وحالت دون نشر هذا الكتاب موانع، غير أنَّه لم يدع فرصةً إلا سعى فيها إلى إصلاح التعليم بما ينطبق على كثيرٍ مما تضمَّنه هذا الكتاب من آراءٍ إصلاحية، وقد تحقَّق العمل بكثيرٍ من الملاحظات التي اشتملَ عليها فأسفرَ بها وجه الصبح الذي رُجِيَ له قُرباً، ولم يفتأ كلما وجد فجوة أنْ يرتقي بالتعليم الزيتوني في مرتقى وإنْ كان صعباً حتى أنْ أصبح أعقب بضحاة، وأثمرت جهود الشيخ الإصلاحية بخريجي الزيتونة الذين بلغوا عشرات الآلاف الذين نهضوا بأعباء الدولة التونسية المعاصرة في شتى المجالات التربويَّة والقضائيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة[2].

---

(1) أليس الصبح بقريب: 13.

(2) التعليم العصري ونظام التوجيه المدرسي في تونس، بلقاسم بن سالم، سلسلة علوم التربية (2)، تونس (1988م).

- أسباب تأخُّر التعليم في رأي ابن عاشور:

إنَّ المصلح كالطبيب لا يكون دواؤه شافياً إلا إذا شخَّص العِلَّة وعرفَ أسبابها، فكذلك المصلح لا يكون إصلاحه ناجعاً إلا إذا عرف مواطن الخلل وأسبابه، ذلك ما فعله الشيخ ابن عاشور عند قيامه بمشروعه التربوي، فقد درس أسباب تأخُّر التعليم الزيتوني، ووَصَفَ الإصلاح وصفَ خبيرٍ متمرّس خَبَرَ المؤسَّسة التربوية العريقة من الداخل معلِّماً ومتعلِّماً، يقولُ في شأن ذلك: «إنِّي على يقينٍ أنَّني لو أتيحَ في فجر الشباب التشبُّع من قواعد نظام التعليم والتوجيه لاقتصدتُ كثيراً من مواهبي ولاكتسبتُ جَمًّا من المعرفة ولسلمتُ من التطوُّح في طرائق تبيَّن لي بعد حين الارتدادُ عنها، مع أنِّي أشكر ما منحت به من إرشادٍ قَيِّم من الوالد والجدِّ ومن نصحاء الأساتذة، ولا غِنَى عن الاستزادة من الخير»[1].

وقد فحص ابن عاشور أسباب تأخُّر التعليم فوجدها نوعين:

- الأسباب العامَّة التي قضت بتأخُّر المسلمين على اختلاف أقاليمهم وعوائدهم ولغاتهم، ولكن هذا بحثٌ يشغل بياض مجلدات ومرجعه إلى التأخُّر العام في العالَم الإسلامي.
- ونوعاً يرجع إلى تغيُّر نظام الحياة الاجتماعيَّة في أنحاء العالَم تغيُّراً استدعى تبدُّل الأفكار والأغراض والقيم العقليَّة، وهذا التغيُّر قد استدعى تغيُّر أساليب التعليم ومقادير العلوم المطلوبة، وقيمة كفاءة المتعلمين لحاجات زمانهم.

---

(1) أليس الصبح بقريب: 17.

كلُّ ذلك نشأ نشئاً سريعاً وسار سيراً فسيحاً، والمسلمون –وخاصَّة أهل العلوم الإسلاميَّة– في سباتٍ عميق حالَ دونهم ودون إصلاح برامج تعليمهم، ومَن حاولَ الإصلاح نسبوه إلى سوء المقصد، وناظروه بأنَّ هذا المنهج قد أوصل أسلافنا إلى أعلى مرتقى من النجاح، وأنَّه قد أنجبَ أساطين للعلم طبقت شهرتهم الآفاق، وربما روَّجوا بهذه المقدمات الخطابيَّة أو السفسطائية قناعةً في أنفسهم وإقناعاً للدهماء، وكلهم غافلون أو متغافلون عن اختلاف العصور والأجيال ذلك الاختلاف الذي تغيَّرت به الأساليب. وقد انتهى البحثُ بالشيخ ابن عاشور إلى ذِكرِ أسبابٍ عامَّة لتأخر التعليم، منها:

– أولاً: انعدام خطَّة تربويَّة متطورة:

انعدام خطَّة تربويَّة محكمة مراقَبة مِن قِبَل علماء عارفين بحاجات الزمان وغايات العلوم نُظَّاراً إلى الروح لا إلى الجثمان، بعيدين عن متابعة السفاسف خبيرين بما أصاب مزاج التعليم من العلل و بأنواع أدويتها، وهذه المراقبة العلميَّة لأساليب التعليم الهدف منها مواكبة أساليب التعليم لمقتضيات العصر وتطوير هذه الأساليب وتعهُّدها بصفةٍ مستمرة.

وقد راقَبَ عليٌّ – رضي الله عنه – حلقات العلم في المساجد، فنهَى مَن لم يكن أهلاً في العلم، وأقرَّ مَن كان أهلاً لذلك كالحَسَن البصري رغم صغر سَنِّه يومئذ، وراقَبَ المأمون المؤلَّفات السائدة في عصره فأثنَى على الجاحظ حين ألَّف كتب الإمامة بأمر المأمون بعد أنْ أمرَ اليزيدي بالنظر فيها وأخبره عنها ثمَّ نظرها بنفسه، ولكن هذه المراقبة العلميَّة لتطوير الأساليب والمناهج والمؤلَّفات كانت كسحابةِ صيف فلم تدم طويلاً، بل لم يخطر هذا الأمر لأهل

النهضة العلميَّة من رجال الدولة العباسيَّة ببغداد والدولة الأموية بالأندلس، ولعلهم رأوا التعليم في نشأته محتاجاً إلى الحرية أكثر من احتياجه إلى المراقبة العلميَّة، بينما اكتسى هذا البحث في مناهج التعليم وأساليبه اليوم عند علماء العمران أهميةً قصوى؛ لأنَّه بحثَ في مستقبل الأمَّة وتكوينها حتى أصبحَ الشغل الشاغل لحكومات أوروبا وفلاسفة عمرانها على ما هو من الاتفاق عندهم، فما ظنُّك بنا ونحنُ عاكفون على أساليب بادت أزمانها.

ويرجع تاريخ وضع المراقبة الصحيحة على التعليم والعلوم إلى أهل أوروبا في نهضتهم إلى تأسيس الأكاديميات (المجامع العلميَّة) التنقيحيَّة في أواخر القرن السادس عشر (سنة 1582م) بإيطاليا، ثمَّ توالت على ذلك ممالك أوروبا وأشهر مجامعها أكاديمية فرنسا التي أسَّسها الكردينال ريشيليو سنة 1634م في مدَّة لويس الثالث عشر الذي كان هو وزيره، ثمَّ تلتها أكاديميات أخرى همَّها مراقبة العلوم[1].

هكذا كانت أفكار الشيخ ابن عاشور كثيرة التنوُّع، واسعة النطاق، عميقة الجذور، مستلهمة من مسيرة الفكر العلمي والتربوي عند المسلمين، متفتحة على المناهج التربويَّة والعلميَّة عند أوروبا، مقتبسة من نهضتها العلميَّة ومسيرتها التربوية، وهو في اقتباسه لا يغفل عن الأوضاع التربويَّة التي كانت سائدة في جامع الزيتونة.

(1) أليس الصبح بقريب: 117.

– ثانياً: إهمال الضبط:

ومِن أسباب تأخُّر التعليم الزيتوني في رأي الشيخ ابن عاشور إهمال الضبط؛ فالمتعلِّم يتعلَّم باختياره، والمدرِّس يُدرِّس ما يروقُ لديه من الكتب، ويُقرِّر ما يختار من المسائل، والمؤلِّف يصطلح على ما يشاء من العلوم، وبذلك كان التعليم غير مضبوطٍ ولا متَّحد بطريقةٍ واحدة، بل يغلب عليه نوعٌ من عدم الدقَّة والتنسيق.

ومِن المبادئ لضبط التعليم بصفةٍ طرديَّة أربعة أمور، يقترحها الشيخ: منها جعله إلزاميًّا، وضبط محل التعليم، وتقسيم التلاميذ على العلوم والدروس، وهذه المبادئ تنسجمُ مع مبادئ التربية.

وقد كان الشيخ سبَّاقاً بدعوته إلى إلزاميَّة التعليم، يقولُ في ذلك: «وعندي أنَّ الحكومة لو وجَّهت عنايتها إلى تعميم التعليم وجعله إلزاميًّا، وجعل تعليم العلوم الإسلاميَّة والعربيَّة في الشقين من الإلزامي، وأقامت المراقبة على مدرِّسي دروس هذه الإيالة، وإنشاء دروس حيث لا توجد الدروس وحيث يكثر الناس وفي غالب الأحياء، وضبطت تعليم الكتاتيب فكانت هي التعليم الرافع للأميَّة ليتأهَّل به المتخرِّج منه إلى الدخول في تعليم العلوم في درجةٍ ثانية عالية ثمَّ ثانويَّة؛ لاستفادت البلاد التونسية من ذلك فائدةً جليلة»[1].

إنَّ الشيخ يحملُ فِكراً إصلاحيًّا متطوراً هدفه إصلاح المنهج التربوي في مستوياته المتعدِّدة مع إفادة الأمَّة إفادةً عظيمةَ الشأن؛ يتمثَّل ذلك في إلزاميَّة

(1) نفس المصدر السابق: 121.

التعليم، وضبط المحل، ومراعاة المبادئ الصحيَّة فيه، والدقَّة في تعيين الأوقات وأحكام تنظيمها، وتقسيم التلاميذ حسب مقاييس مضبوطة، جميع هذه العناصر من الأصول التي اهتمَّ بها الفكر التربوي الحديث وبوَّأها منزلةً هامَّة في المنظومة التربويَّة المعاصرة.

– ثالثاً: البُعد عن التربية الأصيلة:

إنَّ السبب الذي قضى على المسلمين بالانحطاط والتأخُّر في تعليمهم في رأي الشيخ ابن عاشور اعتقادهم السائد أنَّ العلمَ منحصرٌ فيما تتضمَّنه القواعد العلميَّة كالنحو والفقه والاستكثار من فروع المسائل ومن عدد العلوم، والأمرُ في حقيقته بخلافِ ذلك؛ فللعلوم روحٌ ينبغي أنْ ينفذ إلى عمقها المربِّي يبلغ أهدافه التربويَّة من تثقيفِ العقل إلى تهذيب النفس.

ويُدلِّل الشيخ على رأيه بما حدث في صدر الإسلام من التحلّي بأخلاق القرآن وهدي الرسول ﷺ، والأخذ بآداب شريعته والتعمُّق في العلوم بمناهج علميَّة عميقة، واستشهدَ بقول عتبة بن أبي سفيان لعبد الصَّمد مؤدِّب أولاده: «ليكُن أوَّل ما تبدأ به مِن إصلاح بَنِيّ إصلاح نفسك، فإنَّ أعينهم معقودةٌ بعينك، فالحسنُ عندهم ما استحسنتَ والقبيحُ عندهم ما استقبحتَ، ورَوِّهِم سِيَر الحكماء وزِد في تأديبهم أزدكَ في بِرّي»، ولم يستشهد الشيخ ابن عاشور بمفكِّري الإسلام، بل اقتبسَ من حكمة الغرب، ونقل عن الحكيم الفرنسي جول سيمون[1] قوله: «ليست وظيفة المدرسة مقصورة على التعليم فقط، فإنَّ

(1) Jules Simon (1814 – 1896 A.D.).

بثَّ الفضيلة والإقدام من أهمِّ وظائف المدرسة»، والشيخ ابن عاشور يُلمِّح إلى الأمراض الاجتماعية من خلال توجيهاته التربويَّة عندما قال: «الواجب من حيث خُطَّتنا التي نريد أنْ يسير فيها أبناؤنا وتلامذتنا هو التدريب على ضروب الحكمة، ونقد مقتضيات الزَّمان، وعلوّ الهمَّة، والغيرة للحقّ، والترفُّع عن سخائف المطامع، وعن ضيق الصَّدر الذي ينشأ عن الحسد والظلم والخِصام، والتلظِّي من كلِّ ما يخالف المقصد، والإقدام، والحزم وأصالة الرأي، وحبِّ النظام في جميع أحوال الحياة وعدم معاداة القوانين، والعمل، وحبِّ التناسب في المظاهر كلها، وإدراك الأشياء على ما هي عليه، والتباعد عن الخِفَّة والطَّيش، وعن الجُمُود والكسل، وسوء الاعتقاد والأمور الوهميَّة، بحيث يكون العدل في جميع الأشياء صفة ذاتية لهم»، فهذه المبادئ الأخلاقيَّة عندما ينشأ عليها أبناؤنا وتلاميذنا كفيلة بضمان شخصية سويَّة سليمة.

هذا الدستور الأخلاقيّ الذي حدَّد ملامحه الشيخ في خطَّةٍ تربويَّة، عندما يُمَارس عمليًّا يوصل إلى نتائج ذات بال على مستوى الفرد والمجتمع.

- نقد مستويات التعليم:

هناك غفلة في عصر الشيخ ابن عاشور عن إعطاء كلّ مستوى من مستويات التعليم ما يحتاجه من المنهج اللائق بها والنافع فيها مما له أثرٌ بالغ في تقويم الفِكر، وذلك بالاعتناء بما يجعل ذهن التلميذ مراعياً لما تجب مراعاته من القواعد التربويَّة عند كلِّ مرحلةٍ من مراحل التعليم، وقد نقد الشيخ هذه المراحل نقداً وجيهاً، مِن ذلك:

– أولاً: غياب مَلَكَة النقد في مرحلة التعليم العالي:

إنَّ الغايةَ من التعليم العالي إيصال الطالب إلى الاستنتاج والنقد والسموّ بعقله إلى درجة الابتكار، ومعنى الابتكار أنْ يصيرَ الفِكرُ مهيَّئاً لأنْ يبتكر المسائل ويوسِّع المعلومات كما ابتكرها الذين مِن قبله، فيتقدَّم العلم وأساليبه، ولا يكون ذلك إلا بالعمل على إحداث قوَّة في الفِكر تميِّز الصحيحَ من العليل مما يُلقى إليه، وسبيلُ ذلك الدُّرْبَة والمِران والمِراس.

ولهذا انتُخِبَت في عصور النهضة الإسلاميَّة الزاهرة طريقة علميَّة ناجحة، فإنَّهم ما كانوا يتابعون رأياً إلا بعد اتِّضاح دليله وما كان تعلُّمهم لعلوم أساتذتهم ومتابعتهم لأقوالهم إلا ليجعلوها أُصولاً يبنونَ عليها ما يحدثونه، اقتصاداً في الوقت وتقليلاً للمسافة.

ثمَّ أُصيب التعليم الإسلاميّ في عصور الانحطاط بشيءٍ من سَلبِ حرية النقد، وأصبحت متابعة كلّ ما يُكتب فكرة سائدة في أهل العلم، وبلغَ الأمرُ إلى حدِّ أنْ يُعدَّ في هنات الناس عدم الرضا بما يقول المؤلِّفون حتى إذا وجدوا قولين متناقضين أمسكوا عن الترجيح وقالوا: «هذا قال، وهذا قال»، خصوصاً في علم الفقه[1]، وأشدُّ ما اشتدَّ هذا الأمر بتُونس على عهد الدولة العُبيديَّة حين حَجَرَت الفُتيا على الفقهاء المالكيين بما يخالف مشرب الدولة الحاكمة يومئذٍ.

(1) نفس المصدر السابق: 126.

ثمَّ ازدهرت الحركة العلميَّة في الدولة الحفصيَّة، ثمَّ تضاءلت بعد انقراضها لَمَّا اعترت المملكة التونسيَّة مصائب وحروب وأوبئة انقرض بها جملة العلماء، وازدادت الحركة تراجعاً في أواسط الدولة المراديَّة، ولم تنهض من جديد إلا في دولة أحمد باشا[1].

– ثانياً: إهمال التمرين والعمل بالمعلومات في المرحلة الثانويَّة:

إنَّ إهمال التمرين والعمل بالمعلومات كما هو الغاية من كلِّ علمٍ ظاهرة عامَّة، ولهذا نرى بجامع الزيتونة بتونس وفي كثيرٍ من بلاد الإسلام علوماً تُدرس وكُتُباً تُختم، ولا نرى فيمن نُحادث أو نُجالس فصيحَ لسان أو بليغَ بيان مع احتياجنا إلى إحياء اللغة لتفي بالحاجات المدنيَّة الواسعة؛ لأنَّ سَعَة التمدُّن تقتضي سَعَة اللغة بالضرورة. يقرأ الناس علم البلاغة، وعلم الأُصول، وعلم النحو، فلا نرى مَن يتجنَّب اللَّحْن في قوله ودرسه، ولا مَن يشعر بالمقاصد البلاغيَّة فينطقُ بها أو يفهمها، ولا مَن يُرجِّح مسائل الخِلاف، وما سبب ذلك إلا أنَّهم إنما حصَّلوا ألفاظاً متحجِّرة اصطلحوا أنْ يسمُّوها عِلماً وهم يدرسونها وما يشعرون بعنوانِها وغايتها والقصد منها.

ويُؤكِّد الشيخ على أنْ يصير التعليم في هذه المرتبة رامياً إلى تقوية التفكير والجمع والتحليل، وهو غاية سامية ينبغي أنْ نهدفَ إليها دائماً[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: 127.

(2) نفس المصدر السابق.

– ثالثاً: غياب الحفظ في المرحلة الابتدائيَّة:

يرى الشيخ أنَّ الاعتناء بالحوافظ أمرٌ لازم في المرحلة الابتدائيَّة؛ لأنَّ الحوافظ إذا لم تعد بالعمل تضاءلت قوَّتها، وهي في هذه المرحلة أكثر استعداداً للتقبُّل والتزوُّد بالمعلومات، فينبغي تدريبها وإيلاؤها العناية اللازمة لها، وهذا الرأي يميلُ إلى المنهج التربويّ القديم الذي كان يعوِّل على الذاكرة ويهمل المَلَكَات الأخرى.

والرأي الراجح العدل بين جميع المَلَكَات؛ لأنَّها جميعاً تخدم قضية التفكير وتعوِّده على اكتشاف الحقيقة وتعدُّه للحياة إعداداً مناسباً.

– رابعاً: عدم مراعاة المصالح الصحيَّة:

وهي ملاحظة متطورة تواكب دعوة أساليب التربية الحديثة التي تُؤَكِّد على مراعاة المصالح الشخصيَّة الصحيَّة للمتعلِّم؛ ففي الحديث: «إنَّ لبدنك عليك حقاً»، وقد قيل: »العقل السليم في الجسم السليم»، وقال الفيلسوف الفرنسي بونالد[1]: «الإنسان عقل تخدمه أعضاء»، والإنسان خُلِقَ ليعلم ويعمل، فالعلم بالعقل والعمل بالبدن، وهما متكافئان في وجوب المحافظة عليهما.

والشيخ لا يرى الاعتناء كافياً بالمصالح الصحيَّة للمتعلِّم في نظم التعليم الإسلامي، ويرى أنَّ أشغال التلامذة ومجالسهم ومساكنهم ومحل درسهم كلُّ ذلك قاضياً بإنهاك قواهم القويَّة؛ مِن ذلك التعليم بعد الأكل، وتقليل الحركة

(1) Louis Gabriel Ambroise de Bonald (1754 – 1840 A.D.)

والمشي والعمل خصوصاً في وقت الشتاء، وإكثار الدروس المقتضي كثرة النَّصَب في حفظ المتون ومراجعتها[1]، وقد راعى الشيخ ابن عاشور هذه المصالح الصحيَّة للطلاب عند إشرافه.

– خامساً: الجري وراء الشهادة من غير تحصيلٍ علميّ:

لاحظَ الشيخ ابن عاشور ظاهرةً شاعت بين المتعلِّمين في عصره تتمثَّل في تفكير التلامذة منذ الابتداء للاستعجال لتحصيل الشهادة، من غير تفكيرٍ في الأهمِّ من ذلك وهو الكمال العلميّ، وهذا بسبب ما تُحشى به عقولهم من أحاديث القاصرين من أوليائهم المُرغِّبة في الوظائف الدولية.

هذا الجري وراء الشهادة للحصول على الوظيفة يجعل التلامذة يتهافتون لقطع ما يعترض سبيلهم من المراحل، ويبتهجون بإتقان ما خُطِّط لهم من البرامج، ظانِّين ذلك غاية الكمال وأنَّهم لا يُدانيهم في شرفه أحد، ولذلك يخرجون بعداءَ عن فكرة الإصلاح وفي إدراك محاسن الأحوال ومساوئها، وعن الاستعداد للحاق بأساطين الأُمَّة، وبعبارةٍ جامعة يخرجون ضِعاف البصائر ضيِّقي الأفكار. وهذا النقص من الأمراض التي قتلت الهِمَّة العلميَّة في طلبتنا وجعلتهم يحرصون على نَيلِ الشهادة طلباً للوظائف، فانعدمت الهِمَم العلميَّة وانحصرَ التعليم في تخريج موظفين يسدُّون النقص، فغابَ التجديد في العلوم والابتكار في المسائل وتقاعست الهِمَم وتوانت، وصار الاجتهاد حفظاً

(1) نفس المصدر السابق: 130.

وترديداً. إنَّها العلل التي تعاني منها مجتمعاتنا الإسلاميَّة قد شخَّصها الشيخ ابن عاشور وأظهرها ونبَّه عليها، ليقعَ تجنُّبها.

إنَّ الفِكر التربويّ قد امتازَ بالتطوُّر والنقد للأوضاع السائدة في عصره، وقد حاولَ مِن خلال إشرافه على جامع الزيتونة أنْ يقدِّم بديلاً تربويًّا عصريًّا، ولكنَّه اصطدمَ بمُعارضين لفكرته الإصلاحيَّة، فنفَّذ بعضاً منها وبقي الآخر مشروعاً نظريًّا دون تطبيق.

- وصف إجمالي لحال التعليم في عصر الشيخ:

أجمَلَ د. بلقاسم الغالي وصف حال التعليم في عصر الشيخ ابن عاشور من خلال استقراء ما أورده في كتابه (أليس الصبح بقريب)، فجاء على النحو التالي:

- أولاً: أحوال التلاميذ في عصر ابن عاشور:

يصف الشيخ أحوالَ التلاميذ في عصره فيقول: «أمَّا حضورهم الدروس فعلى الكيفيَّة المتعارفة بهيئة الحِلَق المحيطة بالمُدرِّس، وقد يكثرون في بعض الدروس فيكون منهم في الدرس أكثر من مائة، وذلك يُفضي إلى تبادرهم لحَوزِ البقاع كلّ يوم، فيضيعُ وقت حصة الدرس والشيخ يدعوهم إلى الهدوء بالرغبة والرهبة»[1].

ويرى الشيخ أنَّ نسبة النَّباهة في تلامذة عصره قليلة بسبب إهمال التمرين وترك مراجعة ما يقرؤونه قبل الدرس وبعده، وترك مطالبتهم باستذكار ما تعلَّموه،

(1) نفس المصدر السابق: 158.

وترك تكليفهم بحفظ المتون حفظاً جيّداً، وترك تعويدهم على فهم المتن الذي يحفظونه، فإنَّك لتسأل التلميذ عن المسألة فيعجز عن الجواب ويتذكَّر عبارة المتن ولكنَّه يبقى يلوكُها ولا يكادُ يُبين عن المراد منها.

والشيخ يُثني على التلامذة الذين يَرِدون إلى الجامع بعد أنْ قرؤوا خارج الحاضرة، فقد أظهرت تجربة الاختبار أنَّهم أشدُّ نباهةً وإتقاناً لِمَا علموه وكفاءةً للتقدُّم وأحسن تحصيلاً مِن أهل تلك المراتب من الذين قرؤوا بالجامع الأعظم، ولهذا أسباب كثيرة محل شرحها غير هذا الموضع[1]، وقد أغفلَ الشيخُ شرحها لما في ذلك من إثارةٍ للحساسيات بين أبناء تونس العاصمة وغيرهم من أنحاء البلاد التونسية ممن كانوا يسمون بـ (أهل الآفاق) الذين أشادَ الشيخ بهم.

إنَّ هذا الوصف الدقيق لأحوال التلامذة في عصر ابن عاشور يكشف عن رصدٍ للأحوال التربويَّة التي كانت سائدةً في وقته ويُبيّن بوضوحٍ وضع التعليم في الجامع الأعظم وفروعه، بل إنَّ هذا المصدر الهامّ يعتبرُ أهمّ وثيقةٍ تكشفُ وضع التعليم الإسلاميّ وظروفه في عصره.

– ثانياً: التأليف في العلوم:

أعطى الشيخ أهميةً بالغة للمؤلَّفات التي تُدرَّس، أو (الكتب المقرَّرة) كما يُقال، فهي المعلِّم الأوَّل للتلميذ، والفاعل القوي في نفسه، وعلى مرتبتها تكون نفوس التلامذة وهي المذكِّر المرشد للمدرِّس.

(1) المصدر ذاته: 158 – 159.

كما أعطى أهميةً لإصلاح التآليف؛ لأنَّ إصلاحها هو وحده المرجو لإصلاح تلامذتنا حتى ننشئ منهم معلِّمين أكفاء للمستقبل، قال: «أمَّلت العلوم مِنَّا إصلاحاً لها، فنظرتْ إلينا نظرَ الأسير لفاديه والمظلوم لناصره، وإصلاح التآليف هو الخطوة الأولى، بل هو نصف المسافة من إصلاح العلوم، فَما العلوم إلا معاني التآليف، وإنَّها لا ترجو تقدُّماً ما دامت محبوسةً في تآليفها القديمة التي وقفت بها عند القديم منذ ستمائة سنة».[1]

ولقد استمسكت الأمَّة الإسلاميَّة بمؤلَّفاتِها القديمة، وأحكمت غلق أبوابها عليها حتى لا ترى التطوُّر، فصارَ ابنُ القرن الرابع عشر الهجري لا يحسُّ بالتقدُّم والرُّقي، وهو في معارفه وعلمه وتفكيره كأنَّه من أهل القرن التاسع أو العاشر الهجري، فاستكانت النفوس إلى التقليد وصارَ الاعتقادُ جازماً بعصمة الأقدمين واستحالة البلوغ إلى مبالغهم.

وهكذا كانوا يأخذون كلام الصالحين فيقضون به على العلم، وربما نزَّلوه منزلة ما لا يقبل الطعن، وليس معنى هذا أنَّ الشيخ ابن عاشور يحطُّ من قَدرِ الأقدمين الصالحين من المؤلِّفين، بل قال: إنَّه يُعظِّمهم ويُجلُّهم ولكنَّه لا يعتقد فيهم العصمة أبداً، فهم يقرؤون ما نقرأ، ويفهمون كما نفهم، يقولُ في ذلك: «وأنا من الجانب الذي أُجلُّهم به وأنظرُ إليهم منه نَظَرَ المبهوت لأنَّهم الذين فنَّنوا العلم وقعَّدوا القواعد، وأتوا في الزمنِ الوجيز بالمطلبِ العزيز، بفضلِ إقبالهم على العلم وانقطاعهم عن زخارف الدنيا، ونصحهم لِمَن بعدهم، مِن ذلك

(1) المصدر ذاته: 160.

الجانب نفسه أقول: إنَّهم غرسوا لننمّي وأسَّسوا لنُشيّد، وابتدأوا لنزيد، ولستُ مقتدراً أنْ أقنع نفسي بأنَّهم كانوا في درجةٍ واحدةٍ من العلم، بل منهم العالِم المنشئ لقواعد الأصول، ومنهم الذي ما اشتهر اسمه إلا بفضل عوارض»[1].

وفي بحثٍ مفصَّلٍ مدقَّق يذكر الشيخ مسيرة الحركة العلميَّة في البلاد الإسلاميَّة، ويرى أنَّ العلوم الإسلاميَّة اتَّسعت فمالَ العلماء إلى التنقيح والاختصار، ولمَّا آذنت الدولة الإسلاميَّة بالسقوط وشُغِلَ النَّاس عن طلب العلم والحكمة بالوسواس والفتنة خَبَتْ مصابيحُ العلم، وانقسمت الدولة وتفرَّعت التآليف فانحصرت في خمسة مدارس: المدرسة المشرقيَّة، والمدرسة المصرية وتشبهها البلاد الشامية، والمدرسة الأندلسية، والمدرسة القيروانيَّة، والمدرسة المغربيَّة أو الفاسيَّة، وعن إصلاحهم نشأت نهضة تلمسان في عصر ابن مرزوق والعقباني والشريف التلمساني[2].

وصارَ لكلِّ مدرسةٍ خصائص ومميزات؛ فاختصت المدرسة المشرقيَّة بجودة البحث وعلوّ الإدراك تبعاً للحضارة، وأغرقَ أهلها في البحث والتحقيق، فأفادت تآليفهم واتَّسع العلم بهم وبلغ من الضبط عندهم مبلغاً عظيماً، فكان الناس ينظرون إلى تآليف المشرق نظرَ المشوق يتهافتون لتحصيلها، ولكنْ نشأ لهم من ذلك ولعٌ بحبِّ الاختصار وبكثرة البحث فخرجوا من جادَّة العلم إلى مناقشات اللفظ والتعقيدات.

---

(1) المصدر ذاته: 163.

(2) المصدر ذاته: 164.

أمَّا القيروان وأفريقية فقد أخذت عصرين، العصر الأوَّل: عصر الفقه وكانت فيه من أشهر العواصم، لقد كانت تُشدُّ إليها الرحلة من الأندلس والمغرب الأقصى، وكانت التآليف فيها نقليَّة، ثمَّ جاءها عصر النظر بعد شباب الأندلس، فانقلبت الأندلس أهلاً ولم تلبث إلى أنْ خلفتها تونس، فاقتبست من الأندلسيين وقد ظهرت فيها تآليف ابن عرفة وابن رشد.

والأسلوب التونسي في التآليف مزيجٌ من الأسلوبين القيرواني والأندلسي من عصر المازري إلى حدود القرن العاشر الهجري، إذ أدخل فيه من الأسلوب المشرقي، ولكنَّ هذا القرن قلَّت فيه التآليف التونسية. والأندلس أحسنُ البلاد تأليفاً، أمَّا المغرب الأقصى فاستبقى الطريقة النقليَّة، وانصرافُ علمائِه موجَّهٌ إلى علم الفقه، فمعظم تآليفهم فقهيَّة وسائر العلوم الأخرى غير معتنى بها إلا نادراً.

ويمضي ابن عاشور في تحديد خصائص هذه المدارس مع أمثلةٍ وتحليلات لكبار المؤلِّفين في تاريخ الكتابة في العلوم الإسلاميَّة، ونتيجةً لكثرة هذه المدارس كثرت التآليف واتَّسعت في خمسمائة سنة، وتعدَّدت النِّحَل، ولم يهتدِ المسلمون أمام هذه التيارات إلى تقييد طائفةٍ من العلماء تختارُ كُتُباً من بين تلك الكثرة، فكان من هذه الكثرة أنْ عجزت القدرات عن تحمُّلها، ودعت الحاجة إلى الأخذ من جميعها، فطفقَ كلُّ أحدٍ يختصرُ ويزيد وينقص على ما يبدو له.

ويتساءل الشيخ ابن عاشور: ماذا نشأ عن ذلك؟ ويُجيب بأنَّه نشأت عقدة لسان واستتار المسائل تحت الألفاظ، واشتغال المؤلِّفين عن النقد والعناية

باختزالِ حرفٍ أو نقص كلمة، كما فعل خليل وابن السبكي والمحلي والخونجي، حتى صارَ الكاتبون ينتقدون صاحب الاختصار في بعض التراكيب بأنَّه لو قال كذا لكان أخصر، فضعُفت الأفهام وتهيَّأت لشرح المغلقات، وإضاعة بقية الأوقات، والخصومة في معاني الكلمات؛ هل تدلُّ على ما قصده المؤلِّف أو لا؟ فَمِن قائلٍ نعم ومِن معترضٍ بلا، ومِن ناقدٍ للاعتراض ومنتصر، وبعد طول الزَّمان صرفت الأذهان عن الفائدة، ونسي المؤلِّفون خطتهم، فأصبحت لا ترى التآليف إلا مناقشات وخصومات على الألفاظ والعبارات، وفي ذلك يضيع عمرُ الطالب ويخورُ فِكره، ويصبح رجلاِ قادراً على المكابرة واللجاج بغير حِجاج، فماذا بقي للعلماء من مجدهم القديم؟ انحصرت دائرة التآليف في نقل ما قال المتقدِّمون، ترى تأليفاً يظهرُ بعد آخر ولا تجدُ شيئاً جديداً أو رأياً أو تمحيصاً"[1].

هذا نقدٌ من الداخل يقدِّمه الشيخ ابن عاشور لكتب الثقافة الإسلاميَّة التي كانت متداولةً بجامع الزيتونة، وخصائص التيارات الفكريَّة في البلاد الإسلاميَّة من مغربيَّةٍ إلى أندلسيَّة وتونسيَّة، وما يتميَّز به كلُّ اتجاهٍ من هذه الاتجاهات.

– ثالثاً: إصلاح التآليف:

إذا كان هذا منهج التآليف التي بأيدي الطلبة، فَما الطرق المنهجيَّة التي دعا إليها الشيخ؟

---

(1) المصدر ذاته: 167.

قدَّم ابن عاشور نقداً تحليليًّا للمؤلَّفات كما رأينا، وانتهجَ منهجاً علميًّا لبلوغ الغاية، ومِن وجوه النقد التي أشارَ إليها وأوصى بتجنُّبِها:

أ. ترك التطويلات في التآليف، وتجنُّب التخليط والاستطراد، وقد كانت المؤلَّفات المقرَّرة محشوَّةً بهذه الهنات، يكون الطالب يقرأ الكتاب في مبادئ النحو مثلاً فلا يلبث أنْ يجد نفسه في نوادر ذلك العلم، فهذا كلُّه يجبُ أنْ يُدحَض، فلا المنطق يؤتى به في مبادئ علم الأصول، ولا فلسفة الأجرام في باب التشبيه، ولا الحواس الباطنة في الفصل والوصل من البلاغة، ولا التصوُّف في الفقه.

ب. تجنُّب التأويل للتراكيب الفاسدة، ولابدَّ أنْ تُختصر العبارات الأصليَّة لسهولة الحفظ مع وفائِها بمعناها ونُطيل الشرح لتوسيع الفهم.

وأمَّا المنهج العلميّ الذي ارتآه الشيخ وأكَّد عليه لإصلاح التآليف فيتمثَّل في تأسيس لجنة من العلماء لتنظر في خلل الكتب وإصلاحها وإحياء ما اندرسَ منها، ولترجمة ما نحتاجهُ من كتب العلوم التي تقدَّمت تقدُّماً واسعاً على ما تركها فيه سلفنا؛ مثل كتب الهيئة والطبيعة والجغرافيا وطبقات الأرض، مع مراعاة المطابقة لمقتضى حال العصر من بثِّ الأخلاق والآداب الجميلة التي أصبحنا في احتياجٍ لها، مع التحريض على العمل، وقد تضمَّنت اقتراحات ابن عاشور العلميَّة نقائص مجتمعاتنا مثل جودة التآليف المدرسيَّة والجامعيَّة وترجمة الكتب العلميَّة التي نحتاجُ إليها لمواكبة العصر، مع بثِّ الأخلاق الفاضلة والتحريض على العمل المنتج.

وإذا قيَّمنا هذه الآراء وجدناها متطوِّرة، بل سابقة لعصرها؛ فاقتراح الشيخ بإنشاء مجلَّة تتبارى فيها أقلامُ الطلبة ويتعوَّدون فيها على التحرير والابتكار ولجان التآليف، جميعها أفكار إصلاحيَّة مبتكرة، ونقد المؤلَّفات يدلُّ على فِكر الشيخ المتطور، وضرب الأمثلة يكشفُ عن اطلاعه الواسع ونظره الثاقب.

- إصلاح العلوم في نظر ابن عاشور:

العلوم الإسلاميَّة ذات صلة عضويَّة بالإصلاح التربويّ الذي دعا إليه الشيخ ابن عاشور، لذلك جاء وصفه لفلسفة العلوم وأبعادها العقليَّة والتربويَّة، وتحدَّث عمَّا طرأ عليها من أسباب الانحطاط وربطَ ذلك بتأخر الأمَّة الإسلاميَّة؛ لأنَّ العلوم مرآة صادقة تنعكسُ عليها علوم الأمَّة ونشاطها. وقد ذكر أسباباً عامَّة لتأخُّر العلوم منها:

أ. الفتن التي استأصلت الدولة العباسيَّة، وأضرمت ناراً في العالَمِ كلِّه، فأذوت العلوم في العالَمِ الإسلاميّ، ووقفَ كلُّ علمٍ عند الحدِّ الذي تركه المتقدِّمون.

ب. اشتمال العلوم على مسائل لا حاجةَ إليها ولا فائدة تُرجَى منها، وإهمال مسائل مهمَّة ذات جدوى، وبين الزيارة والنقصان معادلة لا يُوفِّق بين طرفيها إلا مَن كان ضَليعاً في فَنِّه.

ج. غياب الاختصاص، وطموح النفوس إلى المشاركة في جميع العلوم، هذا الأمر حالَ دون التحقيق في علمٍ من العلوم؛ لأنَّ الزَّمان أقصر من استيفاء كلِّ العلوم، ولا سيما مع اختلال التعليم.

د. الانبهار بآراء المتقدِّمين كيف كانت وتنزيهها عن الخطأ، فانحصرَ العلمُ في نقل واحدٍ عن الآخر، والقواعد العلميَّة التي أسَّسها لنا السلف إنَّما جُعلت لتخدم الفِكر وتُكسبه مِراناً ومِراساً. أمَّا إذا استبعدت هذه القواعد الأفكارَ وقيَّدتها وأحكمت أمرها فهذا خطأ في النظر وخطر على العقل؛ لأنَّه متى اقتصرنا في تعليمنا على ما أسَّسه سلفُنا ووقفنا عند ما حدَّدوا رجعنا القهقرى في التعليم والعلم.

هـ. التقليد: وهو ناشئ عن الأسباب الماضية، فإنَّ تداخل العلوم وحبّ المشاركة في جميعها وحرمة الأقدمين، لابدّ أنْ يسلب من النفوس حكم النقد فتفيء إلى التقليد.

وتلك شنشنة قديمة أضرَّت بالعلوم الإسلاميَّة، وسلبت الحرية عن العلوم بسبب قصر العلم في نظر الجمهور على نقل كلام السلف، وانحصار التآليف في نقل ما مضى من غير بحث، وهذا من صَنيع المتعصِّبين لتمجيد آراء أساتذتهم فعدُّوا فهم كلامهم نهاية العلم، وصارت مخالفتهم معدودة من الهوس، فلم يسع الناس إلا إلى خدمة كلامهم وتطويل المسودَّات بالمناقشات في أفهامهم؛ ولذا أصبح المتنكِّر عرضةً للنكاية أو الاضطهاد ناهيك بالمعترض على بعض المتقدِّمين.

و. سوء التفاهم الذي كان بينهم في خلافيَّاتهم وسرعتهم إلى نبز المخالفين، وإشاعة التشنيع والسباب حتى يصبح رجوع الغالط إلى الحقّ أشدّ عليه من وقع الحسام؛ لأجل الحميَّة التي تشبّ من اعتراض المعترضين، وبذلك تباعدت الآراء بدلاً من التفاهم ونشأت الشِّيَع، وحدث التصميم على الباطل.

هذه الأسباب العامَّة التي ذكرها ابن عاشور لتأخُّر العلوم الإسلاميَّة تكشفُ عن الإلمام الواعي بأهداف هذه العلوم وغاياتها، وسبره لأغوارها والنقد التحليلي لمحتواها، وفي تحليله لعوامل تأخُّر العلوم تدرك بجلاء فهم الشيخ لمبادئ الإسلام ووعيه لمصادره ونقده لها وما حفلت به من توجيهاتٍ غير راضٍ عنها[1].

(1) الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (حياته وآثاره): 188 – 202.

محمَّد أسد

يعتبر المفكّر والرّحالة النمساوي محمَّد أسد (ت: 1992م) واحداً من أعظم المفكّرين الذين اشتغلوا بقضايا الإسلام الكبرى جهاداً وتأليفاً في القرن العشرين، وقد ظهرت عنايته بتتبُّع أسباب تأخُّر المسلمين في كتابه: (**الإسلام على مفترق الطرق**) الذي أصدره أوّل مرّة سنة 1934م.

صارَحَ محمَّد أسد المسلمينَ في هذا الكتاب بحقائق قلَّ أن يجرأ غيره على التصريح بها؛ إنَّه درسٌ دقيق لحالِ المسلمين اليوم من الناحية الثقافيَّة والروحيَّة، وهو يدعو المسلمين إلى العودة إلى حقيقة دينهم؛ لأنَّ الدِّين الذي استطاعَ أن يجمع العرب منذ أربعة عشر قرناً، ويجعل منهم قوّةً عظيمة في السياسة والعلم والاجتماع يستطيع أن يقدِّم لهم اليوم ما قدَّم بالأمس؛ دستوراً للحياة لا يجدون مثله في النظم التي تعرّضت منذ فجر التاريخ حتى اليوم لتهذيب البشر[1].

كان مولده بإحدى مدن الإمبراطوريَّة النمساوية – المجريَّة عام 1900م، واسمه الأصلي: **ليوپولد ڤايس**[2] إلا أنَّه ما لبث أنْ غيّر اسمه عقب اعتناقه الإسلام عام 1926م، بدأ دراسته في جامعة ڤيينا لكنَّه قرّر الانقطاع عن الدراسة ليرحل أوائل العشرينيات إلى مدينة برلين حيث التحق بالأوساط الثقافيَّة المنشغلة حينئذٍ بالتطلُّع إلى الشرق بوصفه حُلماً.

---

(1) من مقدمة ترجمة د. عمر فَرُّوخ لكتاب (الإسلام على مفترق الطرق).

(2) Leopold Weiss

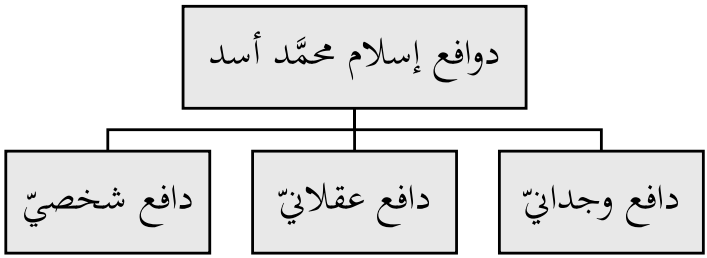

وكان الشيخ صَالِح الحصيِّن[1] قد بحث في أسباب إسلام محمَّد أسد، فوجدها كلها ثلاثة دوافع رئيسيَّة: دافعٌ وجدانيّ يتعلَّق بالعاطفة والشعور، ودافعٌ عقلانيّ يتعلَّق بالمعرفة والاطّلاع، ودافعٌ نابع من تكوين شخصيَّة محمَّد أسد نفسه؛ «فقراءة تاريخه تدلُّ أنَّه – فعلاً – كان عنده من الصِّغر الإحساس، وإنْ كان غامضاً، بالحاجة إلى الإيمان، والحاجة إلى إيجاد إحساسٍ يعطيه الشعور بالسَّلام مع نفسِه، ومع البيئة الخارجيَّة، ويعطيه تفسيراً معقولاً للحياة.

وبالنسبة للعامِل الثاني، فلا شكَّ أنَّ محمَّد أسد أُتيح له الاطّلاع على التراث الإسلاميّ بعد معرفته بالعربيَّة والفارسيَّة أكثر مِمَّا أُتيح للكثيرين، واجتمع

---

(1) **صالِح بن عبدالرحمن الحصيّن:** من مواليد محافظة شقراء بالمملكة العربية السعودية عام 1351هـ/1932م، تخرَّج من كلية الشريعة بالمملكة سنة 1374هـ/1955م، حصل على الماجستير في الدراسات القانونية من معهد الدراسات العربيَّة بالقاهرة سنة 1380هـ/1960م، بدأ حياته العلميَّة في التدريس ثمَّ أصبح مستشاراً قانونيًّا في وزارة المالية السعودية، عمل رئيساً عامًّا لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، كما كان عضواً في المجلس الأعلى للدعوة والإرشاد، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية تقديراً لدوره في إبراز صورة الإسلام الصحيحة سنة 1426هـ/2006م، توفِّي – رحمه الله – سنة 1434هـ/2013م.

والتقَى بالشعوب وبالزعماء وبقادة الفِكر، واطّلع على مختلَف التيارات والاتجاهات، فلا شكَّ أنَّه عرف الإسلام معرفةً حقيقيَّة.

والعامِل الثالث أو الدافع الثالث الشخصيّ، حيث كان الرجل مِمَّن لا تنقصه الشجاعة والجرأة واستقلال الفِكر؛ فكلُّ هذه الأمور كان الإنسان في حاجةٍ إليها لكي يقتحم كلّ هذه الصعوبات»[1].

بعد اعتناقه الإسلام، سافرَ محمَّد أسد لأداء فريضة الحج، واستقرَّ في المدينة المنورة وتعرّف على مؤسِّس السعودية وأوّل ملوكها عبد العزيز آل سُعود (ت: 1953م) وعَمِلَ مستشاراً له، وقد أكسبته هذه الفترة التي قضاها بين مدن الحجاز اطمئناناً قلبيًّا بشيءٍ من البيئة الأصليَّة للدِّين الذي قام النبيُّ ﷺ بالدعوة إليه فيها، وبما أنَّ الحجاز ملتقَى المسلمين من جميع الأقطار؛ فقد تمكّن محمَّد أسد من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينيَّة والاجتماعيَّة التي تسود العالَمَ الإسلاميّ في تلك الأيام.

وقد صرَّح أنَّ هذه الدراسات والمقارنات التي أجراها خلال تلك الفترة، قد خلقت فيه العقيدةَ الراسخة بأنَّ الإسلام من وجهتيه: الروحيَّة والاجتماعيَّة لا يزال، بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخُّر المسلمين، أعظم قوّة نَهّاضَة

(1) كان ذلك خلال محاضرةٍ ألقاها الشيخ الحصيّن في ندوةٍ علميَّة بعنوان (محمَّد أسد: حياةٌ للحوار)، نظَّمها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة بالرياض، بالتعاون مع سفارة النمسا بالمملكة، وذلك خلال المدَّة (7 – 5/8 – 1432هـ) الموافق (11 – 4/12 – 2011م). انظر: المجموعة الكاملة لأعمال الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، تحرير: اللجنة العلميَّة بمركز تكوين، تكوين للدراسات والأبحاث، لندن، الطبعة الأولى، 1444هـ/2022م، 4/399 – 400.

بالهِمَم عرفها البشر، وهكذا تجمَّعت رغباته كلّها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثِهِ من جديد[1]. وخلال وجوده بالهند، ساهمَ مع شاعر الإسلام العلامة محمَّد إقبال (ت: 1938م) في تأسيس دولة باكستان الإسلاميَّة التي كرّمته بعد قيامها بمنحِه جنسيّتها، وتعيينه بمناصب مختلفة كان آخرها وزيرها المفوّض بهيئة الأمم المتحدة.

وفي عام 1952م، استقالَ من وظيفته وغادرَ نيويورك إلى سويسرا حيث بقي عشر سنوات تفرّغ فيها للكتابة والتأليف، ثمَّ رحلَ إلى مدينة طَنجة المغربيَّة وقضى فيها عشرين عاماً.

وقد كان اهتمامه المبكِّر بالشرق والعرب عامِلاً رئيسيًّا في تغيير مجرى حياته وقناعاته وأفكاره؛ فبعد زيارته لفلسطين عام 1922م – وكان لا يزال يهوديًّا – كتب سلسلة مقالات اعتبرها اليهود معاديةً للساميَّة؛ حذّر فيها العرب من مخطَّطات المهاجرين اليهود، وفي عام 1926م حدث التحوُّل الأبرز في حياة ليوپولد ڤايس باعتناقه الإسلام في أحد أقدم مساجد مدينة برلين الألمانيَّة.

انبرى محمَّد أسد للدفاع عن الإسلام والردّ على الشبهات المثارة حوله، وحاول تجسير الهوّة بين الحضارتين الإسلاميَّة والغربيَّة، حتى وصفه المفكّر الألماني المسلم مراد هوفمان[2] بأنَّه «**هديةُ أوروبا إلى الإسلام**»[3]، وقد جاء

---

(1) الإسلام على مفترق الطرق: 19.

(2) Murad Wilfried Hofmann (1931 – 2020 A.D.).

(3) نُشرت مقالة بالعربية تحت هذا العنوان في صحيفة «الشرق الأوسط» اللندنية، عدد 8 يوليو 2011م، وجاء فيها أنَّ هذا مما وصفه به الدبلوماسي والمفكّر الألماني المسلم مراد هوفمان.

تكريمه عام 2008م عندما أطلقت العاصمة النمساويَّة اسمه على الساحة الواقعة أمام مبنى الأمم المتحدة في ڤيينا[1].

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

عُرِف محمَّد أسد بسيرته الذاتية (**الطريق إلى مكّة**) التي تحكي قصّة ذلك الشاب الذي ترك ديانته اليهوديَّة واعتنقَ الإسلام عن قناعةٍ تامّة، بعد أنْ خَطَا خطواتٍ طويلة في طريقه للبحث عن الحقيقة وسط رُكام الباطل الذي أثارته الحربُ العُظمَى[2] آنذاك، إلا أنَّ تجربته الفكريَّة لم تتوقّف عند سيرة حياته المذكورة، لكنّها تميّزت بالشمول والإحاطة لكافَّة الجوانب الحضاريَّة التي عاصَرها بحُكم كثرة اتصاله بالساسة وأصحاب القرار في الشرق والغرب.

يؤكّد ذلك ما أشارَ إليه الباحث جوزيف لينهوف[3] مِن أنَّ محمَّد أسد «وثيقَ الصِّلةِ بعصرِنا؛ إذ تُثير حياتُه وفِكرُه موضوعاتٍ من قَبيل الهويَّة والانتماء والإصلاح ومستقبل الإسلام، **وهي الأمور التي لا تقلُّ أهميّتُها في عصرنا عمَّا كانت عليه في زمانه**»[4].

---

(1) «Muhammad Asad Platz».

(2) الحرب العالَميَّة الأولى (1914 – 1918م).

(3) حاصل على الدكتوراه في الدراسات الإسلاميَّة من جامعة أدنبره 2020م، لديه اهتمامٌ خاص بمجالات اللاهوت السياسي والإحياء الإسلامي، وخاصة الفكر الإسلامي في القرنين 19 و20، رئيس تحرير في معهد الدراسات الأصوليَّة المتقدمة، له عناية بدراسة التجربة الفكريَّة لمحمَّد أسد.

(4) محمد أسد: المفكّر المجهول، جوزيف لينهوف، ترجمة: إسلام أحمد، مركز نهوض للدارسات والبحوث، 9 يناير 2023م، ص 4. مصدر المقال الأصلي: مجلة «المسلم الناقد» (Critical Muslim) [اللندنية]، العدد: 40، خريف عام 2021م.

فنجده قد أشارَ إلى أنَّه في هذا العالَمِ المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافيَّة المتعارضة، لا يستطيع الإسلام أنْ يظلّ شَكلاً أجوف؛ «لقد انقضَى نومه السّحريّ الذي دامَ أجيالاً فيجب أنْ ينهضَ أو أنْ يموت.

إنَّ المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي مشكلة مسافر وصل إلى مفترق طرق؛ إنَّه يستطيع أنْ يظلّ واقفاً مكانه، ولكنَّ هذا يعني أنَّه سيموتُ جوعاً، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان: (**نحو المدنيَّة الغربيَّة**)، ولكنَّه حينئذٍ يجب أن يودّع ماضيه إلى الأبد، أو أنَّه يستطيع أنْ يختار الطريق التي كُتِبَ عليها: (**إلى حقيقة الإسلام**). إنَّ هذه الطريق وحدها هي التي تستميلُ أولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطوُّر نحو مستقبلٍ حيّ»[1].

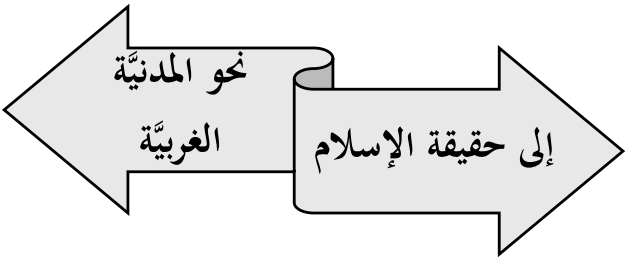

لم يخلط محمَّد أسد بين الإسلام والمسلمين، وقد رأينا تقديره العظيم للإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً، وهو ما جَذَبَه إلى اعتناقه سنة 1926م، فنجده قد أدركَ مبكّراً أنَّ المسلمين لا يتلزمون بالإسلام التزاماً كاملاً، وإنَّما

(1) الإسلام على مفترق الطرق: 87.

يلتزمون ببعضِه ويهجُرون بعضه، وقد أحزنه ذلك كثيراً، وعبَّر عن عدم رضاه عن تلك الأوضاع[1].

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

واجهَ محمَّد أسد عدَّة إشكالاتٍ عندما وضعَ أحوال المسلمين المتردّية تحت مِجهَر التعاليم الدينيَّة للدِّينِ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[فصلت: 42] ، ونجده قد أشارَ إلى تلك المواجهة عندما تركَ النمسا في عام 1922م ليتجوّل في أفريقيا وآسيا بصفتِه مراسلاً لبعض أمّهات الصّحف الأوروبيَّة، ومنذ ذلك الحين قضَى معظم أوقاته في الشرق الإسلاميّ، فهو يصف تلك الفترة بقوله: «لقد كان اهتمامي بالشعوب التي احتككتُ بها في أوّل أمري اهتمام رجل غريب، لقد رأيتُ نظاماً اجتماعيًّا ونظرةً إلى الحياة تختلفُ اختلافاً أساسيًّا مِمّا هي الحال في أوروبا، ومنذ البداءة الأولى نشأ في نفسي ميلٌ إلى إدراكٍ للحياة أكثر هدوءاً — أو إذا شئت أكثرَ إنسانيَّة –، إذا قِيسَت تلك الحياة بطريقة الحياة الآلية العجلَى في أوروبا، ثمَّ قادَني هذا الميل إلى النظر في أسباب هذا الاختلاف.

وهكذا أصبحتُ شديد الاهتمام بتعاليم الإسلام الدينيَّة، إلا أنَّ هذا المَيْل لم يكن في الزمن الذي نتكلّم عنه، كافياً لجذبي إلى حظيرة الإسلام،

(1) جاذبيَّة الإسلام الروحيَّة: لماذا أسلمَ هؤلاء؟، د. أحمد عبد الرحمن، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م، ص 34.

ولكنَّه كان كافياً لأنْ يعرضَ أمامي رأياً جديداً في إمكان تنظيم الحياة الإنسانيَّة مع أقلّ قدرٍ ممكن من النزاع الداخليّ وأكبر قدرٍ ممكن من الشعور الأخويّ الحقيقي. إنَّ الحياة الإسلاميَّة في الواقع تظهر، على كلّ حال، في أيامنا الحاضرة بعيدةً جدًّا عن الإمكانيات المُثلى التي تقدّمها التعاليم الدينيَّة في الإسلام؛ **مِن ذلك مثلاً أنَّ كلّ ما كان في الإسلام تقدُّماً وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تَراخِياً ورُكوداً**، وكلّ ما كان في الإسلام من قبل كَرَماً وإيثاراً، أصبح اليوم بين المسلمين ضيقاً في النظر وحبًّا للحياةِ الهَنِيَّة»[1].

وبعد بحثٍ استغرقَ منه سنوات، وصَلَ محمَّد أسد إلى قناعةٍ بأنَّ الآراء الشائعة في الغرب عن الإسلام تتلخَّص فيما يأتي: (انحطاط المسلمين ناتجٌ عن الإسلام، وأنَّه بمجرد تحرّرهم من العقيدة الإسلاميَّة وتبنّي مفاهيم الغرب وأساليب حياتهم وفِكرِهم؛ فإنَّ ذلك سيكونُ أفضل لهم وللعالَم)، إلا أنَّ ما وجده من مفاهيم وما توصَّل إلى فهمِه من مبادئ الإسلام وقِيَمه أقنعه أنَّ ما يردّده الغرب ليس إلا مفهوماً مشوَّهاً للإسلام، فاتَّضح له أنَّ تخلُّف المسلمين لم يكن ناتجاً عن الإسلام، ولكنْ لإخفاقِهم في أنْ يحيَوا كما أمرهم الإسلام. ويمكن استعراض الأسباب التي أدَّت بهم لذلك الإخفاق من خلال النقاط التالية:

---

(1) نفس المصدر السابق: 16 – 17.

– ترك اتّباع روح التعاليم الإسلاميَّة:

كشف محمَّد أسد عن ذلك البَون الشاسع الذي وجده بين التعاليم الإسلاميَّة وواقع المسلمين في عصره، حتى تخيّل نفسه – من خلال تجربةٍ عقليَّةٍ بحتة – واحداً من المسلمين، لينكشفَ له ما رآهُ مِن حَلٍّ لتلك المعضلة

التي أرَّقَت مضجعه طويلاً، فيقولُ في ذلك: «**لقد تحقَّقتُ أنَّ ثمَّة سبباً واحداً فقط للانحلال الاجتماعيّ والثقافيّ بين المسلمين؛ ذلك السبب يرجعُ إلى الحقيقة الدالّة على أنَّ المسلمين أخذوا شيئاً فشيئاً، يتركون اتّباع روح التعاليم الإسلاميَّة، فنتجَ مِن ذلك أنَّ الإسلام ظلَّ بعد ذلك موجوداً، ولكنَّه كان جسداً بلا روح**، ثمَّ إنَّ العنصر الذي خلق قوّة العالَم الإسلاميّ من قبل هو المسؤول الآن عن ضعف المسلمين: فإنَّ المجتمع الإسلاميّ بُنِيَ منذ أوّله على أسسٍ دينيَّة، وضعْف هذا الأساس قادَ بالضرورة إلى ضعف البناء الثقافي فيه، وربما كان سبباً لاضمحلاله بالكليَّة»[1].

وهذا الذي دعاه لأنْ يُشفِق على الإسلام من أهله الذين رقَّ دينهم وتغيَّر حالهم بمرور الأيامِ والليالي إلى الضعف والهوان، فيقول: «.. وكنت كلما زدت فهمًا لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية وعظيم ناحيتها العلمية، ازددتُ رغبةً في التساؤل عمّا دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقاً تامًّا على الحياة الحقيقيَّة. لقد ناقشتُ هذه المشكلة مع كثيرٍ من المسلمين المفكّرين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (في الهند)، ومن البوسفور إلى بحر العرب، فأصبح ذلك تقريباً شجًى في نفسي طما في النهاية على سائر أوجه اهتمامي بالعالَم الإسلاميّ من الناحية الثقافيَّة، ثمَّ زادت رغبتي في ذلك شِدَّةً حتى إنِّي – وأنا غير المسلم – أصبحتُ أتكلّم إلى المسلمين أنفسهم مشفقاً على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم»[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: 17.

(2) نفس المصدر السابق: 18.

هذا الإشفاق الذي حمله الشاب النمساوي ليوپولد ڤايس في مقتبل عمره، هو الذي هيّأه لقَبول دعوة الإسلام في خريف عام 1925م عندما كان متواجداً في جبال الأفغان، إذ تلقّاه حاكم إداري شابّ بقوله: «**ولكنّك مسلمٌ، غير أنَّك لا تعرف ذلك مِن نفسِك**»، فكانت هذه الكلمات – على بساطتها فيما يبدو – سبباً في ميلِه إلى اعتناق الإسلام رسميًّا في العام التالي.

– الإعراض عن السُّنَّة النبويَّة

كان محمَّد أسد على وعي بمخاطر الإعراض عن اتّباع السُّنَّة النبويَّة في حياة المسلمين، وما سيؤول إليه ذلك الإعراض في زيادة تأخُّرهم؛ ذلك أنَّ هذه السُّنَّة كانت «مفتاحاً لفَهمِ النهضة الإسلاميَّة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، **فلماذا لا تكونُ مفتاحاً لفَهمِ انحلالنا الحاضر؟** إنَّ العملَ بسُنَّة رسول الله ﷺ هو عملٌ على حِفظِ كيان الإسلام وعلى تقدُّمه، وإنَّ ترك السُّنَّة هو انحلالُ الإسلام.. لقد كانت السُّنَّة الهيكلَ الحديديّ الذي قامَ عليه صَرحُ الإسلام، وإنَّك إذا أزلتَ هيكل بناءٍ ما، أفَيُدهِشُكَ أنْ يتقوّض ذلك البناء كأنَّه بيتٌ من وَرَق؟»[1].

وقد حَرِص على استعمال كلمة (السُّنَّة) بأوسعِ معانيها؛ على أنَّها المثال الذي أقامه لنا الرسول ﷺ من أعمالِه وأقوالِه، «إنَّ حياته العجيبة كانت تمثيلاً حيًّا وتفسيراً لِما جاء في القرآن الكريم، ولا يمكننا أنْ ننصفَ القرآن الكريم بأكثر مِن أنْ نتّبع الذي قد بلّغ الوحي».

(1) نفس المصدر السابق: 89.

ومِن جملة المعاني التي قصدها لـ (السّنّة): **معنى التوفيق التامّ بين الناحية الخُلقيَّة والناحية الماديَّة من الحياة الإنسانيَّة**؛ ذلك أنَّه سببٌ من الأسباب التي عملت على ظفَر الإسلام في إبّان قوّته أينما حلّ، «لقد أتَى الإسلام بالرسالةِ الجديدة التي لا تجعل احتقارَ الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة، تلك الخاصَّة الظاهرة في الإسلام تجلو الحقيقةَ الدالّة على أنَّ نبيّنا ﷺ كان شديد الاهتمام بالحياة الإنسانيَّة في كِلا اتجاهيها: في المظهر الروحيّ والمظهر الماديّ، وإنَّه لَمِنَ الجهل بالإسلام أنْ يحاول أحدُنا أنْ يوفّق بين أوامر للرسول ﷺ تتعلّق بأمورٍ تعبّديَّة روحيَّة خالصة، وبين غيرها مِنَ التي تتّصل بقضايا المجتمع وقضايا حياتنا اليوميَّة، وإنَّ القول بأنَّنا مجبورون على اتّباع الأوامر المتعلّقة بالنوع الأوّل ولكنّنا لسنا مجبرين على أنْ نتّبع الأوامر المتعلّقة بالنوع الثاني، إنَّما هو نظرٌ سطحيّ، وهو فوق ذلك مناهضٌ في روحه للإسلام مثل الفكرة القائلة بأنَّ بعض أوامر القرآن الكريم قد قُصِد بها العرب الذين عاصروا نزولَ الوحي، لا النُّخبة من الأكياس (الچنتلمان) الذي يعيشون في القرن العشرين، إنَّ هذا بَخْسٌ شديد لقَدْرِ النُّور النبويّ الذي قام به المصطفى ﷺ».

كما بيّن أنَّ أعمق معاني السّنّة: هو أنْ تقوم حياةُ المسلم على التعاون التامّ بين ذاته الروحيَّة وذاته الجسديَّة؛ «فإنَّ هداية نبينا ﷺ يجب أنْ تضمّ الحياة على أنَّها وحدة مركّبة، أي على أنَّها مجموع أعمق المظاهر الخُلقيَّة والعمليَّة والشخصيَّة والاجتماعيَّة»[1].

(1) نفس المصدر السابق: 90 – 91.

ومن أبرز مظاهر الخلل التي رآها محمد أسد باديةً للعَيَان؛ أنَّ كثيراً من المسلمين العصريين الذين يعلنون بأنَّهم على استعدادٍ للعمل بالسّنّة، يظنّون أنَّهم لا يستطيعون الاعتماد على مجموع الأحاديث التي تقوم عليها السّنّة، «**ولقد أصبح من قَبيل الزيّ في أيّامنا هذه أنْ ينكر المرء مبدئيًّا صحةَ الحديث، ثمَّ هو من أجل ذلك ينكر نظام السّنّة كلّه**»[1].

إلا أنَّه حملَ السبب الحقيقي في هذا الموقف المستغرَب الذي وقفه مَن يسمّون أنفسهم (متنوّري المسلمين) من هذه القضية، ذلك هو قولهم إنَّه من المستحيل أن نعيش على سُنَّة النبي ﷺ وأنْ نتّبع الطريقةَ الغربيَّة في آنٍ واحد، «ثمَّ إنَّ الجيل المسلم الحاضر مستعدٌّ لأنْ يُكبِر كلَّ شيءٍ غربيّ وأنْ يتعبّد لكلّ مدنيَّةٍ أجنبيَّة لأنَّها أجنبيَّة ولأنَّها قويَّة وبرّاقة من الناحية الماديَّة، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبيّ ﷺ، وجعلت جميع نظام السّنّة معها، لا تجد قَبولاً في يومنا هذا، **إنَّ السّنّة تعارض الآراء الأساسيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الغربيَّة معارضةً صريحة**، حتى إنَّ أولئك الذين خلبتهم الثانية لا يجدون مخرجاً مِن مأزِقهم هذا إلا برفض السّنّة على أنَّها غير واجبة الاتّباع على المسلمين؛ ذلك لأنَّها قائمة على أحاديث لا يُوثق بها، وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم، لكي تظهر موافقةً لروحِ المدنيَّة الغربيَّة، أكثرَ سهولة»[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: 93.

(2) نفس المصدر السابق: 98 – 99.

– قطع الصّلات بالماضي:

دقَّ محمَّد أسد ناقوسَ الخطر عندما شعرَ أنَّ العالَمَ الإسلاميّ قد أصبح به مَيْلٌ متزايدٌ إلى محاكاة أوروبا وإلى اقتباس الآراء والمُثُل الغربيَّة، ما سيؤدّي بالتدريج إلى قطعِ الصِّلات التي تربطه بماضيه، وهو من أجل ذلك لا يفقد شيئاً من مركزِه الثقافيّ فحسب، بل مِن مركزِه الروحيّ أيضاً.

وقد جاء تشبيهه للعالَمِ الإسلاميّ في هذا الوضع المتأزّم، بالشجرة التي كانت قويةً حينما كانت بعيدة الجذور في الأرض، ولكنَّ ميول المدنيَّة الغربيَّة أزالت التراب عن جذورِها فأخذت هي تنحلُّ ببطءٍ لفَقدِ الغذاء، فسقطت أوراقها وذبلت غصونها، ولكن عند أسفل جذعها يبرز الخطر الذي يهدّدها بالسقوط إلى الأرض.

وفي سبيل إبراز هذا الخطر، أشارَ إلى أنَّ المسلم كيما يستطيع إحياءَ الإسلام؛ يجب أنْ يعيش عالِيَ الرأس، وأنْ يتحقّق أنَّه متميّزٌ وأنَّه مختلفٌ عن سائر الناس، وأنْ يكون عظيمَ الفخر لأنَّه كذلك، كما يجب عليه أنْ يكدّ ليحتفظ بهذا الفارق على أنَّه صفة غالبة وأنْ يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعةٍ بدلاً من أنْ يعتذر عنه بينما هو يحاول أنْ يذوب في مناطق ثقافيَّة أُخَر[1].

(1) نفس المصدر السابق: 85 – 86.

– القُصور في تصوُّر مفهوم العبادة

يرى محمَّد أسد أنَّ (إدراك) العبادة في الإسلام يختلفُ مِمّا هو عليه في كلّ دينٍ آخر؛ ذلك أنَّ العبادة في الإسلام ليست محصورةً في أعمالٍ من الخشوع الخالص كالصّلوات والصّيام مثلاً، ولكنّها تتناول كلّ حياة الإنسان العمليَّة أيضاً، وقد أشارَ إلى أنَّه إذا كانت الغاية من حياتِنا على العموم عبادةُ الله فيلزمنا حينئذٍ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة، في مجموع مظاهرها كلّها، على أنَّها تَبِعَة أدبيَّة متعددة النواحي، وهكذا يجب أنْ نأتي أعمالنا كلّها، حتى تلك التي تظهر تافهة، على أنَّها عبادات؛ أي نأتيها بوعي، وعلى أنَّها تؤلِّف جزءاً من ذلك المنهاج العالَمِيّ الذي أبدعه الله[1].

فيُفهم إذن مِن كلامِه أنَّ القُصور الذي لَحِقَ بالمسلمين في حياتِهم العمليَّة، محمولٌ على قصورٍ قد لَحِقَ بهم في تصوُّر المفهوم الصحيح الذي أراده الله عزَّ وجلّ من تشريع (العبادة)، وهذا الذي دفعه للقول بأنَّ موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتملُ التأويل، فهو يرتكزُ على ركنين:

الأوّل: أنَّ عبادة الله الدائمة، والمتمثّلة في أعمال الحياة الإنسانيَّة المتعددة جميعها، هي معنى هذه الحياة نفسها.

الثاني: أنَّ بلوغ هذا المقصد يظلُّ مستحيلاً ما دُمنا نقسِّم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحيَّة وحياتنا الماديَّة، فيجبُ أن تقترن هاتان الحياتان، في وعينا وفي أعمالنا، لتكون (كُلاً) واحداً متّسقاً.

---

(1) نفس المصدر السابق: 26 – 27.

فهو يرى أنَّ عبادة الله في أوسع معانيها تؤلِّف من الإسلام معنى الحياة الإنسانيَّة، وهذا راجعٌ إلى تميُّز الإسلام على سائر النظم الدينيَّة، وهو في الوقت نفسه يحذِّر من سلوك سبيل الغرب الحديث الذي «يعبدُ الحياة بالطريقة نفسها التي يعبدُ بها النهِم طعامه؛ إنَّه يلتهمه ولكنّه لا يحترمه»!

فهذه النظرة الشموليَّة لمفهوم (العبادة) هي التي أدى القصور في تصوُّرِها إلى تأخُّر المسلمين في ميادين حياتهم الروحيَّة والماديَّة على حدٍّ سواء.

– محاولة تكييف الإسلام حسب مقتضيات المدنيَّة الغربيَّة:

أقرَّ محمَّد أسد بأنَّ أوّل أهداف الإسلام وأهمّها إنما هو **الرقيّ الداخليّ**، والذي به تتغلَّب الاعتبارات الخُلُقِيَّة على اعتبارات الانتفاع الخالص، ما سيكون سبباً في تقدُّم المسلمين ورُقيّهم الماديّ والروحيّ، أمَّا في حال حدث العكس فإنَّ ذلك حتماً لن يصبّ إلا في جانب تأخُّرهم.

كما أشارَ إلى أنَّ الأمر معكوسٌ تماماً في المدنيَّة الغربيَّة الحديثة؛ ذلك أنَّ اعتبارات الانتفاع المادي تسود جميع مظاهر النشاط الإنسانيّ، أمَّا الأخلاق فتُنفى إلى زاويةٍ مظلمة من الحياة ثمَّ يُحكم لها بوجودٍ نظريّ خالص من غير أن يكون لها قوّة مؤثّرة في المجتمع.. إنَّ مثل هذا الموقف المتذبذب من الأخلاق لا يتّفق بكلّ تأكيدٍ مع الاتجاه الدينيّ، ومِن أجل ذلك كانت أسس المدنيَّة الغربيَّة الحديثة لا توافق الإسلام، على أنَّ هذا يجب ألا يحول أبداً دون إمكان أخذ المسلمين من الغرب ببعض البواعث في ميدان العلوم المجرّدة والعلوم التجريبيَّة، ولكن صِلاتهم الثقافيَّة يجب أنْ تبدأ عند هذا الحد وتنتهي عنده

أيضاً، أمَّا أنْ يخطوا المسلمون إلى أبعد من ذلك أو أنْ يقلّدوا المدنيَّة الغربيَّة في روحها وأسلوب حياتها وفي تنظيمها الاجتماعي فهو المستحيل، إلا إذا سُدِّدت ضربة قاضية إلى الإسلام كدولةٍ إلهيَّة وكَدِينٍ عمليّ[1].

وعندما طُرِح سؤالٌ عمّا إذا كان مِن الممكن أنْ نكيّف أسلوب التفكير والحياة في الإسلام حسب مقتضيات المدنيَّة الغربيَّة الحديثة، كانت إجابة محمَّد أسد عليه بالنفي؛ ذلك أنَّ «النتيجة الوحيدة الممكنة هي أنَّ مدنيةً من هذا النوع إنما هي سمٌّ زُعَاف لكلّ ثقافةٍ مبنيَّة على القِيَم الدينيَّة».

– تنشئة أجيال المسلمين على الثقافة الغربيَّة:

يرى محمَّد أسد بأنَّه ما دام المسلمون مُصِرّين على النّظر إلى المدنيَّة الغربيَّة على أنَّها القوّة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلاميَّة الراكدة، فإنَّهم يُدخلون الضعفَ على ثقتِهم بأنفسهم، ويدعمون بطريقةٍ غير مباشرة ذلك الزّعم العربيّ القائل بأنَّ الإسلام (جُهدٌ ضَائِع).

وقد جاء تركيزه منصبًّا على جانب الضعف التربويّ الذي ولَّده ذلك الانبهار؛ «فإنْ كان الإسلام والمدنيَّة الغربيَّة يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً، لا يمكن أنْ يتّفِقا، فإذا كان ذلك كذلك، فكيف نستطيع أنْ نتوقَّع أنْ تظلّ تنشئة أحداث المسلمين على أسسٍ غربيَّة، تلك التنشئة

(1) نفس المصدر السابق: 52 – 53.

القائمة في مجموعِها على التجارب الثقافيَّة الأوروبيَّة، وعلى مقتضياتِها، خالصةً من شوائب النفوذ المعادي للإسلام؟»[1].

عقَّب محمَّد أسد على هذا الطرح بأنَّ تلك التنشئة الغربيَّة لأحداث المسلمين ستُفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أنْ يعتقدوا أو أنْ ينظروا إلى أنفسِهم على أنَّهم هم ممثِّلو الحضارة الإلهيَّة الخاصّة التي جاء بها الإسلام، وليس ثَمَّة من ريبٍ في أنَّ العقيدة الدينيَّة آخذة في الاضمحلال بسرعة بين (المتنوِّرين) الذي نشأوا على أسسٍ غربيَّة.

ويؤكِّد على أنَّ الإيمان والجُحود الذي يتعلَّق بالعديد الأكبر من البشر العاديين؛ إنَّما يفصل فيهما الجو الذي نشأوا فيه، من أجل ذلك قال الرسول ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه**»[2]، فالتعبير (أبواه) يمكن منطقيًّا أنْ يتناول البيئة العامَّة التي تتحكّم في تطوّر الطفل، **وليس لأحدٍ أنْ يتردّد في الاعتراف** – والحالة الحاضرة على ما هي مِنَ الانحطاط – **بأنَّ الجوّ الدينيّ في كثيرٍ من بيوت المسلمين قد بلغ من التدنّي والانحلال الفكريّ حدًّا أخذ يثير في الأحداث الناشئين عوامل الإغراء الأولى لأنْ يُولُّوا الدِّينَ ظهورَهم**، وهذا يمكن على

(1) نفس المصدر السابق: 69.

(2) صحيح ابن حبّان، رقم الحديث: 129، وعند البخاري مطوّلاً (1385)، وعند مسلم مطوّلاً باختلافٍ يسير (2658).

التحقيق أنْ يكون كذلك، أمَّا في حال تعليم ناشئة المسلمين على أسسٍ غربيَّة، فإنَّ التأثير سيكونُ على الأرجح موقفاً عدائيًّا مِن دينِهم[1].

كما شدَّد على أنَّنا **يجب ألا نتنازَل للفلسفة الغربيَّة عن أيِّ دَوْرٍ من أدوار تنشئة أحداث المسلمين**؛ ذلك أنَّ «المعرفة نفسها ليست غربيَّة ولا شرقيَّة، إنَّها عامَّة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعيَّة عامَّة، إلا أنَّ وجهة النّظر التي تُرى منها هذه الحقائق وتُعرَض تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب.

إنَّ عِلمَ الحياة، بما هو عِلم الحياة، والعلم الطبيعيّ وعلم النبات، بما هما كذلك، ليست كلّها ماديَّة ولا روحيَّة في ما تقصد إليه، إنَّها تتعلّق بملاحظة الحقائق وبجمعها وتحديدها ثمَّ استخراج القواعد المعقولة منها، أمَّا النتائج الاستقرائيَّة التي نستخرجها من هذه العلوم المتعلّقة بالمظاهر العامَّة في الحياة، أي فلسفة العلوم، فإنَّها لا تنبني على الحقائق والمشاهدة فقط ولكنّها تتأثر إلى حدٍّ بعيدٍ جداً بمزاجِنا المتأصِّل فينا أو بموقفنا الحَدْسي من الحياة ومشاكلها»[2].

ولمواجهة هذه الإشكالية، يرى محمَّد أسد أنَّه سيكون من واجب العلماء المسلمين أنْ يستخدموا نظرهم العقليّ مستقلّين فيه عن النظريات الفلسفيَّة الغربيَّة، ما سيُؤهّلهم إلى الوصول لنتائج في المعقولات تختلفُ بعض الاختلاف من تلك التي وصلَ إليها العلماء الغربيون.

---

(1) نفس المصدر السابق: 70 – 71.

(2) نفس المصدر السابق: 73.

– الخضوع للفلسفة الأوروبيَّة:

وهذه النقطة وثيقة الصِّلة بما سبقها؛ إذ يُشير محمّد أسد إلى أنَّه في حال طُلِب منه أنْ يقترح شيئاً على لجنة تعليميَّة مُثلى تسيّرها الاعتبارات الإسلاميَّة وحدها، لحثّها على أنْ تختار من جميع النتاج العقليّ في الغرب العلومَ الطبيعيَّة والرياضيات. **أمَّا تعلُّم الفلسفة الأوروبيَّة والأدب الأوروبيّ والتاريخ العام من وجهة نظر الغرب، فيجب أن يفقد المرتبة الفُضلى في برامج التعليم**[1].

ذلك أنَّه رأى العالَم الإسلاميّ ليس في حاجةٍ إلى استشرافٍ فلسفيٍّ جديد، ولكنْ إلى تجهيزٍ علميّ فنيّ عصريّ، «إنَّ الموقف من الفلسفة الأوروبيَّة يجب أن يكونَ واضحاً منذ البداية. أمَّا الأدب فيجب علينا بكلّ تأكيد ألا نحرّم دراسته، وإنَّما يجب أن تُرَدّ دراسته إلى حدود قيمتها الحقيقيَّة، أي اللغويَّة، فالطريقة التي تجري عليها معالجة الأدب الأوروبي وتدريسه في البلاد الإسلاميَّة تدورُ مع الهوى. إنَّ الإغراق الذي لا حَدّ له في قدْر قيمته يحمل العقولَ الناشئة الغضّة على أن تتشرّب روح المدنيَّة الغربيَّة بثقةٍ عمياء واندفاعٍ كبير قبل أن يُتاح لها أن تعرف النواحي السلبيَّة فيها معرفةً كافية، وهكذا لا تكون الطريق معبّدة لحبّ ذلك الأدب حبًّا عذريًّا فقط، ولكن لتساعد على التقليد العمليّ لتلك المدنيَّة الغربيَّة التي لا يمكن أن تتّفق مع روح الإسلام.

إنَّ تعليم الأدب الأوروبيّ على الشكل الذي يسود اليوم الكثيرَ من المؤسّسات الإسلاميَّة يقودُ إلى جعل الإسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة،

---

(1) نفس المصدر السابق: 75.

ومثل هذا يصدق على التعليل الأوروبيّ للتاريخ العامّ، إذ لا يزال الموقف القديم فيه: «رومانيّون وبرابرة» يظهر بجلاء. ثمَّ إنَّ لمِثْلِ هذا العرض في التاريخ هدفاً خفيًّا؛ ذلك أنْ يدلّل على أنَّ الشعوب الغربيَّة ومدنيّتها أرقى من كلّ شيءٍ جاء أو يمكن أنْ يَجِيء إلى هذا العالَم، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبيّ لسعي الأوروبيين إلى السيطرة وإلى القوّة الماديَّة».

ولتلافي هذا الإشكال، يرى محمَّد أسد ضرورة أنْ تستبدل المدارس الإسلاميَّة تدريس الأدب الإسلاميّ بالأدب الأوروبيّ؛ تدريساً عاقلاً بصيراً يتأثّر منه الطالب بسَعة الثقافة الإسلاميَّة وغِناها، وهكذا يشيعُ في نفسِه أملٌ مِن جديد بحُسنِ مستقبلها.

– التفاؤل المفرط بقَبول المدنيَّة الغربيَّة للإسلام:

يعتقد محمَّد أسد أنَّ فريقاً من المتفائلين في العالَم الإسلاميّ زعموا أنَّ (العِلمَ الحديث)[1] بدأ يعترف بوجود قوّة واحدة مبدعة وراء هيكل الطبيعة المنظور، ما يبشِّر ببدءِ فجرٍ لوعي دينيّ جديد في العالَم الغربيّ، ولكنَّ هذا الزّعم ينكشف فقط عن سوء فهم المسلمين المتفائلين للتفكير العلميّ الأوروبي؛ فكان ذلك من جملة الأسباب التي ساهمت في تأخُّر المسلمين بأنْ أقعدَهم عن الأخذ بوسائل الحضارة اعتماداً على هذا الزعم الذي لا تؤيّده الحقائق المُشاهَدة.

وفي هذا السياق، نجد محمَّد أسد يدعم هذا الرأي بقوله: «ليس ثَمَّة مِن عالِمٍ رَصين يستطيع، أو استطاع من قبل أنْ ينكر الترجيح بأنَّ العالَم يرجع في

(1) أوردَ محمَّد أسد مصطلح (العلم الحديث) وقصد به المدنيَّة الغربيَّة الحديثة، وإلا فحقائق العلم الحديث الثابتة ليس في وسعها إلا الانصياع لقدرة الخالق على التصرّف في هذا الكون بما أراده عزّ وجلّ.

أصله إلى عِلَّةٍ فعّالة رئيسة، ولكنَّ القضية على كلّ حال هي اليوم، كما كانت دائماً من قبل، متعلّقةً بالصفات التي ننسبها إلى تلك العِلَّة. إنَّ جميع النُّظم الدينيَّة المُطلقة تؤكِّد أنَّ ثَمَّة قوّة ذات وعي وإدراك مطلقين، وهي قوّة تُبدع هذا العالَم وتقضي فيه أمرها حسب ناموسٍ ما ومقصدٍ ما مِن غير أن تكون هي نفسُها مقيّدة بقوانين، أو بكلمةٍ واحدة: هذه القوّة هي الله. **إلا أنَّ العِلمَ الحديث – على ما هو عليه اليوم – ليس مستعداً ولا ميّالاً إلى أنْ يخطو إلى مِثلِ هذا الحد، بل هو يترك قضية الوعي والاستقلال في تلك القوّة المبدعة خاضعةً للأَخذِ والردّ**.. وإنَّه لَمِنَ الصعب أنْ ننظر إلى هذا الاعتقاد على أنَّه خطوة نحو (فكرة الله) الإيجابيَّة في الإسلام»[1].

وقد جاء تشبيهه لذلك الاعتقاد الذي وقع فيه كثيرٌ من المسلمين، بأنَّه ليس في الحقيقةِ سوى الاعتقاد القديم بظهور المهدي المنتظر، ولكن وراء قناعٍ يتراءى فيه العقل، «إنَّ هذا الاعتقاد خطرٌ لأنَّه طيّبٌ في النفس، سهلٌ عليها، ولأنَّه يحاول أنْ يخدعنا عن أن نرى الحقيقة؛ تلك أنَّنا لسنا من الثقافة على شيء، بينما نرى النفوذ الغربيّ هو اليوم على أتمّ قوّته في العالَم الإسلاميّ، ثمَّ إنَّنا نحن نيامٌ بينما ذلك النفوذ الغربيّ يزلزلُ المجتمع الإسلاميّ ويقوّضه في كلّ مكان، **فالرغبةُ إذن في انتشار الإسلام شيء، وبناء الأماني الكاذبة على هذه الرغبة شيءٌ آخر**»[2].

(1) نفس المصدر السابق: 65.

(2) نفس المصدر السابق: 68.

شكيب أرسلان

عَرَف العالَمَ الإسلاميّ شكيب أرسلان أميراً للبيان ولساناً ينقل بصفاء ودقَّة كلمة الإسلام، وذلك من خلال مقالاته ومؤلَّفاته ومساجلاته وترجماته وتحقيقاته، واشرأبَّت إليه الأعناق في كلِّ معضلة، وافتقده المصلحون الاجتماعيُّون، والزعماء السياسيُّون، أمام كلِّ مشكلة.

وُلِد الأمير شكيب أرسلان في غُرَّة رمضان 1286هـ الموافق 25 ديسمبر 1869م، في قرية الشويفات قُرب بيروت، وتأثَّر بعددٍ كبير من أعلامِ عصره مِمَّن تتلمذَ على أيديهم أو اتصلَ بهم في مراحل متعددة من حياته، كأستاذه الشيخ عبد الله البستاني، والدكتور كرنليوس، وأحمد فارس الشدياق. كما تعرَّف إلى أحمد شوقي وإسماعيل صبري، وغيرهما من أعلام الفكر والأدب والشعر في عصره. وقد أجاد أرسلان عدَّة لغات، هي العربيَّة، التركيَّة، والفرنسيَّة، والألمانيَّة.

أمضى شكيب أرسلان قسطاً كبيراً من عمره في الرحلات، فقام برحلاته المشهورة من لوزان بسويسرا إلى نابولي في إيطاليا، إلى بورسعيد في مصر، واجتازَ قناة السويس والبحر الأحمر إلى جدَّة ثمَّ مكَّة المكرَّمة، وكان يسجّل كلّ ما يراه ويقابله.

عُرِف عنه تفاعله مع كثيرٍ مِن أحداث عصرِه؛ فعندما اعتدى الطليان على طرابلس الغرب، ونشبت الحرب بينهم والدولة العثمانيَّة في سنة 1911م، سافر

إلى مصر، ومنها إلى طرابلس الغرب مع بعض أعوانه من المجاهدين، وتجوَّل في الكثير من مناطق القتال مستنهِضاً الهِمَم، وبقي هناك إلى أغسطس 1912م برفقة أنور باشا (القائد العثماني في ليبيا). وعندما عَلِمَ أنَّ الدولة العثمانيَّة قرَّرت الصلح مع إيطاليا، خاف أنْ تُهمِل ليبيا، فسافر مسرعاً إلى الآستانة عن طريق مصر، وسعى لدى الحكومة بأنْ تساعد الليبيين بطُرُقٍ خفيَّة.

كما عُرِف عنه أنَّه لا يثق بوعود الحُلفاء العرب، حيث حذَّر من استغلال الأجانب للشقاق الواقع بين العرب والأتراك للقضاء على الدولة العثمانيَّة أولاً، ثمَّ تقسيم البلاد العربيَّة بعد ذلك، وهو ما حدث بالفعل حينما تنكَّر الأتراك للخلافة الإسلاميَّة عقب الانقلاب الذي نفَّذه مصطفى كمال أتاتورك، واتجاههم إلى العلمانيَّة، وقطع ما بينهم وبين العروبة والإسلام من صلات. حينها اتخذ أرسلان موقفاً آخر؛ حيث بدأ يدعو إلى الوحدة العربيَّة، وكان من أشدِّ الناسِ فَرَحاً حين أسِّست الجامعة العربيَّة عام 1945م. ولمَّا وضعت الحرب العالَمِيَّة أوزارها، عادَ إلى وطنه أواخر عام 1946م، وما لَبِثَ أنْ توفِّي بعد حياةٍ حافلةٍ بالعناءِ والكفاح.

تعرَّف أرسلان على الشيخ رشيد رضا (صاحب مجلة المنار) في فترةٍ مبكِّرة سنة 1895م، وبذلك ابتدأت صداقة كبيرة امتدّت لحين وفاة الشيخ. وفي شهر ربيع الآخر سنة 1348هـ/1929م أرسل الشيخ محمد بسيوني عمران من (جاوة) بأندونيسيا إلى الشيخ رشيد رضا رسالةً يوفي فيها الأمير شكيب حقّه من الثناء والتقدير على خدمته للإسلام والمسلمين، ويقترح عليه أنْ يُبيِّن لقرَّاء (المنار) أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذلّ، وأنْ يُبيِّن أسباب

رُقي أهل أوروبا وأمريكا واليابان، وما إذا كان يمكن للمسلمين مجاراة هؤلاء في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الحنيف، فأحالَ السيد رشيد رضا الرسالةَ إلى شكيب أرسلان، ويظهر أنّ الرسالة حرّكت في نفسِه كوامن، وأثارت شؤوناً وشجوناً، وأنّ السؤال كان يُلِح في خاطره، والإجابة كانت مضمرة في تلافيفِ ذِهنه الوقَّاد والمنشغل أبداً بالشؤون الإسلاميَّة.

ولم يكد ينتهي من رحلته إلى الأندلس، حتى انكبَّ على إعداد الجواب خلال ثلاثة أيام وانفعالات الزيارة إلى بلاد المجد المفقود وعواطفها ما زالت مشبوبة في نفسِه، ونشر الكتاب أوَّل ما نشر في مجلة (المنار) ثمَّ طبعه في كتيبٍ على حِدَة تحت عنوان (**لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم**)، وقد قدَّم له السيد رشيد رضا في أواخر سنة 1940م بمطبعة المنار وحلّاه ببعض العناوين، وأُعِيد طبع الكتاب مرَّات، وتناقله العالَم الإسلاميّ بلهفةٍ وشَوقٍ وتقدير، لأنَّه وجد فيه إجاباتٍ صريحة واضحة على تساؤلاتٍ كانت تلح في الضمائر وتعتلج في الخواطر[1].

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

أرجعَ أرسلان تأخُّر المسلمين العام إلى فقدان السبب الذي به استقام أمرهم، «إنْ كان بقي منه شيء كباقي الوَشْم في ظاهرِ اليد؛ فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزَّة بمجرَّد الاسم دون الفعل لكان يحقّ لنا أنْ نقول: أين عزّة المؤمنين؟ مِن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (المنافقون: 8)،

(1) من تقديم الشيخ حسن تميم لرسالة شكيب أرسلان (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم)، ص 19 – 20.

ولو كان الله قد قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم: 47) بمعنى أنَّه ينصرهم بدون أدنى مَزِيَّةٍ فيهم سوى أنَّهم يعلنون كونهم مسلمين، لكان ثَمَّةَ محل للتعجُّب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر، ولكنَّ النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فاللهُ غير مخلفٍ وعده، والقرآن لم يتغيَّر، وإنَّما المسلمون هم الذين تغيَّروا، والله تعالى أنذَرَ بهذا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:11) ».

ثمَّ أخذ يتساءل في استنكار: «كيف ترى في أمَّةٍ ينصُرها الله بدون عمل، ويفيضُ عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها، وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقومُ بها آباؤها؟! وذلك يكونُ أيضاً مخالفاً للحكمة الإلهيَّة والله هو العزيز الحكيم، وما قولك في عزَّةٍ دون استحقاق، وفي غلةٍ دون حَرثٍ ولا زَرع، وفي فَوزٍ دون سعي ولا كسب، وفي تأييدٍ دون أدنَى سببٍ يوجبُ التأييد؟!

لا جَرَمَ أنَّ هذا مما يُغري الناسَ بالكسل، ويحولُ بينهم وبين العمل، بل مما يخالف النواميس التي أقام اللهُ الكونَ عليها، وهو مما يستوي به الحقّ والباطل، والضارّ والنافع، والموجب والسالب، وحاشا الله أنْ يفعل ذلك، ولو أيَّد الله مخلوقاً بدون عملٍ لأيَّد – من دون عمل – مُحَمَّداً رسوله، ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال، واتِّباع سنن الكون الطبيعيَّة للوصول إلى الغاية»[1].

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 28.

وقد وصل أرسلان بهذا التحليل البديع إلى مكمن الداء في تأخُّر المسلمين وتقهقرهم، وهو مخالفتهم لسنن الله تعالى في الكون والحياة، وهي تلك السنن التي لا تُحابِي أحداً مِنَ الخلق مهما كان قدره، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ (محمد: 38).

كما ظهرت عنايته أيضاً في تتبُّع الأسباب التي بها تقدَّم غيرهم؛ فنجده قد رفضَ ابتداءً جعل الأديان – غير الإسلام[1] – هي المعيار للتأخُّر والتقدُّم؛ ذلك أنَّ فريقاً من المؤرّخين الأوروبيين قد ادعى أنَّ تغلُّب المسيحيَّة على اليونان والرومان أخنَى على عظمتها، وذهب بمدنيَّتِها، فهذه الدعوى منهم ليس فيها من الصحيح إلا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة، ثمَّ يتساءل: أفنجعل هذا التأخُّر الذي كان عليه الأوروبيون في القرون الوسطى مدّة ألف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذين يعضّون عليه بالنواجذ؟!

فهو يرى أنَّ لهذه الحوادث أسباباً وعوامل متراكمة ترجع إلى أصولٍ شتى، فإذا تراكمت هذه العوامل في خيرٍ أو شرّ تغلّبت على تأثير الأديان والعقائد، وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بإزاء شرّها، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثِّرة في جانب خيرها.

وقد عبَّر عن هذه الحقيقة بقوله: «إنَّ إدخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي وحدها معيار الترقّي والتردّي ليس من النصفة في شيء،

(1) ذلك أنَّ التاريخ قد أثبت أنَّ الإسلام هو سبب تقدّم أهله حين اهتدوا به، وسبب تأخّرهم حين أعرضوا عنه.

أمَّا الإسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما أجمع على الاعتراف به المؤرِّخون شرقاً وغرباً، ولكنّه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الأوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام، وبسط سيادة أوروبا على بلدانهم، بل كان السبب في تردّي المسلمين هو أنَّهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرَّد الاسم، والحال أنَّ الإسلام اسمٌ وفعل»[1].

ويرى أرسلان أنَّ تقدُّم أعداء الإسلام كان نتيجةً لتخلُّقهم بالحماسة التي كانت عند آبائنا نحن المسلمين، على الرغم مِن أنَّ كتابهم لم يوصهم بالأخذ بهذه الحماسة كما أوصانا بها كتابنا – القرآن الكريم –، وقد استدلَّ على هذه الحقيقة بقوله:

«.. فتجد أجنادهم تتواردُ على حِياضِ المنايا سِباقاً، وتتلقَّى الأسنَّة والحِراب عناقاً، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس في الحرب العامَّة فوق تصوُّر عقول البشر، كما يعلم ذلك كل أحد؛ فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل، والفرنسيون فقدوا مليوناً وأربع مئة ألف قتيل، والإنجليز فقدوا ست مائة ألف قتيل، والطليان فقدوا أربع مئة وستين ألف قتيل، والرُّوس هلكَ منهم ما يفوقُ الإحصاء، وهلم جرّا، هذا من جهة النفوس، وإنجلترا

(1) وهذا ما أكّده عبد القادر عودة حين أشار إلى أنَّ تأخُّر المسلمين لا يرجع للتنظيم والتشريع، فالشريعة الإسلاميَّة أفضل وأسمَى من أيّ قانونٍ وضعيّ على وجه الأرض.. وإنَّما يرجع لترك تعاليم الإسلام، فالمسلمون اليوم في كلّ بلاد العالَم إنَّما هم مسلمون بأسمائهم وألسنتهم، لا بإيمانهم ولا بأعمالهم، إلا مَن رَحِمَ الله، وقليلٌ ما هم. انظر: الإسلام وأوضاعنا القانونيَّة: 50 – 51.

بذلت سبعة مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسا خمس مئة مليون، وروسية أنفقت ما أوقع المجاعة التي آلت إلى الثورة ثمَّ إلى البلشفة، وهلم جرّا...

فليقل لي قائل: أيَّة أمَّة مسلمة اليوم تُقدم على ما أقدمَ عليه هؤلاء النصارى من بيع النُّفوس، وإنفاق الأموال بدون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم، حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والعظمة والثروة، وحرمَ المسلمين اليوم أقل جزءٍ منها؟»[1].

ثمَّ أخذ أرسلان في استعراض بعض الأمثلة الدالَّة على إمساك المسلمين في الإنفاق الذي به يُحفظ الدِّين وتُحمى به المِلَّة، فيقول:

«وقد يُقال: إنَّ المسلمين فقراء ليس عندهم هذه الأموال ليُنفقوا هذا الإنفاق كلّه، فنُجيب بأنَّنا نوزِّع هذه النفقات على الأوروبيين بنسبة رأس المال، لا نكلِّف المسلمين إلا الإنفاق مثل الأوروبيين في هذه النسبة، فهل تسخو الأمم الإسلاميَّة الحاضرة بما تسخوا الأمم الأوروبيَّة التي منها مَن قد أنفقت في الحرب العامَّة أكثر من نصف ثروتها؟

الجواب: لا، ليس في المسلمين اليوم مَن يفعل ذلك لا أفراداً ولا أقواماً، وندرَ في المسلمين مَن ينفق الزكاة الشرعيَّة»[2].

---

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 21 – 22.

(2) نفس المصدر السابق: 22.

- لماذا سادت الأمَّة الإنجليزيَّة هذه السيادة كلّها في العالَم؟

طرح أرسلان هذا التساؤل في الوقت الذي قد بلغت فيه إنجلترا مبلغاً عظيماً في النفوذ والسيطرة على كثيرٍ من أراضي المسلمين شرقاً وغرباً، ففضَّل أنْ تكون إجابته بأنْ يضرب مثالاً في التدليل على سبب هذه السيادة التي بلغتها هذه الأمَّة، يقول:

«نُجيبهم: إنَّها سادت بالأخلاق والمبادئ الوطنيَّة العالية، حدَّثني رجلٌ ثقة أنَّه يعرف إنجليزيًّا ذا منصبٍ في الشرق كان يأمر خادمه أنْ يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يوميًّا من دكّان إنجليزي في البلدة التي هم فيها، فجاءه الخادم مرَّة بجدول حساب وقَّر عليه به 20 جنيهاً في شهر، فسأله الإنجليزي: كيف أمكنك هذا التوفير؟ فقال الخادم: تركنا دكّان الإنجليزي الذي كنّا نشتري منه، وصرنا نشتري من دكان أحد الأهالي من العرب، فقال له الإنجليزي: ارجع إلى دكّان الإنجليزي الذي كنّا نشتري منه، فقال الخادم: ولو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيهاً زيادة؟! فقال الإنجليزي: ولو كان ذلك يستلزم إنفاق 20 جنيهاً زيادة.

وسمعتُ أنَّ كثيرين من الإنجليز الذين في الأقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمةٍ إلا من بلادهم، ويُرسلون إلى (لندرة) فيُوصون على كلّ ما يحتاجون إليه؛ حتى لا يذهب مالهم إلى الخارج.

أفنقيسُ هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم، وعلموا أنَّهم إذا أخذوها من الإفرنجي، تركوا ابن جلدتهم

أو ملَّتهم ورجَّحوا الإفرنجي؟ أفلم يكن سبب حُبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه؟»[1].

وهنا نجد براعة أرسلان في ضرب الأمثلة التي شهد لها واقع الأمَّة في هذه الفترة الزمنيَّة التي أعقبت الحرب العالميَّة الأولى، وصدور وعد (بلفور) المشؤوم سنة 1917م من طرف الإنجليز لصالح قيام دولة تجمع اليهود من كافَّة أصقاع المعمورة تحت مسمَّى (إسرائيل)، وهي الفترة التي تمتَّع فيها الإنجليز بكامل الحريَّة في التنقُّل داخل الأقطار العربيَّة والإسلاميَّة بقوَّة الاستعمار الذي كان جاثماً على صدور المسلمين، وليس أدلَّ على ذلك من تلك القصة التي أوردها عن ذلك المسؤول الإنجليزي الذي فضّل الشراء من التاجر الإنجليزي على الرغم من ارتفاع أثمان بضاعته، على ألا يشتريها من تاجرٍ عربيّ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ (الأنفال: 73).

ثمَّ ختم تلك الإجابة ببيان أنَّ المسلمين في ذلك الوقت قد حرموا أنفسهم أمضَى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروقٍ تافهة مؤقَّتة، ونسوا أنَّ الضرر الذي يُصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرَّة من ضرر هاتيك الفروق الزَّهيدة[2].

---

(1) أمَّا الآن فقد تغيَّر هذا السلوك، وهو ما ظهر مؤخراً في حملات المقاطعة الاقتصادية التي نادت بها الشعوب الإسلاميَّة حول العالم في أعقاب الحرب الغاشمة التي شنَّتها (إسرائيل) على قطاع غزَّة بفلسطين، وذلك خلال حرب السابع من أكتوبر 2023م.

(2) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 29 – 30.

- محافظة الشعوب الإفرنجيَّة على قوميَّتها:

لاحظَ أرسلان أنَّ غالبية القوميات الأوروبيَّة قد حافظت على نقاء عرقها من الاندماج في عرقيات أوروبيَّة أخرى حاولت صهرها في قوالب عرقيَّة جديدة، وأوضح أنَّه لم يُرِد الخروج في الاستشهاد عن أوروبا؛ حتى لا يدع مجالاً لتلك الفئة الجاحدة لأنْ تقول: نحن لا نريد أنْ نجعل قدوةً لنا أُمَماً متأخِّرة مثلنا، كما ويظهر من كثرة استشهاداته بهذه العرقيات المتنوعة مدى اطلاعه الواسع على تاريخ القوميات الأوروبيَّة منذ نشأتها وصولاً إلى العصر الحديث.

يقولُ في ذلك: «فلننظر إلى أوروبا – لأنَّها هي اليوم المثل الأعلى في ذلك – نجد كلّ أمَّة فيها تأبى أنْ تندمج في أمَّةٍ أخرى؛ فالإنجليز يريدون أنْ يبقوا إنجليزاً، والإفرنسيس يريدون أنْ يبقوا إفرنسيساً، والألمان لا يريدون أنْ يكونوا إلا ألماناً، والطليان لا يرضون أنْ يكونوا إلا طلياناً، والروس قصارى همّهم أنْ يكونوا روساً، وهلمّ جرّا...

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس أنَّ الأيرلنديين، مثلاً، أمَّة صغيرة مجاورة للإنجليز، وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوَّره العقل من الجهود ليدمجوهم في سواهم مدّة تزيد على سبع مئة سنة، فأبوا أنْ يصيروا إنجليزاً، ولبثوا أيرلنديين بلسانِهم وعقيدتِهم وأذواقِهم وعاداتِهم.

وفي فرنسا نفسها تأبى أمَّة (البريتون) إلا أنْ تحافظ على أصلها، وفي جنوبي فرنسا جيل يقال لهم (الباشكنس) احتفظوا بقوميَّتهم تجاه القوط، ثمَّ تجاه العرب،

ثمَّ تجاه الإسبان، ثمَّ تجاه الفرنسيس، وجميعهم مليون نسمة، وهم لا يزالون على لغتهم وزيّهم وعاداتهم وجميع أوضاعهم.

والفلمنك يأبون أنْ يجعلوا اللغة الإفرنسيَّة لغتهم، والثقافة الإفرنسيَّة ثقافتهم، ولم يزالوا يصيحون في بلجيكا حتى اضطرَّت دولة بلجيكا إلى الاعتراف بلغتهم لغةً رسميَّة.

وفي سويسرا ثلاثة أقسام: القسم الألماني وهو مليونان وثمان مئة ألف، والقسم المتكلِّم بالطليانيَّة وهو أكثر قليلاً من مئتي ألف، والقسم المتكلِّم باللغة الفرنسيَّة، وكلُّ قسمٍ منها يحافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع أنَّهم كلّهم متَّحدون في مصالحهم السياسيَّة وهم يعيشون في مملكةٍ واحدة.

وإنَّ الدنمارك وبلاد الإسكندیناف وهولاندا فروع من الشجرة الألمانيَّة لا مِراء في ذلك، لكنَّهم لا يريدون الاندماج في الألمان ولا العدول عن قوميَّاتِهم، وبقي (التشيك) مئتين من السنين تحت حكم الألمان، وبقوا تشيكاً، واستأنفوا بعد الحرب العامَّة استقلالهم السياسي، بعد أنْ حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسي مدَّة خمسة قرون.

وقد هذَّب الألمان أمَّة المجر وعلَّموهم ورقَّوهم، ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من إدماجهم في الألمانيَّة، فتجدهم أحرصَ الأُمم على لغتهم المغوليَّة الأصليَّة، وعلى قوميَّتهم المجريَّة.

ولبثت الروسية العظيمة من مئتين إلى ثلاث مئة سنة تحاول إدخال بولونيا في الجنس الروسي وحَمْل البولونيين على نسيان قوميَّتهم الخاصَّة؛ بحجَّة أنَّ

العِرق السلافي يجمع بين البولونيين والروس، ففشلت جميع مساعيها في إدماج البولونيين فيها، وعاد هؤلاء بعد الحرب العامَّة أمَّة مستقلة في كلِّ شيء؛ وذلك لأنَّهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميَّتهم.

وليس من العجيب أنْ لا تريد أمَّة عددها 30 مليوناً الاندماج في غيرها، ولكن الإستوانيين، وهم مليونان فقط، انفصلوا عن الروسية، ولم يقبلوا الاندماج فيها، وأحيوا استقلالهم، ولسانهم المغولي الأصل جعلوا له حروفاً هجائيَّة، ومثلهم أهالي فنلاندة المنفصلون عن الروسية أيضاً.

وقد خابت مساعي الروس في إدماج الليتوانيين – من هذه الأمم البلطيكيَّة – في الجنس الروسي، وانتفضوا بعد الحرب العامَّة أمَّة مستقلة كما كانوا مستقلِّين قوميًّا، وجميعهم أربعة ملايين، وأقلّ منهم جيرانهم الليتونيون[1]، الذين هو مليونان لا غير، ومع هذا قد انفصلوا بعد الحرب، وأسَّسوا جمهورية كسائر الجمهوريات البلطيكية؛ لأنَّهم — من الأصل — لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم.

وقد عجز الروس من جهة، كما عجز الألمان من جهةٍ أخرى عن إدخال هذه الأقوام في تراكيبهم القوميَّة العظيمة؛ لأنَّ كلّ شعب — مهما كان صغيراً — لا يرضى بإنكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي.

وقد حفظ الكرواتيون استقلالهم الجنسي مع إحاطة أمَّتين كبيرتين بهم، هما: اللاتين، والجرمان.

---

(1) نسبةً إلى ليتونيا، وهي غير ليتوانيا.

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم منذ قرون. ولم يزل الأرناؤوط أرناؤوطاً منذ عهدٍ لا يُعرف بدؤه، وهم بين أمّتين كبيرتين: اليونان، والصقالبة؛ أي السلاف!.

وكذلك البلغار أبَوا إلا أنْ يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين، ثمَّ جاءهم الترك فتعلَّموا التركيَّة، لكنَّهم بقوا بلغاراً.

فالأُمم التي استشهدنا الآن بها كلّها أوروبيَّة، وكلّها متعلّمة راقية، وكلّها ذوات بلدان ممدَّنة منظّمة، وكلّها عندها الجامعات والأكاديميات العلميَّة والجيوش والأساطيل .. إلخ»[1].

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

يرى شكيب أرسلان أنَّ دَور العرب قد بقي هو الأوّل في وقته، وأنَّهم لبثوا وهم المسيطرون في الأرض، لا يُضارعهم مضارع، ولا يغالبهم مغالب مدّة ثلاثة قرون أو أربعة، ثمَّ أخذوا بالانحطاط شيئاً فشيئاً؛ وذلك بفُتور الهِمَم، ودبيب الفساد إلى الأخلاق، ونبذ عزائم الدِّين، واتّباع شهوات الأنفس، وأشدّ ما ابتُلوا به التنافس على الإمارات والرئاسات – ولا سيما بين القيسيَّة واليمانيَّة – مما لولاه لدانت لهم القارة الأوروبية بأجمعها، وكانت الآن عربية كما هو المغرب.

فالمصائب التي حَلَّتْ بالمسلمين إنَّما هي ممّا صنعته أيديهم، وممّا حادوا به عن النهج السويّ الذي أوضحه لهم القرآن الذي لمّا كانوا عاملين بمحكم آيِهِ؛ علوا

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 67 – 70.

وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل، فلمّا ضعف عملهم به وصاروا يقرؤونه بدون عمل، وانقادوا إلى أهواء أنفسهم من دونه، ذهبت ريحهم، وولّى السلطان الأكبر الذي كان لهم، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم، ثمَّ قصدوا إلى أوساطها[1].

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 101.

– الجهل:

«فمِن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين الجهل، الذي يجعل فيهم مَن لا يميِّز بين الخمر والخَلّ، فيتقبَّل السفسطة قضية مسلَّمة، ولا يعرف أنْ يردّ عليها».

– العِلم الناقص:

«ومِن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين العِلم الناقص، الذي هو أشدّ خطراً من الجهل البسيط؛ لأنَّ الجاهل إذا قيَّض الله له مرشداً عالِماً أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأمَّا صاحب العِلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنَّه لا يدري، وكما قيل: ابتلاؤكم بمجنون خير مِن ابتلائكم بنصف مجنون، أقول: ابتلاؤكم بجاهل خير مِن ابتلائكم بشبه عالِم».

– فساد الأخلاق:

«ومِن أعظم أسباب تأخُّر المسلمين فساد الأخلاق بفقد الفضائل التي حثَّ عليها القرآن، والعزائم التي حملَ عليها سلف هذه الأمَّة، وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف. ولله درّ شوقي إذ قال:

وإنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ومِن أكثر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوعٍ خاص، وظنُّ هؤلاء – إلا مَن رحم ربُّك – أنَّ الأمَّة خُلقت لهم أنْ يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفِكر حتى إذا حاولَ محاول أنْ يقيمهم على الجادَّة بطشوا به عبرةً لغيره.

وجاء العلماء المتزلّفون لأولئك الأمراء المتقلّبون في نعمائهم، الضاربون بالملاعق في حلوقهم، وأفتوهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجَّة أنَّه شقَّ عصا الطاعة، وخرج عن الجماعة.

ولقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقويم أَوَد الأمراء. وكانوا في الدول الإسلاميَّة الفاضلة بمثابة المجالس النيابيَّة في هذا العصر، يسيطرون على الأمَّة، ويسدِّدون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة، ويهيبون بالخليفة فَمَن بعده إلى الصواب.

وهكذا كانت تستقيم الأمور؛ لأنَّ أكثر أولئك العلماء كانوا متحقِّقين بالزهد، متحلّين بالورع، متخلّين عن حظوظ الدنيا، لا يهمّهم أَغَضِبَ الملك الظالم الجبّار أم رَضِي، فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ويخشون مخالفتهم؛ لما يعلمون من انقياد العامَّة لهم، واعتقاد الأمَّة إمامتهم، إلا أنَّه، بمرور الأيام، خلف مِن بعد هؤلاء خَلفٌ اتَّخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدِّين مصيدة للدنيا، فسوَّغوا للفاسقين مِن الأمراء أشنعَ موبقاتهم، وأباحوا لهم – باسم الدِّين – خرق حدود الدِّين، هذا والعامَّة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء، وعلوّ مناصبهم، يظنون فُتياهم صحيحة، وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمَّة تذهب، والإسلام يتقهقر، والعدوّ يعلو ويتنمَّر، وكل هذا إثمه في رقاب هؤلاء العلماء».

– الجُبن والهَلع:

«ومِن أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع، بعد أنْ كانوا أشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمئة من غيرهم.

فالآن أصبحوا – إلا بعض قبائل منهم – يهابون الموت الذي لا يجتمع خوفه مع الإسلام في قلبٍ واحد. ومِن الغريب أنَّ الإفرنج المعتدين لا يهابون الموت، في اعتدائهم، هيبة المسلمين إيَّاه في دفاعهم. وأنَّ المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الإفرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهَلَكَة في سبيل قوميَّتهم ووطنهم، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة، ولا يقولون: نحن أولَى من هؤلاء باستحقار الحياة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ (النساء: **104**).

وقد انضمَّ إلى الجبن والهلع – اللَّذين أصابا المسلمين – اليأس والقنوط من رحمة الله، فمنهم فئات قد وقرَ في أنفسهم أنَّ الإفرنج هم الأعلَوْن على كلِّ حال[1]، وأنَّه لا سبيل لمغالبتهم بوجهٍ من الوجوه، وأنَّ كلّ مقاومةٍ عبث، وأنَّ كلّ مناهضةٍ خرق في الرأي.

ولم يزل هذا التهيُّب يزداد ويتخمَّر في صدور المسلمين أمام الأوروبيين إلى أنْ صار هؤلاء يُنصَرون بالرعب، وصار الأقلّ منهم يقومون للأكثر من المسلمين. وهذا بعكس ما كان في العصر الأوّل:

يَرَى الجُبَنَاء أَنَّ الجُبْنَ حَزَم وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطّبْع اللَّئِيمِ

نَسِيَ المسلمون الأيام السالفة التي كان فيها العشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) إلى (فراكسية) من سواحل فرنسا، ويستولون على جبلٍ هناك،

(1) والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: **139**).

ويبنون به حِصناً، ويتزايد عددهم حتى يصيروا مئة رجل فيُؤسِّسون هناك، إمارة تعصف ريحها بجنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها، وتستولي على رؤوس جبال الألب، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسا وإيطاليا، وتضطرّ جميع قوافل الإفرنج أنْ تؤدّي للعرب المكوس لأجل المرور، ثمَّ تتقدّم هذه الدولة العربيَّة الصغيرة في بلاد (البيامون) مسافاتٍ بعيدة إلى أنْ تبلغ سويسرا وبحيرة (كونستانزا) في قلب أوروبا، وتضمّ القسم العالي من سويسرا إلى أملاكها، وتبقى خمساً وتسعين سنة مستولية على هذه الديار إلى أنْ تتألَّب الأمم الإفرنجيَّة عليها، ولا تزال تناجزها إلى أنْ استأصلتها، وكانت تلك العصابة العربيَّة يوم انقرضت لا تزيد على ألف وخمسمئة رجل»[1].

– الجُمود والجُحود:

«ومِن أكبر عوامل انحطاط المسلمين: الجمود على القديم؛ فكما أنَّ آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أنْ تلغي كلّ شيءٍ قديم، بدون نظرٍ فيما هو ضارّ منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أنْ تغيِّر شيئاً، ولا ترضى بإدخال أقلّ تعديلٍ على أصول التعليم الإسلاميّ؛ ظنًّا منهم بأنَّ الاقتداء بالكفّار كفر، وأنّ نظام التعليم الحديث من وضع الكفّار. فقد أضاعَ الإسلام جامد وجاحد.

أمَّا الجاحد فهو الذي يأبى إلا أنْ يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوّماتهم ومشخّصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم،

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 53 – 57.

ويجعلهم أشبهَ بالجزء الكيماوي الذي يدخلُ في تركيب جسمٍ آخر كان بعيداً فيذوبُ فيه ويفقد هويّته، وهذا الميل في النفس إلى إنكار الإنسان لماضيه واعترافه بأنَّ آباءه كانوا سافلين، وأنَّه هو يريد أن يبرأ منهم لا يصدر إلا عن الفَسل[1] الخسيس، الوضيع النفس، أو عند الذي يشعر أنَّه في وسط قومه دنيء الأصل، فيسعى هو في إنكار أصلِ أمّته بأسرها؛ لأنَّه يعلم نفسه منها بمكانٍ خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعيَّة التي جعلت في كلِّ أمّة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوّماتها ومشخّصاتها، من لغةٍ وعقيدةٍ وعادة وطعام وشراب وسكن وغير ذلك إلا ما ثبتَ ضرره»[2].

ويقول في موضعٍ آخر: «وبقي علينا المسلم الجامد، الذي ليس بأخفّ ضرراً من الجاحد، وإنْ كان لا يشركه في الخبث وسوء النيّة، وإنَّما يعمل ما يعمله عن جهلٍ وتعصُّب.

فالجامد هو الذي مَهَّدَ لأعداء المدنيَّة الإسلاميَّة الطريق لمحاربة هذه المدنيَّة محتجّين بأنَّ التأخُّر الذي عليه العالَم الإسلاميّ إنَّما هو ثمرة تعاليمه.

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتُلي به المسلمون؛ لأنَّه جعل الإسلام دين آخرةٍ فقط، والحال أنَّ الإسلام هو دين دنيا وآخرة، وإنَّ هذه مزيّة له على سائر الأديان، فلا حَصَرَ كسْبَ الإنسان فيما يعود للحياة التي وراء هذه

(1) الفَسْلُ مِن كلِّ شيءٍ: الرَّذْلُ الرديء، ويُقال: رجلٌ فَسْلٌ: لا مروءَة له، ودرهم فَسْلٌ: زائف. انظر: المعجم الوسيط: 689.

(2) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 65 – 66.

كما هي ديانات أهل الهند والصين، ولا زهَّده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الإنجيل، ولا حصر سعيه في أمور هذه المعيشة الدنيويَّة كما هي مدنيَّة أوروبا الحاضرة.

والجامد هو الذي شهرَ الحرب على العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والفلسفيَّة وفنونها وصناعاتها بحجّة أنَّها من علوم الكفّار، فحرَم الإسلام ثمرات هذه العلوم، وأورث أبناءه الفقر الذي هم فيه، وقصَّ أجنحتهم، فإنَّ العلوم الطبيعيَّة هي العلوم الباحثة في الأرض، والأرض لا تخرج أفلاذها إلا لِمَن يبحث فيها، فإنْ كنّا طول العمر لا نتكلّم إلا فيما هو عائد للآخرة، قالت لنا الأرض: اذهبوا توّاً إلى الآخرة؛ فليس لكم نصيبٌ منّي.

ثمَّ إنَّنا – بحصر كلّ مجهوداتنا في هذه العلوم الدينيَّة والمحاضرات الأخرويَّة – جعلنا أنفسنا في مركزٍ ضعيف بإزاء سائر الأمم التي توجَّهت إلى الأرض، وهؤلاء لم يزالوا يعلون في الأرض ونحن ننحطّ في الأرض، إلى أنْ صار الأمر كلّه في يدهم، وصاروا يقدرون أنْ يأفكونا عن نفس ديننا فضلاً عن أنْ يملكوا علينا دنيانا، ومَن ليست له دنيا فليس له دين، وليس هذا هو الذي يريده الله بنا وهو الذي قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (النور: 55) الآية.

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ (البقرة: 29).

وقال: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ (الأعراف: 32).

وقال فيما حكاه وأقرّه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص: 77).

وقال فيما حكاه وأقرّه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقر: 201).. إلخ.

والمسلم الجامد لا يدري أنَّه، بهذا المشرَب، يسعى في بوار ملَّته وحطّها عن درجة الأمم الأخرى، ولا ينتبه لشيءٍ من المصائب التي جرَّها على قومه إهمالهم العلوم الكونيَّة حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه، وصاروا عيالاً على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهم إلّاً ولا ذِمّة، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة علَّلها بالقضاء والقدر بادئ الرأي، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا، يحيلون على الأقدار.

هذا الخُلُق هو الذي حَبَّب الكسل إلى كثيرٍ من المسلمين فنجمت فيهم فئة يُلَقَّبون بـ (الدراويش) ليس لهم شغلٌ ولا عمل، وليسوا في الواقع إلا أعضاء مشلولة في جسم المجتمع الإسلامي.

وهذا الخُلُق بعينه هو الذي جعل الإفرنج يقولون: إنَّ الإسلام جبريّ لا يأمرُ بالعمل؛ لأنَّ ما هو كائن هو كائن، عَمِلَ المخلوق أم لم يعمل»[1].

ويقولُ في موضعٍ آخر: «ونعود إلى المسلم الجامد فنقول: إنَّه هو الذي طرّق لأعداء الإسلام على الإسلام، وأوجدَ لهم السبيل إلى القالة بحقّه؛ حتى قالوا: إنَّه دين لا يأتلف مع الرقيّ العصري، وإنَّه دين حائل دون المدنيَّة.

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 79 – 82.

والحقيقة أنَّ هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنيَّة، وهم الذين يحولون دون الرقيّ العصري، والإسلام براء من جماداتهم هذه.

إنَّ الإسلام هو مِن أصلِه ثورة على القديم الفاسد، وجبٌّ للماضي القبيح، وقطع لكلّ العلائق مع غير الحقائق، فكيف يكون الإسلام ملّة الجمود؟ والقرآن هو الذي جاء فيه من قصّة إبراهيم، عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنبياء).

وجاء فيه: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء).

وجاء فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ (الزخرف).

وجاء فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: **170**).

وجاء فيه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: **142**).

وغير ذلك من الآيات الداعية إلى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحاً، ولم يكن صالحاً.

على أنَّ الذين يفهمون الإسلام حقّ الفهم يرحِّبون بكلِّ جديدٍ لا يعارض العقيدة، ولا تُخشى منه مفسدة، ولا أظنُّ شيئاً يفيد المجتمع الإسلاميّ يكون مخالفاً للدِّين المبني على إسعاد العباد، أفلا ترى علماء نَجْد وهم أبعد المسلمين عن الإفرنج والتفرنج، وأنْأهم عن مراكز الاختراعات العصرية، كيف كان جوابهم عندما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود – أيَّده الله – في قضية اللاسلكي والتليفون والسيارة الكهربائية؟ أجابوه: إنَّها محدثات نافعة مفيدة، وإنَّه ليس في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ما يمنعها.

أفليس الأدنَى لمصلحة الأمّة أنْ تقدر الدولة على معرفة أيّ حادث يحدث بمجرّد وقوعه حتى تتلافَى أمره؟ أفليس الأنفع للمسلمين أنْ يتمكَّن الحاجّ ببضع ساعات من اجتياز المسافات التي كانت تأخذ أياماً ولياليَ، لقد سألتُ الشيخ مُحَمَّد بن علي بن تركي من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التليفون واللاسلكي، فقال لي: هذه مسألة مفروغٌ منها، وأمر جوازها شرعاً هو مِن الوضوح بحيث لا يستحقُّ الأخذ والردّ.

ولم تكن مقاومة الجديد خاصّة بجامدي الإسلام، فقد قاومت الكنيسة في النصرانية كلّ جديدٍ تقريباً من قولٍ أو عمل، ثمَّ عادت فيما بعد فأجازته، ولمَّا قال (غاليله)[1] بدوران الأرض كفّرَته، ولا يزال يوجد إلى اليوم من أخبار

(1) Galileo Galilei (1564 – 1642 A.D.).

النصارى مَن يكفِّر كلّ مخالف لما جاء في التوراة من كيفية التكوين، ومِن سنتين حُوكِم أحد المعلِّمين في محاكم إحدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين[1]، ومُنِع من التدريس، ولكن هذا لا يمنع سير العلم في طريقه.

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون، والمسلم الجامد يحارب كلّ علمٍ غير العلم الدينيّ التقليديّ الذي ألفه، حتى إنَّه ليحارب مَن لا يعتدّ في دينه إلا بالكتاب والسنّة، وينسى أنَّ العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والهندسة وجَرّ الأثقال والفلك والطب والكمياء وطبقات الأرض وكلّ علمٍ يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينيَّة إنْ لم تكن مباشرة فمِن حيث النتيجة. وكم جرى تدريس هذه العلوم في الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين وقرطبة وبغداد وسمرقند وغيرها عندما كان للإسلام دول كبار وأعاظم رجال، وكم نبغ في الإسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة[2]، ونظموا بين الحديث والرياضة، وإنَّ أكبر فيلسوف عربي اشتهر اسمه في أوروبا هو القاضي ابن رُشد، وكان مِن أكابر الفقهاء»[3].

---

(1) Charles Robert Darwin (1809 – 1882 A.D.).

(2) عرض كتاب (الجامعون بين العلوم الشرعية والعلوم التجريبية) لترجمة (1066) من علماء الإسلام، ممن جمعوا بين التضلع في العلوم الشرعية والعلوم التجريبية والتجريدية، وذلك في الفترة الزمنية من القرن الأول للهجرة إلى آخر القرن الرابع عشر، والكتاب من تأليف: أ. د. عوّاد الخلف و د. قاسم علي سعد، مِن إصدارات وحدة البحوث والدراسات بجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، 1436هـ/2015م.

(3) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 90 – 93.

- فقد الثقة بالنفس:

«مِن أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كلّ ثقةٍ بأنفسهم؛ وهو مِن أشدّ الأمراض الاجتماعيّة، وأخبث الآفات الروحيّة، لا يتسلَّط هذا الداء على إنسانٍ إلا أودى به، ولا على أمّة إلا ساقها إلى الفناء. وكيف يرجو الشفاء عليلٌ يعتقد – بحقّ أو بباطل – أنَّ علّته قاتلته؟! وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أنَّ القوّة المعنويّة هي رأس الأدوية، وأنَّ أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء، فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنَّهم لا يصلحون لشيء، ولا يمكن أنْ يصلح على أيديهم شيء، وأنَّهم إنْ اجتهدوا أو قعدوا، لا يقدرون أنْ يضارعوا الأوروبيين في شيء؟!

وكيف يمكنهم أنْ يناهضوا الأوروبيين في معتركٍ وهم موقنون أنَّ الطائلة الأخيرة ستكون للأوروبيين لا محالة؟! فصار مثلهم مع هؤلاء مثل أولئك الأقران الذين كان يبطش بهم سيّدنا عليّ – رضي الله عنه – في وقائعه؛ فقد حدَّثوا أنَّه سُمِعت له في (صفّين) أربع مئة تكبيرة، وكان من عادته – كرَّم الله وجهه – أنَّه يكبِّر كلّما صرع قرناً، فقيل له في ذلك، فأجاب: كنتُ إذا حملتُ على الفارس ظننتُ أنِّي قاتله؛ فكنتُ أنا ونفسُه عليه.

وهكذا أصبح المسلمون في الأعصر الأخيرة يعتقدون أنَّه ما من صراع بين المسلم والأوروبي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه، وقَرَّ ذلك في نفوسهم، وتخمَّر في رؤوسهم، لا سيَّما هذه الطبقة التي تزعم أنَّها الطبقة المفكِّرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادفة عن الخيالات – بزعمها – فإنَّها صارت تقرِّر هذه القاعدة المشؤومة في كلّ نادٍ، وتجعل التشاؤم المستمرّ والعتاب الدائم من

دلائل العقل وسِعَة الإدراك، وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة ومازالت تنفخ في بوق التثبيط، وتبثّ في سواد الأمّة دعاية العجز، إلى أنْ صار الاستخذاء ديدن الجميع إلا مَن رحم ربّك، وكانت روحه من أصل فطرتها قوية عزيزة.

ولم تقتصر هذه الفئة على القول إنَّ حالة المسلمين الحاضرة هي متردّية متدنّية لا تُقاس بحالة الإفرنج في قليلٍ ولا كثير، بل زعمت أنَّ التعب في مجاراة المسلمين للإفرنج في علمٍ أو صناعةٍ أو كسبٍ أو تجارةٍ أو زراعةٍ أو حربٍ أو سِلْمٍ أو أيّ منحى من مناحي العمران هو ضربٌ من المحال، وشغلٌ بالعبث لا يليقُ بالعاقل إتيانه، وكأنَّ المسلمين من طينة، والإفرنج من طينةٍ أخرى، فعلوُّ الإفرنج على المسلمين أمرٌ لابدّ منه؛ وكأنّه كُتِب في اللوح المحفوظ، وجفَّ به القلم، ولم يبقَ أمام المسلمين إلا أنْ يعلموا كونهم طبقة منحطّة عن طبقة الإفرنج، ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة»[1].

وقد ضرب أرسلان مثالاً على فقدان المسلمين لثقتهم بأنفسهم في العصور الأخيرة، وهو تشاؤم كثيرٍ منهم بإمكانيّة إنشاء سكّة حديد الحجاز التي أمر بتنفيذها السلطان عبد الحميد الثاني بين دمشق والمدينة المنورة، حتى قال بعضهم: نحن نرى أنفسنا عاجزين عن إنشاء طريق عجلات، فكيف نستطيع أنْ ننشئ سكّة حديدية طولها يزيد عن ألفي كيلومتر؟ وأنّى لنا المال والعلم اللازمان لمشروعٍ عظيمٍ كهذا؟!، وما كان هذا منهم إلا عن سوء تقدير

(1) نفس المصدر السابق: 118 – 120.

بعض الصعوبات الطبيعيَّة التي لم يصحّ منها شيء، حتى أنَّ المهندس الألماني مايستر باشا الذي انتدبه السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط كان لا يعتقد إمكانيَّة أنْ يكتمل هذا المشروع، وقد تمّ إنجاز المشروع وجاء من أبدع الخطوط الحديدية في العالَم، ولمّا كان لا يُتاح لغير المسلمين دخول أرض الحجاز، فكان إنشاء الخط – أي القسم الداخل منه في الحجاز –كلّه على أيدي مهندسين مسلمين، حتى إنَّ هذا المهندس الألماني نفسه لم يتجاوز في إشرافه بلدة تبوك.

وقد جاء تعقيبه على هذه الحادثة بقوله: «وكما ظنّ المسلمون أنَّهم لا يُحسنون شيئاً من المشروعات العمرانيّة، وأنَّه لابدّ لهم من الأوروبي حتى يدخلوا الإصلاح في بلادهم، وأنَّه من دون الإفرنجي لا يقدرون على أيّة عمارة ولا مرفق ذي بال؛ كذلك ذهبوا إلى أنَّه لا حَظَّ لهم في الأعمال الاقتصادية أصلاً، وأنّ كلّ مشروع اقتصادي إسلامي صائر إلى الحبوط إنْ لم تكن له أركان إفرنجية، وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة حتى لم يبق في بلادهم شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي الإفرنج أو اليهود، وحتى لو دعا منهم داعٍ إلى تأليف شركةٍ تجارية أو صناعية أو زراعية لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد إفرنجي أو يهودي، وكلمة الجميع عندهم: نحن لا يخرج من أيدينا عمل، ولا نصلح لشيء .. وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الأجانب يُركِضون فيه جياد قرائحهم وعزائمهم، ويجمعون الثروات التي ليس وراءها متطلّع إلى مزيد، وذلك على ظهور المسلمين ومِن أكياسهم»[1].

(1) نفس المصدر السابق: 126 – 127.

أبو الحَسَن الندْوِي

يعتبر المفكّر الهندي أبو الحسن الندّوي أحد أعلام المصلحين في القرن الخامس عشر الهجري/العشرين الميلادي؛ فقد اجتمع له مِنَ العِلمِ بكتابِ الله تعالى وسنن نبيّه ﷺ، والفقه في الدِّين، والتقوى والوَرَع، وإخلاص العمل، والتجريد، والعبادة والزهد، والدعوة إلى دين الله تعالى، وتطهيره من البدع والشوائب، وتنقية المجتمعات الإسلاميَّة من المحدثات والمنكرات، وإحياء السُّنن وإقامتها، ومواقفه من الأزمات والفتن التي زعزعت أركان الأمَّةِ الإسلاميَّة في شبه القارة الهنديَّة، بل وفي العالَمِ الإسلاميّ بأسرِه؛ ما زَكَّاهُ لاتّفاق كلمة علماء المسلمين على أنَّه أحد هؤلاء المصلحين، وكبار المجدِّدين، وأعلام الدُّعاة المخلصين، وأئمة العلماء الربانيين[1].

نشأ الشيخ الندوي في وضعٍ كان العالَمَ الإسلاميّ يَئِنُّ فيه تحت وطأة الاستعمار الأوروبيّ العسكريّ والفكريّ والتعليميّ، ولكنَّ الله تعالى أكرمه فنشأ في بيئةٍ بعيدة عن آثار هذا الغزو، غير متلوّثٍ بشيءٍ من الحضارة الوافدة، نشأ في بيتٍ عُرِف بتقاليده العلميَّة والدينيَّة والروحيَّة والجهاديَّة عبر القرون، علَّمه أنَّ الإسلامَ هو رسالةُ الله الخاتمة الخالدة، وأنَّها هي الحقّ،

(1) أبو الحسن الندوي: العالِم المربّي والداعية الحكيم، د. محمد أكرم الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص 13.

الذي ليس بعده إلا الضلال، والسعادة التي ليس وراءها إلا الشقاوة، وأنَّ محمدَ بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشميّ القُرَشِيّ العربيّ ﷺ خاتمُ الرُّسُل، وإمامُ الكلِّ، ومنيرُ السُّبُل لكلِّ عصرٍ وجيل[1].

هو أبو الحسن على بن عبد الحيّ بن فخر الدِّين الحسَني، وُلِد عام 1333هـ/1914م في بلدة (راي بديلي) بشمال الهند، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بدأ تعلُّمه للقرآن الكريم في البيت تُعاوِنُه أمُّه السيدة خير النساء بنت ضياء النَّبيّ الحسَني (ت: 1388هـ)، التي كانت مِن فُضليات النساء الصالحات، وكانت لها عناية كبيرة بتربيته تربيةً دينيَّة صالحة؛ فكانت توصيه أنْ يبدأ كلّ ما يكتب بـ «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمَّ آتني بفضلِك أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين»، توفِّي والده العلاَّمة الكبير، مؤرِّخ الهند، السيد عبدالحي الحسَني (ت: 1341هـ)، وهو لا يزال دون العاشرة من عمره، فتولَّى أخوه الأكبر السيد عبد العلي الحسَني تعليمه وتثقيفه، وقد وصفه بأنَّه كان «مثالاً فريداً في الجمع بين الثقافتين الإسلاميَّة والغربيَّة العصريَّة، وعُمقِ فهمه للإسلام، واتّزانه الفكريّ البعيد عن كلِّ غلوٍّ وتطرُّف»[2].

بدأت حياته العلميَّة منذ التحاقه بدار العلوم لندوة العلماء عام 1929م، فدرس بها علوم الحديث على بعض أعلام عصره المحدِّثين، وقرأ عدداً من دواوين السّنَّة مثل: (الصحيحين)، و(سنن أبي داود)،

(1) نفس المصدر السابق: 34.

(2) ماذا خَسِر العالَم بانحطاط المسلمين: 7.

و(سنن الترمذي)، كما قرأ بعضاً من كتب الفقه على عددٍ من فقهاء دار العلوم المشهود لهم بالرسوخ في العلم، وأخذ شيئاً من (تفسير البيضاوي)، كما أخذ دروساً في الفلسفة على يد العلَّامة السيد سليمان الندوي كشفت له النقاب عن حقائق كثيرة من فلسفة اليونان.

كان عظيم التأثُّر بشاعر الإسلام محمد إقبال (ت: 1938م) صاحب القصائد الإصلاحية التي لامست شِغاف قلبه، فنشأ على التغنِّي بشعره الذي أعطاه الثقةَ بصلاحيَّة الإسلام والإيمان بخلودِه، فكان ذلك الشعر مكوِّناً رئيسيًّا في ثقافته، وأساساً مِن أُسسِ تفكيره، وقد وصفَ صاحبه بأنَّه «أعظم ثائر على هذه الحضارة الغربيَّة الماديَّة، وناقد لها، وداعية إلى المجد الإسلاميّ وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنيَّة والقوميَّة الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانيَّة والجامعة الإسلاميَّة»[1].

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

كان الشيخ الندوي رحمه الله من المعنيين بمسألة توصيف أحوال الأمَّة الإسلاميَّة مقارنةً بأحوال باقي الأمم الشرقيَّة منها والغربيَّة، وقد ساعده في ذلك حضوره لمجالس أخيه الأكبر السيد عبد العلي (ت: 1380هـ/1961م) التي كان لها بالغ الأثر في فَهمِ فضل تعاليم الإسلام والحضارة التي تؤسِّسها هذه التعاليم، والاطّلاع على مواضع الضعف في الحضارة الغربيَّة وزَيغِ أساسها[2].

---

(1) روائع إقبال، أبو الحسن الندوي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولي، 1379هـ/1960م، ص 4.

(2) شخصيات وكتب، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م، ص 70 – 71.

وقد تجلَّت هذه العناية في كتابه (**ماذا خَسِر العالَم بانحطاط المسلمين**)، الذي تحدَّث فيه لأوّلِ مرّةٍ ومِن دون أيّ تلعثمٍ أو اعتذار أنَّ تقدُّم المسلمين كان نعمةً وبركةً للعالَمِ بأسرِه، **فلمَّا أصابَهم الانحطاطُ تعدَّى خسرانُه إلى العالَمِ بأجمعِه**[1]؛ حيث جاء في مقدّمته أنَّ الناس كانوا قد اعتادوا في ذلك العصر، وقبل العصر الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب، أنْ ينظروا إلى المسلمين كشعبٍ عاديّ وكأُمَّةٍ من أممٍ كثيرة، ولكن تشجَّع مؤلِّف هذا الكتاب، وتخطَّى هذه الحدود المرسومةَ، وخرجَ من الإطار التقليديّ الذي فُرِض على المؤلِّفين والكُتَّاب من العَربِ والعَجَم، فأراد أنْ ينظر إلى العالَمَ من خلال المسلمين، وشتَّان بين النظرتين[2].

لم يقف الشيخ الندوي طويلاً أمام أسباب انحطاط المسلمين وتقهقرهم؛ إنَّما جاء تركيزه منصبًّا على أعراض هذا الانحطاط، وما خلَّفه من تَركِ دفَّة قيادة العالَمَ إلى أوروبا النصرانيَّة التي أخذت بناصية الأمم إلى طريق الجاهليَّة الأولى؛ ف «بانسحابِ المسلمين من ميدان الحياة وتنازلهم عن قيادة العالَمَ وإمامة الأمم، وبتفريطِهم في الدِّينِ والدنيا، وجنايتهم على أنفسِهم وعلى بَني نوعهم؛ أخذت أوروبا بناصية الأمم، وخلفتهم في قيادة العالَمَ وتسيير سفينة الحياة والمدنيَّة التي

(1) أبو الحسن الندوي (العالِم المربّي والداعية الحكيم): 421.

(2) ماذا خَسِر العالَم بانحطاط المسلمين: 7.

اعتزلَ ربَّانها، وبذلك أصبح العالَم كلّه – بأُممه وشعوبه ومدنيَّاته – قطاراً سريعاً تسيرُ به قاطرة الجاهليَّة والماديَّة إلى غايتِها، وأصبح المسلمون – كغيرهم من الأمم – ركَّاباً لا يملكون من أمرِهم شيئاً، وكلَّما تقدَّمت أوروبا في القوّة والسرعة، وكلَّما ازدادت وسائلها ووسائطها؛ ازداد هذا القطار البشريّ سرعة إلى الغاية الجاهليَّة، حيث النار والدمار والاضطراب والتناحُر والفوضى الاجتماعيَّة والانحطاط الخُلُقي والقلق الاقتصادي والإفلاس الروحيّ»[1].

وبذلك يصبح الحلّ الوحيد للأزمَّة العالَمِيَّة في نظره هو «تحوُّل القيادة العالَمِيَّة وانتقال دفَّة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التي أساءت استعمالها إلى يدٍ أخرى بريئة حاذقة.. إنَّ حقًّا على العالَم الإسلاميّ أنْ يُمنِّي نفسه بهذا المنصبِ الخطير، ويطمح إليه، وإنَّ حقاً على كلّ بلدٍ إسلاميّ وشعبٍ إسلاميّ أنْ يشد حيازيمه لذلك، وإنَّ حقاً على كلّ مسلم أنْ يُجاهِد في سبيلِه ويبذل ما في وسعه، فهذه هي المهمَّة الشريفة التي نيطت بالأمَّة الإسلاميَّة يوم برزت إلى عالَمِ الوجود، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب»[2].

وربَّما أنَّ عدم وقوفه طويلاً أمام أسباب انحطاط المسلمين راجعٌ لاعتقادِه أنَّ هذه المسألة قد بحثها مَن سبقوه بالبحث والدرس المطوَّل؛ حيث لم يكن قد

(1) نفس المصدر السابق: 267 – 268.

(2) نفس المصدر السابق: 270 – 271.

مضى إلا قُرابة عشر سنوات على نشر رسالة (لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدَّم غيرهم؟) لأمير البيان شكيب أرسلان، فأحبَّ الندوي أنْ يتناول هذه المسألة من زاويةٍ جديدة لم يتفطَّن لها سابقوه؛ وذلك لإيمانه أنَّ «**المسلمون على عِلَّاتِهم موئلُ الإنسانيَّة وأُمَّةُ المستقبل**»، فقد شدَّد على أنَّه «برغم كلّ ما أصيب به المسلمون من عِلَّةٍ وضعف، فإنَّهم هم الأمَّة الوحيدة على وجه الأرض، التي تعدُّ خصيم الأمم الغربيَّة وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم، ومزاحمتها في وَضعِ العالَم، والتي يعزم عليها دينها أنْ تراقبَ سَير العالَم، وتُحاسِب الأمم على أخلاقِها وأعمالِها ونزعاتِها، وأنْ تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوّة، والتي يحرِّم عليها دينها ويأبَى وضعها وفطرتها أنْ تتحوَّل أمَّة جاهلية، هذه هي الأمَّة التي يمكن أنْ تعود في حينٍ من الأحيان خطراً على النظام الجاهليّ، الذي بسطته أوروبا في الشرق والغرب وأنْ تحبط مساعيها»[1].

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

في ضوء ما أورده الشيخ الندوي في كتابه، يمكن استخلاص مجموعة العوامل التي رآها قد تسبَّبت في انحطاط المسلمين عن مكانتهم اللائقة، وهي التي يمكن حصرها في النقاط التالية:

(1) نفس المصدر السابق: 272.

أسباب تأخّر المسلمين عند أبي الحسن الندوي
افتقاد شروط الزعامة الإسلاميَّة
ضعف الوعي في الأمَّة
الرُّكون إلى الجاهليَّة الأوروبيَّة
الغفلة عن الاستعداد الروحيّ
الرضا بالحياة الدنيا
التخلِّي عن الزعامة العلميَّة
قلة الاحتفال بالعلوم العمليَّة المفيدة
الاعتماد على القَامَة دون القِيمَة

– افتقاد شروط الزعامة الإسلاميَّة:

يرى الندوي أنَّ انحطاط المسلمين راجعٌ بالأساس إلى افتقادهم لشروط الزعامة الإسلاميَّة التي تقتضي صفاتٍ دقيقة جداً، وقد جمعها في كلمتين: (الجهاد) و (الاجتهاد)؛ «فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان، ولكنَّهما كلمتان جامعتان عامرتان بالمعاني الكثيرة».

أمَّا **الجهاد**: فهو بذلُ الوسع وغاية الجهد لنَيلِ أكبر مطلوب، ومِن مقتضياته أنْ يكون الإنسان عارفاً بالإسلام الذي يجاهد لأجله، وبالكُفر والجاهليَّة التي يجاهد ضدَّها، يعرف الإسلام معرفةً صحيحة، ويعرف الكُفر والجاهليَّة معرفةً دقيقة، فلا تخدعه المظاهر ولا تغرُّه الألوان، وقد قال عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه: إنَّما يَنقض الإسلامَ عروةً عروة مَن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهليَّة. ولا يجب على كلِّ مسلمٍ أنْ تكون معرفته دقيقة بالكُفر والجاهليَّة ومظاهرهما وأشكالهما وألوانهما، ولكن على مَن يتزعَّم الإسلام ويتولَّى قيادة الجيش الإسلاميّ ضدّ الكُفر والجاهليَّة أنْ تكون معرفته بالكُفر والجاهليَّة فوق معرفة عامَّة المسلمين وأوساطهم.

وأمَّا **الاجتهاد**: فهو أنْ يكونَ قائدُ المسلمين قادراً على القضاء الصحيح في النوازل والحوادث والمسائل التي تُفاجِئ وتتجدَّد، وأنْ يكونَ عنده من الذكاء والنشاط والجدّ والعلم ما يستخدم به ما خلق الله في هذا الكون من قوى لمصلحة الإسلام والبشريَّة، ثمَّ عرضَ أنَّ هذه القيادة التي تولَّاها رجالٌ لم تكن فيهم هذه الصفات، فظهرت أسباب انحطاط الأمَّة، والتي مِن أهمّها فصلُ الدِّينِ عن السياسة، وظهور النزعات السياسيَّة في رجال الحكومة، وانتشار

الضلالات والبِدَع، ثمَّ دلَّل على أنَّ توفُّر الصفات المطلوبة في القائد يرفعُ شأنَ الأمَّة بحال (صلاح الدِّين الأيوبي)، ثمَّ ظهر فقرُ القيادة في العالَم الإسلاميّ بعد (صلاح الدِّين)، وانهارَ صرحُ القوَّةِ الإسلاميَّة.

– ضعف الوعي في الأمَّة:

أشارَ الندوي إلى أنَّ ضعف الوعي هو أحد أسباب انحطاط المسلمين في العصور المتأخرّة؛ ذلك أنَّ «الشعوب الإسلاميَّة والبلاد العربيَّة – مع الأسف – ضعيفة الوعي، إذا تحرَّجنا أنْ نقول: فاقدة الوعي، فهي لا تعرفُ صديقها مِن عدوّها ولا تزال تعاملهما معاملةً سواء، أو تُعامِل العدو أحسن مِمَّا تُعامِل الصديق الناصح، وقد يكون الصديق في تعبٍ وجهادٍ معها طول حياته بخلافِ العدو، ولا تزال تُلدغ من جُحْرٍ واحدٍ ألف مرَّة، ولا تعتبر بالحوادث والتجارب، وهي ضعيفة الذاكرة، سريعة النسيان، تنسى ماضي الزعماء والقادة، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة، وهي ضعيفة في الوعي الدينيّ والوعي الاجتماعيّ وأضعف في الوعي السياسيّ، وذلك ما جرَّ عليها وَيْلاً عظيماً وشقاءً كبيراً، وسلَّط عليها القيادة الزائفة وفضحها في كلِّ معركة».

وفي مقابل هذا الضعف، أشارَ إلى قوَّة الوعي الذي تتمتَّع به الأمم الأوروبيَّة، برغم إفلاسها في الروح والأخلاق، «فهذه الأمم قد بلغت سِنَّ الرُّشد في السياسة، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها، وتميّز بين الناصح والخادع، وبين المخلص والمنافق، وبين الكفؤ والعاجز، فلا تولِّي قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء، ثمَّ لا تولّيهم أمورها إلا على حذر، فإذا رأت منهم عجزاً أو خيانة، أو رأت أنَّهم مثَّلوا دَورهم وانتهوا مِن أمرِهم، استغنت عنهم، وأبدلت بهم رجالاً

أقوى منهم وأعظم كفاءة وأجدر بالموقف، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحُكم ماضيهم الرائع وأعمالهم الجليلة وانتصارهم في حرب، أو نجاحهم في قضية. وبذلك أمنت السياسيين المحترفين، والقيادة الضعيفة أو الخائنة، وخوَّف ذلك الزعماء ورجال الحُكم، وكانوا حذرين ساهرين يخافون رقابة الأمَّة وعقابها وبطش الرأي العام».

ثمَّ جاءت إشارته إلى أنَّ أعظم ما تُخدم به الأمَّة وتُؤمَّن من المهازل والمآسي التي لا تكاد تنتهي هو إيجاد الوعي في طبقاتِها ودهمائِها، وتربية الجماهير التربية العقليَّة والمدنيَّة والسياسيَّة. ولا يخفى أنَّ الوعي غير فشو التعليم وزوال الأميَّة، وإنْ كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة أنَّ الأمَّة التي يعوزها الوعي غير جديرةٍ بالثقة ولا تبعث حالتها على الارتياح، وإنْ أَطْرَت الزعامة والزعماء وقدَّستهم، فإنَّها — ما دامت ضعيفة الوعي — عرضة لكلّ دعايةٍ وتهريجٍ وسخرية، كريشةٍ في فلاة تلعبُ بها الرياح ولا تستقر في مكان[1].

– الرُّكون إلى الجاهليَّة الأوروبيَّة:

أبدَى الندوي استغرابه من أنَّ المسلمين قد أصبحوا في الزَّمنِ الأخير في كثيرٍ من نواحي الأرض، حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهليَّة الأوروبيَّة وجنوداً متطوّعين لها، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلاميَّة يرى في الشعوب الأوروبيَّة التي تزعَّمت حركة الجاهليَّة منذ قرون، ونفخت فيها

(1) نفس المصدر السابق: 297 – 298.

روحاً جديدة، وركزت أعلامها على الشرق والغرب: ناصراً للمسلمين، حامياً لذمار الإسلام المستضعَف، حاملاً لراية العدل في العالَم قوَّاماً بالقِسط.

ورضي عامَّة المسلمين بأنْ يكونوا ساقة عسكر الجاهليَّة، بدلَ أنْ يكونوا قادة الجيش الإسلاميّ، وسَرَت فيهم الأخلاق الجاهليَّة ومبادئ الفلسفة الأوروبيَّة سريانَ الماءِ في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك، فترى الماديَّة الغربيَّة في البلاد الإسلاميَّة في كثيرٍ من مظاهِرها وآثارِها، وترى تهافتاً على الشهوات ونَهَماً للحياة، نهم مَن لا يُؤمن بالآخرة، ولا يُوقِن بحياةٍ بعد هذه الحياة، ولا يدَّخِر من طيِّباتِها شيئاً، وترى تنافساً في أسبابِ الجاه والفخار وتكالباً عليها، فِعْل مَن يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابِها، وترى إيثاراً للمصالِح والمنافِع الشخصيَّة على المبادئ والأخلاق، شأن مَن لا يُؤمن بنبيٍّ ولا بكتاب، ولا يرجو معاداً، ولا يخشى حساباً، وترى حُبًّا للحياة وكراهةً للموت، دأْب مَن يعدُّ الحياة الدنيا رأسَ بضاعته، ومنتهى أمله ومبلغ عِلمه، وترى افتناناً بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم الماديَّة التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حيَّة، وترى خضوعاً للإنسان، واستكانةً للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب، وتقديسهم شأن الأمم الوثنيَّة وعَبَدَةِ الأصنام[1].

– الغفلة عن الاستعداد الروحيّ:

يرى الندوي أنَّ انحطاط المسلمين كان نتيجةً لتركِهم جانب الاستعداد الروحيّ الذي به اكتسبوا قوَّتهم على مدار تاريخهم الطويل، وذلك في مقابل

(1) نفس المصدر السابق: 271 – 272.

جَرِيهِم وراء جوانب الاستعداد الماديّ على خُطَى الأوروبيين؛ ذلك أنَّ «العالَمَ الإسلاميّ لا يؤدِّي رسالته بالمظاهر الدينيَّة التي جادت بها أوروبا على العالَم.. إنَّما يؤدِّيها بالروح المعنويَّة التي تزدادُ أوروبا كلَّ يومٍ إفلاساً فيها، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف على الشهوات، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنَّة، والزهد في حُطام الدنيا».

ثمَّ بيَّن أنَّ قوَّة المؤمن وسرّ انتصاره في إيمانِه ورجائه لثواب الله، أمَّا إذا كان العالَمَ الإسلاميّ لا يرمي إلا إلى ما تراه أوروبا من العَرَضِ القريب، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوروبا من حُطام الدنيا، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوروبا من المحسوسات والماديَّات؛ كانت أوروبا بقوَّتِها الماديَّة أحقّ بالانتصار والسيادة من العالَمَ الإسلاميّ الذي يتخلَّف عنها في القوَّة الماديَّة تخلُّفاً شائناً ولا يفوقها في القوة المعنويَّة؛ «لقد أتَى على العالَمَ الإسلاميّ حينٌ من الدهر، وهو مستخفٌّ بهذه القوَّة المعنويَّة لا يحتفل بها، ولا يحتفظ بالبقيَّة منها، ولا يُغذِّيها، حتى نضب معينها في قلبه، فلمَّا خاض العالَمَ الإسلاميّ المعاركَ التي تحتاج إلى الإيمان، والصبر والثبات، وتحمُّل الشدائد والنكبات، وزلزل بعض الزلزال، ولجأ إلى القوَّة المعنويَّة الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسَرَابٍ بقيعة يحسبه الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، هنالك عرف أنَّه قد جَنَى على نفسِه جنايةً عظيمة بإهمالِ هذه القوَّة الروحيَّة وتضييعها، وبحث في جُعبتِه فلم يجد شيئاً يسدُّ مكانَها ويغني غناءَها»[1].

(1) نفس المصدر السابق: 276 – 277.

– الرضا بالحياة الدنيا:

بيَّن الندوي في معرض حديثه عن أسباب انحطاط المسلمين أنَّ «عِلَّة العالَمِ الإسلاميّ اليوم هي الرضا بالحياةِ الدنيا، والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة، فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيّجه منكر، ولا يهمّه غير مسائل الطعام واللباس. ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبويَّة – إنْ وجدا إلى القلبِ سبيلاً – يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشكّ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة، وبين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطالة وموت الشهادة، صراعٌ أحدثه كلُّ نبيٍّ في وقته، ولا يصلح العالَمَ إلا به، حينئذٍ يقوم في كلّ ناحيةٍ من نواحي العالَمِ الإسلامي، بل في كلِّ أسرة إسلاميَّة وفي كلِّ بلدٍ إسلاميّ ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف)»[1].

– التخلّي عن الزعامة العلميَّة:

يرى الندوي أنَّ العالَمَ الإسلاميّ – بما فيه العالَمَ العربيّ – قد تنازل منذ زمنٍ طويل عن مكانته في القيادة العلميَّة والتوجيه، والاستقلال الفكريّ، وأصبح عِيالاً على الغرب متطفِّلاً على مائدته حتى في اللغة العربيَّة وآداب اللغة وعلومها، وحتى في علوم الدِّين كالتفسير والحديث والفقه، وأصبح المستشرقون هم المرشدون الموجِّهون في البحث والتحقيق، والدراسة والتأليف،

(1) نفس المصدر السابق: 278.

وهم المنتهى والمرجع والحُجَّة في الأحكام والآراء الإسلاميَّة والنظريَّات العلميَّة والتاريخيَّة، وهم الأُسوة في النقض والإبرام، وعددٌ كبيرٌ منهم قساوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصّبون، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته ﷺ العداء والبغضاء، وللحضارة الإسلاميَّة السخرية والاستهزاء، ويخونون في النصوص والنقول، ويحرّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه، ومنهم عددٌ لم يتقن اللغة العربيَّة ولم يبرع فيها، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة.

كما بيَّن أنَّ أفكار هؤلاء المستشرقين ودعاياتهم قد تغلغلت في الأوساط العلميَّة الحديثة في العالَم الإسلاميّ، وتجلَّت بصورةٍ واضحة في الدعوة إلى فصل الدِّين عن السياسة، وأنَّ الديَّن قضية شخصيَّة لا شأنَ له بالمجتمع، وأنَّ الدِّين عقيدة وعبادة وخُلُق، لا شأنَ له بالسياسة والحُكم، وفي الدعوة إلى تغيير مفهوم الدِّين وأحكام الشريعة الإسلاميَّة على أساس الحضارة الغربيَّة وفلسفتها.. إلى غير ذلك من الأفكار التي يدعو إليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي.

إلا أنَّ عِلَّة الانحطاط في نظرِهِ قد تمثَّلت في عجز كُتَّاب الشرق المسلمون والمفكّرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربيَّة وجهاً لوجه ونقد أسسها وقِيَمِها نقداً حُرًّا جريئاً، فيه الابتكار، وفيه الاستقلال. وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير، والإغراق في التقليد منزلةً رأى فيها أنَّ الحضارة الغربيَّة هي آخر ما وصلَ إليه العقل البشريّ، وأنَّه لا منزلة وراءَها، ومنهم مَن دعا إلى تطبيق الحضارة الغربيَّة برُمَّتِها، وعلى عِلَّاتِها في الشرق، ودعا بعض الأقطار

الإسلاميَّة العربيَّة إلى اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزَّأ من القارة الأوروبيَّة، وإذابتها فيها، واختيار الثقافة اليونانيَّة التي هي أصل الثقافات الأوروبيَّة.

ولتجاوز هذه المعضلة، يرى الندوي أنَّ على العالَم الإسلاميّ أنْ يقومَ على قدميه ويفكِّر بعقلِه، ويكون فيه علماء عماليق وكُتَّاب جهابذة، يتناولون الحضارة الغربيَّة بالنقد والتشريح، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجَرحِ والتعديل، ويتبحَّرون في العلوم الإسلاميَّة ويتعمَّقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين في أوروبا وأمريكا، ويصحِّحون بها آراءهم وأخطائهم، ويتوجَّه روَّاد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالَم العربيّ وحواضر العالَم الإسلاميّ، كما اعتادوا أنْ يتوجَّهوا إلى عواصم أوروبا وأمريكا. فهذه المدن الإسلاميَّة أولى بأنْ تكون مركزاً للثقافة الإسلاميَّة والعلوم الدينيَّة وآداب اللغة العربيَّة من العواصم الأوروبيَّة وجامعات أوروبا، ومن سقوط الهِمَّة والقناعة بالدون أنْ تتخلَّى هذه العواصم العريقة في العلم والدِّين عن زعامتها العلميَّة ومكانتها الرئيسيَّة[1].

– قلة الاحتفال بالعلوم العمليَّة المفيدة:

يرى الندوي أنَّ انحطاط المسلمين راجعٌ بصورةٍ ما إلى أنَّ العلماء المفكّرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعيَّة التجريبيَّة وبالعلوم العمليَّة المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلومِ ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهيَّة التي تلقوها من اليونان، وما هي إلا وثنيَّتهم القوميَّة التي ترجموها في لغتهم الفلسفية، وأضفوا عليها لباساً من الفنّ، وما هي

(1) نفس المصدر السابق: 279 – 281.

إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظيَّة لا حقيقةَ لها ولا معنى، وقد أغنَى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب.

كما بيَّن أنَّ المسلمين لم يشكروا نعمة أنْ أنزل الله إليهم بيناتٍ من الهدى والفرقان وجعلهم على نُورٍ مِن ربِّهم، فظلُّوا قروناً طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث في غير جهاد، ويضيّعون ذكاءهم في مباحث فلسفيَّة وكلاميَّة لا تجدي نفعاً ولا تأتي بنتيجة، وليس لها دعوةٌ في الدنيا والآخرة، وتشاغلوا بها عن علومٍ واختباراتٍ تسخِّر لهم قوى الطبيعة ويسخِّرونَها لمصلحة الإسلام، ويبسطون بها سيطرة الإسلام الماديَّة والروحيَّة على العالَمِ كلِّه. وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، وبذلوا فيها قسطاً كبيراً من أوقاتِهم وجهودِهم وذكائِهم.

ثمَّ قارنَ بين مقدار عناية الشرق الإسلاميّ بالناحية الروحيَّة ونسبتها إلى الناحية العلميَّة والتجريبيَّة؛ وذلك من خلال المقارنة بين كتاب (الفتوحات المكيَّة) للشيخ ابن عربيّ مثلاً وبين أكبر كتابٍ في الطبيعيَّات والحكمة، ليظهر الفارق الهائل لصالح الكتاب الأوَّل من حيث ضخامة المادَّة والعناية بالموضوع والجهاد في سبيله، ما يُعرف به ذَوقُ الشّرق الغالب عليه[1].

(1) نفس المصدر السابق: 148 – 149.

– الاعتماد على القَامَة دون القِيمَة:

عدَّ الندوي – في مصدرٍ آخر له[1] – أنَّ اعتمادَ الأمَّة المسلمة في العصور الأخيرة على قامَتِها دون قِيمَتِها، قد تسبَّب في تراجع مكانتها التي سبق أنْ حظيتْ بها زمن المهاجرين والأنصار؛ ذلك أنَّ «العِبرَة ليست بالقَامَة والحجم والكثرة، إنَّما العِبرَة بالقِيمَة، فهناك شيئان يُوزنان: القامَة والقيمة، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى فَضَّلَ القِيمَة على القَامَة».

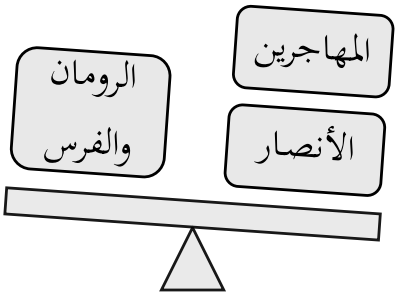

وقد استشهدَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: 73) ثمَّ تساءل: «لِمَن يُقال هذا؟ لهذه الحِفنَة البشريَّة التي تألَّفت من المهاجرين والأنصار؛ تألَّفت من الأنصار أصحاب الدار، ومِنَ المهاجرين المغتربين الذين لم يتجاوز

(1) وهو كتاب **(تأمُّلات في القرآن الكريم)**، وقد جعلناه آخر الأسباب؛ نظراً لاعتماده على مصدرٍ ثانويّ للمفكّر.

عددهم خمسمائة وألف. لقد حثَّ اللهُ على المؤاخاة الإسلاميَّة وربط المهاجرين بالأنصار والأنصار بالمهاجرين، وأثارَ فيهم روح الأخوَّة الصادقة وحثَّهم على أنْ يكونوا وحدةً جديدة، وحدةٌ تقومُ على الإيمان وعلى الكلمة وعلى الترحُّم للإنسانيَّة، تقومُ على المبدأ والعقيدة، فقالَ لهم: إذا قصَّرتم في إنشاء هذه الأخوَّة وفي تكوين هذه الوحدة التي جَهِلَها العالَمَ وتناساها التاريخ، وبكلمة أصحَّ: نسيها التاريخ منذ مئات السنين، إذا قصَّرتم في إنشاء هذه الوحدة التي تقومُ على الرسالة الفاضلة، وعلى الأخوَّة الصادقة المخلصة؛ فإنَّها تكون فتنة في الأرض وفسادٌ كبير».

ثمَّ تساءل للمرَّةِ الثانية: ما نسبة هذه القِلَّة القليلة التي كانت تعيش في المدينة؟ وما وزن هذه القِلَّة في الميزان السياسيّ وفي الميزان الدوليّ وفي الميزان الاجتماعيّ وحتى في الميزان العلميّ؟؛ «إنَّهم — كما أعتقد — لم يبلغ عددهم ألفين.. هل يُقال للرومان الذين سيطروا على نصف الأرض، والذين كانوا يتمتَّعون بأكبر إمبراطوريَّة، وأكبر حضارة قامت في ظلِّها، وبأكبر قوَّةٍ حربيَّة وقوَّة دوليَّة وقوَّة سياسيَّة؟

هل يُقال هذا للفُرس الإيرانيين الذين كانوا توزَّعوا مع الرومان في بَسطِ نفوذِهم بالاستيلاء على الأرضِ المعمورة؟

كان هؤلاء الرومان والفُرس هم المؤثِّرين في مسيرة الإنسانيَّة، وهم الذين كانوا يُسيِّرون سفينة الحياة وسفينة الحضارة، وهم الذين كانوا يتصرَّفون في وسائل الأمم — إذا صحَّ هذا التعبير — وفي أوضاع العالَم، هل يُقال لهم: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

قيسوا أوّلاً روعةَ الكلمة وحَجمها: ﴿فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ما أكبرَ حجمها وما أثقلَ وزنها!! ولم يقل: ﴿فَسادٌ﴾ فحسب، بل: ﴿فَسادٌ كَبيرٌ﴾.

هذه قيمة الأمَّة المسلمة حين كانت في عدد المئات، في عدد ألفٍ أو ألفين، هذا هو التصوير الصادق، وإعطاء هذه المجموعة هذا الوزن الكبير، وهذه القيمة الكبيرة، وهذه المكانة الرئيسَة في خريطة العالَم ومجموع الأُمَم.

فثبتَ بذلك أنَّ المسلم بقيمته لا بقامته، وأنَّ الأمَّةَ المسلمة برسالتِها وإيمانِها وعقيدتِها وفضلِها الخُلقي وضميرها الحيّ، وبالروح المتغلغلة في الأحشاء، المسيطرة على الشعور وعلى العقل والتفكير»[1].

ومِن خلال هذا العرض الماتع، توصَّل الندوي إلى أنَّ (قيمة) هذه الأمَّة في هذه الخصائص التي أكرمها اللهُ بِها، وليست بكثرة العَدَد والعُدَد، ولا بكثرة المساحة المكانيَّة التي تسيطر عليها وتحكم فيها، ولا بالفخامة وبحجم المساحة الزمانيَّة التي تؤثِّر فيها.

(1) تأمُّلات في القرآن الكريم، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1420هـ/1999م، ص 43 – 45.

محمَّد الغَزالِي

كان المفكّر المصري الشيخ محمَّد الغَزالِي – رحمه الله – أحد الحاملين لهموم إصلاح الأمَّة الإسلاميَّة وإعادة بعثها من جديد خلال القرن العشرين الميلادي، حتى وُصِفَت كتاباته بأنَّها تحمل عاطفة الأم على وليدها المريض الذي تخشى أنْ يفترسه المرض، كما كانت كُتُبُه وكتاباته تواجه التحديات الداخليَّة والخارجيَّة على حدٍّ سواء، وهي التي أربت على الأربعين كتاباً تشكِّل في مجموعِها جانباً مهمًّا من المكتبة الإسلاميَّة التي يمكن اعتبارها نبراساً يهتدي به الدُّعاة في ظلمات الفِكر المعوج.

وُلِد محمَّد الغَزالِي السقا الجبيلي عام 1336هـ/1917 في قرية (نكلا العنب)، إحدى قُرى محافظة البحيرة المصرية، وقد نشأ في بيئةٍ متديِّنة بين إخوةٍ سبعة كان هو أكبرهم، كان والده تاجراً صالحاً، فوجَّهه إلى حفظ القرآن في سنٍّ مبكِّرة، وتعهَّده بالتلاوة المثبتة، ثمَّ اتَّجه لدراسة العلوم الدينيَّة بالأزهر، ونال الشهادةَ العالية في كليَّة أصول الدِّين، والماجستير في الدعوة والإرشاد سنة 1360هـ، وكان على صِلَةٍ طيِّبة بأعلام عصره.

يعتبر من روَّاد المدرسة التي تقوم على الاستفادة من جميع الاتجاهات الفكريَّة والمذاهب الفقهيَّة في التاريخ الإسلامي، والتي ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانيَّة في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ، ومزج هذا كلَّه بالفقه الصحيح للكتاب والسّنّة.

وقد أشارَ المفكّر عمر عُبيد حسنة إلى أنَّه حين عَرْض مؤلَّفات الغزالي التي رافقت خطوات الدعوة الإسلاميَّة الأولى في العصر الحديث والتي جاءت تسدِّد طريقها، وتبصِّر بأعدائِها وتحذِّرها من المزالق التي تُرسم لها في الوقت الذي كانت تصطرع فيه الأفكار والمبادئ لإيجاد البدائل الثقافيَّة للإسلام، وتكريس فصل الدِّين عن الدولة؛ نجد الشيخ الغزالي في الخندق الأوّل حيث أدرك الثغرات التي يمكن أنْ يتسلَّل منها أعداء الإسلام من خلال واقع اجتماعي ليس له من الإسلام سوى الاسم[1].

- عنايته بأسباب تأخّر المسلمين:

سَلَكَ الشيخ محمد الغزالي في الكتابة الدينيَّة منهجاً يجمع بين العلم والأدب مع عرض الثقافة الإسلاميَّة عَرْضاً ممزوجاً بقضايا العصر، ويمكن اعتبار المحور الأساسي الذي دارت حوله معظم كتبه هو (الإسلام والطاقات المعطَّلة)[2]. أمَّا عنايته بأسباب تأخُّر المسلمين، فقد ظهرت جليَّةً في كتابه (**سِرُّ تأخُّر العرب والمسلمين**) الذي أصدره عام 1985م، والذي أقرَّ فيه بكثرة هذه الأسباب بين سياسيَّة واجتماعيَّة وثقافيَّة، وأنَّها بدأت من قديم،

---

(1) خُطَب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدِّين والحياة، قطب عبد الحميد قطب، دار الاعتصام، القاهرة، لا يوجد تاريخ للطبعة، ص 10.

(2) نفس المصدر السابق: 18.

ولكنَّ الكيان الحيّ قد يُغالِب الجراثيم الوافدة ويهزمها، وقد يُصاب بها ويتماسك تحت وطأتِها، وربَّما استطاعَ العيش زماناً وهو يحسُّ بها ويعالجها بمُسكِّناتٍ موقوتة، بيد أنَّه سيقع فريستها آخرَ الأمر، ما دام لم يتناول دواء يجلب العافية، ويحسم البلاء[1].

كان الغزاليُّ يرى أنَّه من الخِسَّة أنْ تُترك المآسي النازلة بالمسلمين دون نَكيرٍ ولا تذكير، وأنَّ جمع هذه المآسي خلال قرون الضعف يحتاجُ إلى كُتُبٍ مطوَّلة[2]، فكانت عنايته بأسباب تأخُّر المسلمين من أدائِه للواجب الذي فَرَضَه على نفسِه، حتى أنَّه لمَّا سُئِل: أمحزونٌ أنت لِما يصيبُ المسلمين من كوارث في أرجاءِ العالَم؟ فقال: **ولِمَ لا؟ إنَّ الطعنة التي تصيبُ أحدهم في الفلبين أتأوَّهُ لها في القاهرة! فكيف إذا اشتعلت النار في دارِ الجار؟**[3].

- أسباب تأخّر المسلمين في نظره:

أوردَ الغزاليُّ في كتابه المذكور عدداً كبيراً من الأسباب التي رآها داعيةً لتأخُّر المسلمين في القرون الأخيرة، وهي التي عدَّها ضريبةً للتخلُّف والفُرقة والضَّعف، ويمكن حصرها في النقاط التالية:

---

(1) سِرّ تأخُّر العرب والمسلمين: 6.

(2) نفس المصدر السابق: 106.

(3) نفس المصدر السابق: 107.

أسباب تأخّر المسلمين عند محمّد الغزالي
الأخذ بقُشور الدِّين دون لُبِّه
غلبة التقاليد الاجتماعيَّة المنافية للشريعة
التقصير في حمل أعباء الدعوة إلى الله
عدم الاستفادة المُثلى من وقائع التاريخ
البحث الدائب عن الشقاق والخلاف
ضحالة المستوى الثقافي
غياب التخطيط الصحيح لإعادة بناء الأمَّة
ترك الساحة لأرباب المذاهب الماديَّة

– الأخذ بقُشور الدِّين دون لُبِّه:

شدَّد الغزاليُّ النَّكيرَ على العرب والمسلمين لجهلِهم الفاحش بشؤون الكون والحياة، سائلاً إيَّاهم: كيف تخدمون دينكم وأنتم صَرعَى تخلُّف علميّ مذهل؟

فعنده أنَّ أحد أسباب تأخُّرهم هو أخذهم بظواهر الدِّين الخارجيَّة دون حقائقه الداخليَّة؛ «إنَّ اللصَّ إذا كان عارفاً بأسرار البيت، ومرافقه، ومداخله، ومخارجه، وغرفاته، وسراديبه فهو أولَى به مِن ربِّ البيت الذي يعيشُ فيه دون أنْ يدري شيئاً من ذلك كلِّه.. إنَّ الله أسكنكم هذه الأرض كما أسكنَ غيركم، فكيف يسخِّر غيركم قواها، ويهيمن على مداها وأنتم في مكانكم لا تصنعونَ شيئاً؟ ماذا يشغلكم؟ التسبيح والتحميد؟ اللهُ يعلم أنَّكم عن طاعته مصروفون!.. إنَّ هذا المفيدة عقوبةٌ إلهيَّة على تناول الدِّين قشوراً لا حقائق، وعلى تحريفِ الكَلِمِ عن مواضِعه، لقد أسقطتم الأخلاقَ عن عرشِها فأعيدوها إلى مكانتها، وتعلَّموا التمامَ لا النقص، والجمالَ لا التشويه! إنَّ الانسانيَّة انضباطٌ لا فوضَى، والإسلام حكمةٌ ونظام لا أهواء جامِحة»[1].

ثمَّ ضربَ مثالاً بالدابة حين لا يربطها حبل، ولا يقفها قيد، فإنَّها تكون سائبة، أو حبلها على غارِبِها، فهي تنطلقُ كيف تشاء! فماذا يُقال للجماعة حين لا تربطها كلمة، ولا تضبطها عقيدة، ولا تقفها حدود من أخلاقٍ أو تقاليد؟ مستشهداً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾؛ (الكهف: 28) ذلك أنَّ «الجملة الأخيرة تدلُّ على أنَّ الأمر الفرط،

(1) نفس المصدر السابق: 122.

أو الوضع السَّائِب، أو المجتمع المحلول يجيءُ ثمرة غفلة القلب، واتّباع الهوى، سواء أكان ذلك في أحوال النفس أم في أخلاق الجماعة»[1].

– غلبة التقاليد الاجتماعيَّة المنافية للشريعة:

يرى الشيخ الغزالي بأنَّه يجب غربلة التقاليد الشائعة بين المسلمين غربلةً شديدة حتى لا يبقى منها إلا ما كانت له صلة بالشريعة، وعلى قدر قوَّة هذه الصِّلة وضعفها يكون استمساكهم بهذه التقاليد أو إهمالهم لها، ثمَّ ضربَ مثالاً لذلك بأنَّ نجاح التصنيع في العالَم العربيّ لا يتمُّ إلا بعد الإجهاز على التقاليد التي تزدري الاحتراف وتؤخِّر أصحابه؛ «إنَّ هذا الفِكر لا وزنَ له، ولا صِلَة له بالدِّين، وكلُّ ما انبنَى عليه من أحكامٍ فقهيَّة أو آثارٍ اجتماعيَّة فهو باطل، وخيرٌ لنا أنْ نتوبَ منه توبةً نصوحاً».

ونجده قد شدَّد النَّكير على مَن يتمسَّكون بتلك التقاليد التي تزدري الأنوثة، وتميلُ إلى اتِّهام المرأة وتجهيلها ومنع تردُّدها على المسجد واستبعادها من ميدان الأمر والنهي والغضّ مِن كفاءتِها إنْ أحسنت، ومضاعفة العقوبة عليها إنْ هَفَت؛ «تلك كلّها عادات من رواسب الجاهليَّة الأولَى، والأخذ بها مضادّ لتعاليم الإسلام نصًّا ورُوحاً»[2].

وقد أشارَ إلى معاناة المسلمين داخل أرضهم ذاتها نتيجةً لإغفال الشُّورى وتحكُّم الفرد، ومِن فقدان المال لوظيفته الاجتماعيَّة، كما عانوا من تحقير النساء

(1) نفس المصدر السابق: 123.

(2) نفس المصدر السابق: 26.

وحبسهن دون عِلمٍ ولا عبادة ولا تناصح، ثمَّ نشأ عن ذلك هبوطٌ إنسانيٌّ عام أزرَى بهم، وأسقط على مرِّ الأيام مكانتهم ورسالتهم وقَذَفَ بهم في مؤخِّرة القافلة البشريَّة بعد أنْ فقدوا الصَّدارة عن جدارةٍ لا عن ظلم.

ومِن أعراض غلبة هذه التقاليد، إشارته إلى أنَّ الانفصال الذي وقعَ للأمَّة في ميدان العلم بين رجال الشريعة ورجال التربية، قد انتهى بجعل الأخلاق عِلماً نظريًّا أو أدباً ثانويًّا، وجعل العبادات والمعاملات عاداتٍ موروثة، وتقاليد متَّبعة، وبذلك تقطَّعت الصِّلات بين الأمَّة والدولة، ثمَّ بين الأمَّة بعضها مع البعض الآخر، ابتعد الجميع عن روح الإسلام[1].

– التقصير في حمل أعباء الدعوة إلى الله:

بيَّن الشيخ الغزالي أنَّ تقصيرَ المسلمين في أمر الدعوة إلى دين الله تعالى بالحُسنى، مِن أبرزِ أسباب تأخُّر المسلمين، وقد أكَّد على أمر (الدعوة قبل القتال)؛ ذلك «أنِّي أُدرِك طبائع المخاصمين للإسلام وأنَّ تاريخهم لا يُشرِّف على اختلاف الليل والنهار، ومع ذلك فإنِّي أُوثِر التمسُّك بتعاليم ديني في أسلوب البلاغ وطريقة الدعوة! لن أسأم من الإطناب في الشرح والإفاضة في البيان والاحتيال على الوصول إلى القلب الإنسانيّ من كلِّ طريق .. والناسُ تحجبهم عن الحقِّ ظلماتٌ شتَّى، قد يعيشون ويموتون فيها، ونحن – المسلمين – مكلَّفون برفع المصباح حتى يهتدي الحيارى، وأخشى من مساءلة الله لنا: **لماذا عاشت أممٌ دون أنْ تعرفني وتعرف كتابي؟ ودون**

(1) نفس المصدر السابق: 95 – 96.

أنْ تبصر سبيلي وتتبع رسولي؟؟ وقد اخترتكم لتقوموا بهذه الوظيفة، وتنهضوا بأعبائها؟؟»[1].

ومن خلال استقراء التاريخ، استشفَّ الغزالي دَوْر القيادة الذي قامَ به الدُّعاة عبر تاريخ الإسلام الطويل؛ يوم أن انطلقَ الفقهاء والمربُّون والتُّجار إلى شرق آسيا وجنوبها، وإلى شاطئ الأطلس الشرقيّ في إفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى، ما تسبَّب في نشوءِ وضعٍ عجيب عقب ذلك الانسياح الباهر، حيث دخلت أقطار في دينِ الله، إلا أنَّه أشارَ إلى عجز أجهزة الدعوة المركزيَّة في الحواضر الإسلاميَّة الكبرى وقتئذٍ — مثل بغداد أو القسطنطينيَّة — عن متابعة ذلك الجُهد الدعويّ المبذول؛ نتيجةً لانشغالهم بأعباء السياسية والتقاتل على السلطة.

– عدم الاستفادة المُثلى من وقائع التاريخ:

تبنَّى الشيخ الغزالي القولَ بتأخُّر المسلمين نتيجةَ (قصور الحُكم وأثره في الاضطراب العلميّ)، وهو ما تمثَّل في حركة الترجمة التي قادَها الخلفاء العباسيُّون، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: «لقد تدبَّرتُ قضية الترجمة التي نقلت إلى لغتنا العربيَّة تراثَ أممٍ أخرى أهمّها اليونان .. **أكُنَّا – نحنُ المسلمين – فقراء إلى هذه المعارف المنقولة؟**».

وقد بادرَ بالإجابة عن ذلك التساؤل بأنَّه منهومٌ إلى الاطّلاع على كلِّ ما لدى الآخرين من علمٍ، وأنَّه لا يُرخِّص حكمةً جاءت من عدوٍّ، ولا يُزهِّد في حصاد الذكاء البشريّ مهما كان موطنه.. «بيد أنَّ ذلك لا يعني تأخير

(1) نفس المصدر السابق: 33 – 34.

ما لديَّ، واستقبال الجديد بحفاوةٍ تُنسي الأصل؛ إنَّني أعرفُ اللهَ عن اتصال، فلديَّ نبوَّة وبين يديَّ وحي، وغيري يعرفُ اللهَ عن استدلال؛ لأنَّه محرومٌ من العلاقة التي ظَفِرتُ بها، واستدلاله تارة يقوم، وتارة يكبو .. **فكيف أُزاحِم القديم الأصيل، بدخيلٍ خفيف الوزن؟**».

ثمَّ جاءت إشارته إلى أنَّ المطلوب من هؤلاء الخلفاء العباسيّين أنْ يترجموا الإسلامَ للناس في كلِّ قُطرٍ، لا أنْ يترجموا للمسلمين أفكار وخيالات الأمم الأخرى؛ «إنَّ عالَمِيَّة الرسالة الخاتمة تفرضُ على خلفاء مُحمَّد ﷺ – لو كانوا صادقين في هذه الخلافة – أنْ يترجموا حقائقَ الدِّين وأحكامه السياسيَّة والاجتماعيَّة، ومبادئه الروحيَّة والخُلُقيَّة، وأنْ يضعوا جوائز سنيَّة لِمَن يقومُ بهذا الجُهد، ويذهب به في آفاق الأرض ليشرح صدوراً وينير عقولاً.. لكنَّ هؤلاء الخلفاء الورثة لم يكونوا على مستوى المناصب التي احتلوها، فكان ما كان».

وفي موضعٍ آخَر، نجده يُحمِّل العرب المسؤولية عمَّا يقع الآن للإسلامِ من أحزان؛ «إنَّ تفرُّقهم الشائن أيام الحملة الصليبيَّة الأولَى هو الذي فتح الطريق إلى القدس، وجعل الجثث أكواماً في البلد المحروب، وهم اليوم يكرِّرون الخطأَ القديم، بل ضمُّوا إليه تقطيع الصفوف وتوهين العقيدة، وتهوين الأخلاق وعربدة الشهوات.. ومع أنَّني عربيّ إلا أَنِّي أشعرُ بالخجل للمواقف التي وقفها العربُ من إخوانهم وسط آسيا وشرقها وجنوبها، وبَدَت آخر الأمر في مشكلة أفغانستان، إنَّ الدول العربيَّة الضالعة مع روسيا تنكَّرت لها بل تجاهلتها في وضاعةٍ عجيبة، والدول الباقية قدَّمت مساعداتٍ تافهة، لا تبلغ أبداً مستوى المعركة بين الكفر والإيمان.. إنَّ العربَ أنانيُّون لا يهتمون إلا بأنفسهم

وقضاياهم، وتأخيرهم الأخوَّة الإسلاميَّة عن الجنسيَّة العربيَّة سيجرُّ عليهم العارَ والنار في الدنيا والآخرة»[1].

– البحث الدائب عن الشِّقاق والخلاف:

يرى الشيخ الغزالي أنَّ أحد أهمّ أسباب تأخُّر المسلمين في الأعصر الأخيرة هو بحثهم الدائب والمستمر عن القضايا الخلافيَّة في مجال العقيدة والفقه وغيرها من علوم المسلمين، وكان الأولَى بهم في هذه الأيام النحسات – التي تكالب فيها أعداءُ الإسلام – أنْ يبحثوا عمَّا يجمعهم ولا يفرقهم.

«في فجر النهضة العلميَّة الحديثة في بلادنا، ألَّف الشيخ محمد عبده (رسالة التوحيد)، اجتهد الرجل فيها أنْ يعرض عِلمَ العقيدة في ثوبٍ جديد، فابتعد عن الجدل، وأبَى أنْ يلمزَ واحداً من المتكلِّمين، وعدَّهم جميعاً إخوة يبحثون عن الحقّ، ثمَّ شرح القضايا الأصليَّة في ديننا شرحاً حَسَناً، وقدَّم لها خلاصاتٍ نقيَّة.. وتألَّقت بعد (رسالة التوحيد) كتبٌ في العقيدة بَنَتْ ولم تهدم، وجمعت ولم تُفرِّق، وتحاشت الماضي الذي قسَّمنا في المجال الثقافيّ والسياسيّ فِرَقاً يشقَى بها المؤمنون ويسعد بها الكافرون، وأسهمتُ أنا في هذا الميدان بكتابي (**عقيدة المسلم**) الذي ألَّفته من 35 سنة تقريباً، وأرجو أنْ ينفعَ اللهُ به.. لكنَّ هُواة الشِّقاق يأبونَ إلا استحياء الخلاف، وما أغنانا عنه!

(1) نفس المصدر السابق: 108 – 109.

إنَّ ثقافتنا الإسلاميَّة كلَّها عندما تُعرَض الآن ينبغي أنْ تُغربل بدقَّة، حتى يتساقط التَّافِه في صمتٍ، ويبقى ما ينفعُ الناس، ونحمدُ الله أنْ بقي كتابه محفوظاً، وأنْ بقيت السّنَّة محروسةً بالعلماء الثِّقات والفقهاء والأُمناء»[1].

وقد حكَى - في موضعٍ آخر - موقفاً له مع أحد الطلبة الجامعيين، للدلالة على ذيوع قضية البحث عن الشقاق العَقَديّ حتى بين أوساط هؤلاء الطلبة الأغرار[2]؛ فقد سأله أحدهم عن قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن]، فقال له: المعنى واضح، العالَم كلُّه سوف يتلاشى، وينتهي وجوده، فأمانيّ الخلود سرابٌ خادع، وللبشرِ بعد هذا الهلاك العام صحوة يواجهون فيها ما قدَّموا لأنفسِهم عندما كانوا يُختبرون على ظهر الأرض، على نحو ما قال الشاعر:

لا دار للمرءِ بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها

واستطرد يقولُ للطالب: وجهُ الله هو الباقي، وهو ما ينبغي أنْ نقصده بأعمالِنا دون تعويلٍ على غرضٍ آخر من مالٍ، أو جاهٍ، أو طلبِ ولاءٍ، أو ابتغاءِ مكانةٍ، كما قال تبارك اسمه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. (الإنسان: 9).

وفي أثناء حديثه إلى الطالب، فوجئ الشيخُ به إذ يقول: ما عن هذا أسأل! أنا أسألُ عن تفسير كلمة (الوجه)، فكَظَمَ الشيخُ غيظه وأجابه ببرودٍ:

---

(1) نفس المصدر السابق: 61 – 62.

(2) الغِرُّ: مَن ينخدع إذا خُدِع [للذّكر والأنثَى]، ج: أَغْرار، غِرار. انظر: المعجم الوسيط: 648.

سؤالٌ لا معنَى له؛ إنَّ لغات البشر كلّها أعجزُ وأقلّ من أنْ تصفَ الجلالَ الإلهيّ، ونحنُ مكلَّفون أنْ نؤمن بالله وأسمائه الحُسنى، دون تقعُّرٍ فيما يستحيلُ إدراكه، إنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيء، إنَّ الذبابة التي تطنُّ حولي لا تدري ولا تستطيع أنْ تدري شيئاً عمَّا يدورُ في رأسي، وما أخطُّه بقلمي، كذلك أنا وغيري بالنسبةِ إلى الذَّات العُليا، بل نحنُ أدنَى وأضأل..

يا بنيّ: لا تؤذوا الإسلامَ باسمِ الإسلام! مرُّوا على هذه الآيات وأشباهِها كما يمرُّ العلماء بالضوء، ينتفعون به ولا يعرفون كُنْهَه مهما حاولوا .. إنَّ الانشغال بهذه البحوث لونٌ من البطالة المقنَّعة، واستحياء المعارك القديمة هو تجديدٌ لمعارك الهزيمة! وشغلٌ للمسلمين بما يضرُّهم ويفيدُ عدوّهم!

إنَّ الآيات المحكَمات هنَّ أُمُّ الكتاب، فما الذي يصرفكم عن فِقهِها والعملِ بها، والدخول في متاهاتٍ لا معنَى لها؟ أرجو ألا أسمع هذا السؤال أبداً»[1].

– ضحالة المستوى الثقافيّ:

يزعم الشيخ الغزالي أنَّ عدم وضع حد أدنَى لثقافة المسلم كان أحد أسباب حالة التأخُّر الذي لحقت بعامَّة الأمَّة؛ ذلك أنَّه «لو كان الإسلام فلسفةً أخلاقيَّة لأمكنَ أنْ ينهضَ به بعضُ الوعَّاظ والمربّين، ولو كان نظاماً سياسيًّا فقط لأمكنَ أنْ يقومَ به حزبٌ من الأحزاب الراغبة في الحُكم؛ **إلا أنَّه مجموعُ الأمرين**، والتعريف به والبقاء عليه لا يتمُّ إلا بصياغةٍ علميَّةٍ شاملة»[2].

(1) نفس المصدر السابق: 103.

(2) نفس المصدر السابق: 63.

ومِن أعراض هذه الضَّحالَة، إشارته إلى أنَّ التصوُّرات الثقافيَّة لكثيرٍ من المتديِّنين هي موضع دهشة؛ ذلك أنَّ منهم «مَن يؤلِّف ضدّ دوران الأرض حول الشمس، ويُؤيِّد موقف الكنيسة في العصور الوسطى، ويدَّعي مع ذلك أنَّه سلفي! ويوجد مَن يأمرُ التلامذة بتخريقِ صور الأحياء في كُتُبِهم؛ لأنَّ التصوير محرَّم، ويوجد مَن يهاجم كون الأمَّة مصدر السلطة، ويوجد من يحسب إقام الصلاة مُغنِياً عن تعلُّم الصناعات، ويوجد مَن يعيش مع أعداء الإسلام في القرن الرابع، يهاجمهم وينالُ منهم، ولا يدري شيئاً عن أعداء الإسلام في هذا القرن! .. ألا يمهِّد هذا كلّه لإلحادٍ مدمِّر؟؟»[1].

فعنده أنَّ الثقافة التي آلت إلينا في القرون الأخيرة كانت ضحلةً آسِنَة، لا في مجال المعرفة الدينيَّة وحدها، بل في مجال الأداء الأدبيّ كذلك، وأنَّ هذه الثقافة كانت أعجز من أنْ تصنعَ أمَّة تنهضُ برسالتها، وتخدم كتابَ ربِّها وسُنَّةَ نبيِّها، «كانت ثقافتنا في العصور الأولى تصنع أجيالاً عارمة، قادرة على المحوِ والإثبات، تحترمُ الحقائق وتعشقُ الفضائل، تضعُ خريطة الدُّنيا أمامَ عينيها، وتنظرُ إليها كما ينظرُ لاعب الشطرنج في رقعته ينقلُ أحجارها كيف يشاء! .. ثمَّ أخذ الأدب شعراً ونثراً يهبط حتى أمسى وصفاً لشمعةٍ أو نُصحاً لتلميذٍ كسول، وكذلك هبط العِلم الدينيّ وتقوقعَ رجاله في تخصُّصاتِهم الدينيَّة لا يمدُّون أنوفهم وراءها؛ فعالِم التجويد يعيشُ في عالَمٍ من الغُنَنِ والمُدود، والفقيه في العبادات يحيا في ميدان الأغسال والطهارات.. وهكذا»[2].

---

(1) نفس المصدر السابق: 95.

(2) نفس المصدر السابق: 126.

وهذا ما دعاه للقول بأنَّنا فقراء إلى علماء من طِرازٍ رفيع، فالقحط الثقافيّ الذي حلَّ بتاريخنا من عدَّة قرون أتاحَ للاستعمار أنْ يصنعَ بنا الدَّواهي! لقد دقَّ أبوابنا، والجهل العام آخذٌ بخِناقِنا، في علوم الدِّين وفي علوم الدُّنيا على سواء[1].

فعلى المسلم أنْ يكون على بيّنةٍ من عناصر الإيمان الأولَى؛ وعلى رأسها: **خشيةُ الله، ورجاؤه؛** «وقد تأمَّلتُ في قعود القاعدين، واستسلام المقهورين، فَلَم أرَ له عِلَّة إلا عدم الرَّجاء في الله، وما ضاع الرَّجاء إلا مع ضياع اليقين». كما يجب عليه أن يعي أنَّ **الصبرَ والشُّكر** هما رُكنا الإيمان، بعد أنْ يتحوَّل من صورةٍ ذهنيَّة إلى واقعٍ عمليّ؛ «ولستُ أتحدَّث عن فضيلتي الصبر والشكر المعتادين بين الناس، إنَّما أعني صبراً يحسُّ صاحبه أنَّ لله ما أخذ ولله ما أعطى، وأنَّ حقَّ العبوديَّة التحمُّل دون تململٍ وضجر، فإذا حُرِم المرءُ ما يحبّ، أو كُلِّف ما يكره، نظر إلى ربِّه في تسليم، واستقبل قضاءَه دون سَخَط. وكذلك إذا طرقت النعماءُ بابه، لم يطش لها لُبُّه، أو يتملَّكه الغرور فيحسب أنَّها جاءت إلى صاحبها الجدير بها .. كلا إنَّ اختبار الناس بالسَّراء أصعب من اختبارهم بالضَّراء، والساقطون في امتحانات الرَّخاء أضعاف الساقطين في الميدان الآخر»[2].

وعليه في الوقت نفسه أنْ يعلم أنَّ توفير الأسباب مطلوب، بل الغفلة عنها جريمة! وقد قال الله سبحانه: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾، (النساء: **102**) «والغريب أنَّ

(1) نفس المصدر السابق: 83.

(2) نفس المصدر السابق: 66.

المسلمين طالما غَفَلوا، وطالما ذَهَبوا بدداً إثر ميلةٍ واحدةٍ من أعدائِهم المتربِّصين، ومع تنويهنا بقانون السببيَّة، وقيمة العوامل الماديَّة، نريدُ إيضاح حقيقةٍ مقرَّرة في الأرض والسماء؛ هي أنَّ الأمور لا تبلغُ تمامها إلا بإذنه تعالى، فما ينقطعُ مقطوع، ولا يتَّصلُ موصول، ولا ينبتُ نبات، ولا يحيا حيّ إلا وفق المشيئة العليا. والإنسان قد يملكُ أسباباً ولكنَّه لا يملكُ الأسبابَ كلَّها، ولو ملكها كلَّها فهو لا يملكُ الأسبابَ المضادة لها، بل إنَّ تيار الحياة الذي يمدُّ القلبَ بالنبض، والعقلَ بالفِكر، والأعصابَ بالحسّ، ليس مِلكَ الإنسان نفسه، بل. مِلك واهب الحياة الذي له الخلقُ والأمر، وبيده النفعُ والضُّر، والهزيمة والنصر، والتقديم والتأخير.. من أجل ذلك يجب التوكُّل على الله والركون إليه والاعتقاد أنَّ النتائج المرتقبة لكلِّ سعي مرهونة بمشيئته وحده، ويتأكَّد هذا التوكُّل في الفترات المُرَّة التي يضعُف فيها الحقّ، وتقلّ الأسباب الماديَّة معه، وتفحش مع المبطلين».

أمَّا **حبُّ الله**، فجمهور المسلمين يحسبُ هذا الحبّ صفةُ كمال، أو درجة عليا لبعض العابدين، وهذا غلطٌ شنيع، فإنَّ فقدان هذا الحبّ فسوق، ويغلب أنْ ينتهي إلى الكُفر البَواح. وإذا تطرَّقنا للحديث عن **ذِكرِ الله**، ربَّما قال بعضهم: نزعةٌ صوفيَّة، والواقع أنَّ عصرنا هذا من أفقر العصور إلى معرفة هذا الرُّكن، وإنَّه يكاد يهلك جفافاً لنسيان الله، وركضه وراء مآربه.

ومِن أظهر عناصر الإيمان **التَّوبة**؛ فهي خُلُقٌ لا ينفكُّ عنه مؤمن، وقد انقسمت حوله الفِرَق إلى طوائف شتَّى، إلا أنَّ جمهور العلماء على أنَّه مَن لم يتب من ذنبه فأمره مفوَّضٌ إلى ربِّه، ما دام قد مات على التوحيد، إلا إذا استباحَ حراماً أو جحدَ فريضةً فهو بذلك ينسلخُ عن الإيمان.

– غياب التخطيط الصحيح لإعادة بناء الأمَّة:

يرى الشيخ الغزالي غيابَ التخطيط من أهمّ أسباب التأخُّر الحاصل للمسلمين؛ ذلك أنَّ الله يوصي الجماعة الإسلاميَّة أنْ تتعاون على البرِّ والتقوى، وأنْ تتواصى بالحقِّ وبالصبر، وكان المفروض في مجتمعٍ حكيم متَّزن أنْ تفشو فيه الأجهزة التي تُيسِّر الزواج لتمنع الزِّنا، والتي تجمع الزكاة لتُحارب الفقر، والتي تتعهَّد الأوقات لتُقيم الصلوات، والتي تُقيم المدارس لتنشر العلم، والتي تؤسِّس المطابع لتنشر الكتاب.. إلخ.

غير أنَّ هذه الأجهزة تكوَّنت تلقائيًّا في عصورٍ متقطِّعة، أو تكوَّن ما يؤدِّي رسالتها، ثمَّ بقي الإسلام في (وصاية) الأفراد؛ لأنَّ الحكومات كانت في وادٍ آخَر.. **فكيف تتوطَّد (الحِكمَة) أو يعتدل الميزان في هذا الجوِّ النَّكِد؟**

إنَّ الأخلاق كالزَّرع الذي يحتاج في نمائِه ونضجه إلى متابعةٍ ورعاية. والتقاليد التي تُمسِك الأمَّة وتمنع ميزانها أنْ يَجور أو يغش تحتاج هي الأخرى إلى عقلٍ ناقد وضميرٍ حارس. وقد رأيتُ الأخلاق والتقاليد عندنا تحيا وحدها، أو تبقى في ضمان أفرادٍ طيِّبين! **أي أنَّ الأمر يخضعُ للمصادفات العارِضَة لا للسياسات المرسومَة**.. وقد نتجَ عن ذلك – مع ما أصابَ الإسلام أخيراً من هزائم – أنْ صارَ الكثيرون يحيون بلا هدف، ويتجمَّعون ويتفرَّقون بلا رباطٍ ولا وعي ولا انتماء، ويستحيل أنْ يقومَ للإسلام مجتمع بعد هذا التفكيك الشائن، بل هذا طريق التَّلاشي والفَناء[1].

(1) نفس المصدر السابق: 74.

فهو يتبنَّى القول بأنَّ التخطيط الصحيح لإعادة بناء الأمَّة هو بـ (**إقامة الميزان**) الذي أنزله الله مع كتابه؛ يحقّ الحق، ويُبطِل الباطل، ويحترم تقاليد الشرف، ويُرسي دعائم الأخلاق.

كما أكَّد على أنَّ مِن أسباب صحَّة التخطيط: تجويد علوم الدنيا، وهو الذي طلبه الإسلام من أتباعه لأمورٍ ثلاثة:

أوّلها: أنَّ تعمير الأرض جزءٌ من رسالة الإنسان على ظهرها، جزءٌ من العبادة التي خُلِق من أجلِها، جزءٌ من الكدح الذي يصون به نفسه وأهله وشرفه.

والثاني: أنَّ اللهَ لم يخلق الإنسان ليشقى، ويجوع ويعرَى، بل خلقه مكرَّماً يحمله ما في البرّ والبحر، وأحلَّ له الطبيات، ويسَّر له الزينة والجمال، بما فوقه من نجومٍ وبما بين يديه من زرعٍ وضَرْع.

الثالث: هو الذي لا نسأم من تكراره، فإنَّ الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدِّين لا يمكن أنْ يتم ولا أنْ ينجح بعيداً عن التفوُّق المدنيّ والحضاريّ.

والأمَّة الإسلاميَّة كي تكونَ على مستوى دينها، وكي تنجحَ في المحافظةِ عليه، وكي تستطيع إفهامه للآخرين؛ **لابدَّ أنْ تكونَ راسخةَ القدمين في شؤون الحياة كلّها**، بل يجب أنْ تكون سبَّاقة في شتَّى الميادين، مسموعة الكلمة في آفاق العلم برًّا وبحراً وجوًّا.

ونجده يؤكِّد على أنَّ السبب المهمّ في التخلُّف الحضاريّ هو شيوع التديُّن المزيَّف، ووقوع الثقافة الدينيَّة إجمالاً بين طوائف من ذوي المعادن

الرخيصة أو العقول المعتلَّة.. «فكلُّ عِلمٍ يطوي مسافة هذا التخلُّف هو مِن أركان الدِّين، وفرائض العبادات العينيَّة والكفائيَّة، وهو أولَى من نوافل العبادة ومسائل الخِلاف التي برع فيها الفارغون واشتغل بها المتنطِّعون»[1].

– ترك الساحة لأرباب المذاهب الماديَّة:

أوضح الغزاليُّ في أكثر من موضعٍ أنَّه لولا تقاعس المسلمين عن أداء رسالتهم الكبرى في التعريف بحقيقة دينهم، لما انتشرت تلك المذاهب الماديَّة مثل الإلحاد وغيره على هذا النحو؛ فـ «الواقع أنَّنا – نحن المسلمين – المسؤولون الأوائل عن ظهور هذا الإلحاد في بلاده، وعن مُصاب الإنسانيَّة عامَّة به، ثمَّ عن اكتوائِنا بنارِه بعد ذلك.. فلولا تقاعسنا عن أداء رسالتنا الكبرى، ما كانت المعركة بين العلم والدِّين، وما استفحلَ خطرُ الإلحاد على هذا النحو المزعج، وما استشرت المذاهب الماديَّة وفَتَكَت بالجماهير كما نرى.. كان لدينا ما يقنع العقل المتطلِّع المستكشف، وكان لدينا ما يُشبِع الطبيعة البشريَّة المتشوِّقة إلى الرضا، وكان لدينا ما يوفِّر الكرامة الفرديَّة والاجتماعيَّة لإنسانٍ نفخَ اللهُ فيه مِن روحِه، فهو يبغض الهَوان والإهانة .. لكنَّنا جَهِلنا، أو تجاهلنا ومضينا في طريقٍ آخر، أحيينا فيه مساوئ أهل الكتاب السابقين.

لكنَّ أُمتنا – عفا اللهُ عنها – اعتراها إغماء، ولا أقول موت، فلم تؤدِ الوظيفة المنوطة بها، وذهلت عن عالَمِيَّة الرسالة التي كُلِّفَت بأدائِها، وحسبت

(1) نفس المصدر السابق: 77.

أنَّ الإسلام نظام داخليٌّ لها وحدها فقبعت وراء حدودها، تحيا وفق ما يُتاح لها من حياة، وتمزق أردية الإسلام التي لفَّتْها الأقدار بها لتُواري سوءاتها، وما زالت كذلك حتى وثب خصومها عليها، ليلغوا أولاً شريعتها، ثمَّ لينقضوا بنيان العقيدة التي تقومُ عليها».

ثمَّ تساءل في مرارةٍ: أين خلفاء مُحمَّد ﷺ، لا أقول ليُخرِجوا العالَم من الظلام إلى النور، بل ليُخرِجوا أُمَّتهم من الظلام إلى النور!

ويُتابِع قائلاً: «إنَّ الإلحاد يتحدَّى، وله الحقّ، فقد خلا الجوُّ له، والعلم الدينيّ والتطبيق الدينيّ غير مؤهلين للنصر بما يحملان من جراثيم الضعف والعجز.. **إنَّ المذاهب المادِّية تستغلُّ أخطاء الفكر الدينيّ في إحرازِ انتصاراتٍ كبيرة، وتستهوي الناس بما تقدِّم من حلولٍ سريعة لمشكلاتهم على حين يتَّصف المتديِّنون بالتعقيد، وضعف الإحساس بمعاناة الناس.**

إنَّ القرآن الكريم يصفُ البشريَّة المُصابَة بهذا التديُّن وصفاً يجعلها أنزل رتبةً من الذين لم يتديَّنوا أصلاً: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ (البقرة: **213**).

البغي، وقسوة القلب، إيثار الشكل، وتجاهل الأركان، وغير ذلك من الأمراض النفسيَّة؛ هوَّن من قيمة الدِّين وأثره.. وعندما يخدم المتديِّنون الاستبدادَ السياسيّ ويجحدون قاعدة الشورى، فإنَّ الباب سوف ينفتحُ لديمقراطيَّةٍ تُسوِّي بين الطاهرِ والعاهر. وعندما يعيشون في كَنفِ ذوي الثَّراء،

ولا يُبالون من أين يكسبون، ولا فِيمَ ينفقون، ولا يتساءلون عن الحقّ المعلوم، أخرجَ أم لم يخرج، فإنَّ الباب ينفتح لماركسيَّةٍ تكفُرُ بالله، وبالإنسانِ معاً»[1].

وقد حدَّث أنَّه لقي نفراً من الشبَّان الملحدين، فحاورَ بعضهم يبغي استكشاف ما في نفسِه، فوجدَ فكرتهم عن الله أشبه بفكرة اللَّقيط عن أبيه، لا يعرفُه ولا ينصفُه، ووجدَ جمهرتهم تفكِّر بهذا الإله عن تقليدٍ أعمَى، وغرورٍ بليد، فهم يحسبون أنَّ العلم والإيمان ضدَّان، وأنَّ الارتقاء الثقافيّ يصحبُه حتماً إقصاء الدِّين عن الطريق، «ثمَّ هم يَرَوْن أنفسهم – وإنْ لم يدرسوا شيئاً طائلاً من علوم المادة – قد أصبحت لهم مكانة العلماء الذين فجَّروا الذرَّة، فهم يصطنعون نظرتهم نفسها عن الحياةِ وخالقها كما تُحكى لهم، لا كما هي على حقيقتها، ومِن ثَمَّ فهُم يتَّبعون الأخسَّ، من قصورٍ في العلم، وسوءٍ في التقليد!!»[2].

(1) نفس المصدر السابق: 93 – 94.

(2) جدد حياتك: 169.

الخاتمة

إنَّ أبرز ما ميَّز الطَّرح الفكريّ النهضويّ الذي عالَج به التيار الإصلاحيّ حالة الأمَّة المتردِّية هو التركيز بشكلٍ كبير على الأمراض الداخليَّة، والعكوف على تحليل الوضع الذَّاتي للأمَّة والاجتهاد لإيجاد مكمن الخلل فيها؛ إيماناً منه أنَّ الانتكاسة التي أصابتها كانت نتيجة أخطائها وانحرافاتها، وقد زادَها الاستعمار الغربيّ ضعفاً على ضعف، ثمَّ تحديد آليات التعامل مع الحضارة الغربيَّة ومنجزاتها[1].

وقد عنيت هذه الدراسة بتتبُّع آراء عشرة من أعلام هذا التيار الإصلاحي على امتداد قرنٍ من الزمان (1896 – 1996م)، مِمَّن عكفوا على توصيف أسباب تأخُّر المسلمين على المستويين الداخليّ والخارجيّ، وذلك على اختلاف توجُّهاتهم الفكريَّة وآرائهم الإصلاحيَّة التي أودعوها في مدوَّناتِهم وخُطَبِهم؛ فكان طرحهم الفكريّ على جانبٍ كبير من الأهميَّة نظراً لتناوله أسبابَ التأخُّر من عدَّة مسارات..

ففي المَسَار السياسيّ، جاء طرحهم محذِّراً من سريان (طبائع الاستبداد) في طائفة الحُكَّام، فكان طَرْح سعيد النُّورسي للشُّورى الإسلاميَّة بوصفها «مفتاح سعادة المسلمين في حياتِهم الاجتماعيَّة»[2]. وفي رأي عبد الله النّديم، فإنَّ خَوْف هؤلاء الحُكَّام من تطبيق الشُّورى مردُّه إلى «الجهالة التي عمَّت الأمم الشرقيَّة، فَلَم

(1) المسلمون وسؤال النهضة (مصدر سابق): 350.

(2) صيقل الإسلام (الخُطبَة الشاميَّة): 483.

يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانِهم ووُجهائِهم، ولا يحبّون كثرة العقلاء خوفاً من التغلُّب الذي يحلم به كلّ مَلِكٍ شرقيّ، وهو وَهْمٌ لا حقيقةَ له»[1].

أمَّا في المَسَار العلميّ، فقد جاء طرحهم مشدِّداً على تجنُّب العِلم الناقص الذي وصفه شكيب أرسلان بأنَّه أشدُّ خطراً من الجهل البسيط؛ لأنَّ الجاهل إذا قيَّض الله له مرشداً عالِماً أطاعه ولم يتفلسف عليه، فأمَّا صاحب العِلم الناقص فهو لا يدري ولا يقتنع بأنَّه لا يدري[2]. وهو الذي مِن مظاهِره: عدم الفهم الصحيح لحقيقة الدِّين، الذي ابتُلي به كثيرٌ مِن المسلمين في القرون الأخيرة، حتى رأى فريد وجدي أنَّ دواء المسلمين الوحيد هو «أنْ يفهموا معنى الإسلام، ويدركوا أنَّ غرضه الأوّل هو ترقية حالتي الإنسان الماديَّة والأدبيَّة معاً؛ لارتباطهما ببعضِهما ارتباطاً كليًّا»[3]، وقد ظهر ذلك في اعتقاد بعضهم أنَّ التخلُّف وعدم اللحاق بركبِ الحضارة أمرٌ راجع إلى الدِّين الإسلاميّ، وهو التصوُّر الذي أبطله سعيد حليم باشا عندما بيَّن أنَّه ليس نابعاً من الحقائق التاريخيَّة والتجارب المجتمعيَّة في التاريخ الإسلاميّ؛ وإنَّما نابعٌ من النظرة التابعة للتصوُّرات المسيحيَّة في الغرب؛ «لذلك فإنَّ الاعتقاد بأنَّ الشريعة الإسلاميَّة هي سبب تخلُّفنا اعتقادٌ باطلٌ وفارغٌ ومُبالَغٌ فيه، ولا يمكن أن يكون دليلاً بحالٍ على النقص في ديننا»[4]. كما رأى محمَّد الغزاليّ أنَّ هذا الطَّمْس الذي

(1) بِمَ تقدّم الأوروبيّون وتأخّرنا .. والخلقُ واحد: 136.

(2) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 53.

(3) المدنيَّة والإسلام: 167.

(4) الرسائل الكاملة لسعيد حليم باشا، رسالة (التعصُّب): 90 – 91.

لَحِقَ بالمسلمين في القرون المتأخرة إنَّما هو عقوبةٌ إلهيَّة على تناول الدِّين قشوراً لا حقائق، وعلى تحريفِ الكَلِمِ عن مواضِعه[1].

ومِن الأسباب العلميَّة التي أثارها أبو الحَسَن الندْوي: قلَّة الاحتفال بالعلوم المفيدة مثل الطبيعيَّات، في مقابل الاعتناء بعلومِ ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهيَّة التي تلقَّوها من اليونان، وقد أغنَى اللهُ المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب[2]. وعند التحقيق نجد أنَّ هذا السبب فرعٌ من الجهل بقوانين الطبيعة الذي عبَّر عنه سعيد حليم باشا بقوله: «لقد تمتَّعَ بالقوّة الماديَّة والسعادة الدنيويَّة أولئك الذين عرفوا كيفيَّة الاستفادة من خيرات الطبيعة، ومعلومٌ للجميع أنَّه للاستفادة مِن هذه النِّعَم، لابدَّ من معرفة القوانين التي تحكم الطبيعة، والحصول على العلوم المستمَدّة من هذه القوانين، وعندما تُعرَفُ هذه الحقيقة على هذا الوجه، فيجب الاعتراف بأنَّ سبب تخلُّفِ المسلمين هو جهلهم تجاه هذه العلوم والفنون»[3].

ولم يكتفِ سعيد النُّورسي بِنَقْد هذه الأوضاع العلميَّة المزرية التي جعلت العالَمَ الإسلاميّ على حافة الهاوية، بل دعا إلى تأسيس (مدرسة الزهراء) في شرقي تركيا، وشَرَطَ أنْ تُدرَّس فيها المواد العلميَّة جنباً إلى جنبٍ مع العلوم الدينيَّة؛ إذ كان يرى أنَّ المدارس الحكوميَّة الاعتياديَّة تدرِّس القوانين العلميَّة دون التأكيد على أنَّها نواميس إلهيَّة، وأنَّ المدارس الدينيَّة تدرِّس العلوم الدينيَّة

(1) سِرّ تأخُّر العرب والمسلمين: 122.

(2) ماذا خَسِر العالَم بانحطاط المسلمين: 148.

(3) الرسائل الكاملة لسعيد حليم باشا، رسالة (النظام السياسيّ في الإسلام): 154.

دون الإشارة إلى العلوم الحديثة، لذا فالإصلاح يبدأ مِن قيام المدارس الحكوميَّة بتدريس الدِّين بجانب العِلم لكي لا ينحرفَ الطلابُ إلى الشكِّ وإلى الإلحاد، وقيامِ المدارس الدينيَّة بتدريس العلوم الحديثة لكي لا ينحرف طلابها إلى التعصُّب أو إلى ضيقِ الأُفُق، فكانَ من كلامِه في ذلك: «إنَّ ضياءَ القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهِما تتجلَّى الحقيقة، فتتربَّى همةُ الطالبِ وتعلو بكلا الجناحَين، وبافتراقهما يتولَّد التعصُّب في الأولى والحِيَل والشُّبهات في الثانية»[1].

وقد سبقه فريد وجدي في مصر بالدعوة إلى تأسيس (مدرسة العلوم العاليَة) التي جعل الغرضَ منها «تخريج فرقة من حَمَلَة العلوم الدينيَّة، في المعارف العصرية والفلسفة الحديثة، ليكونوا على بينةٍ من أمرِ الدفاع العصريّ عن هذا الدِّين الحَنيف»[2].

أمَّا في المَسَار الأخلاقيّ، فقد جاء طرحهم معاتباً لعامَّة الأمَّة على التفريط في جانب الأخلاق الإسلاميَّة، حتى عدَّ النُّورسي هذا المَسَار على رأس الأمراضِ الستَّة التي جعلت المسلمين واقفين على أعتاب القرون الوسطى[3]، وقد رأى شكيب أرسلان أنَّ تأخُّرهم إنَّما أتَى مِن «فَقْدِ الفضائل التي حثَّ عليها القرآن، والعزائم التي حَمَلَ عليها سلف هذه الأمَّة، وبها أدركوا

(1) سيرة ذاتية: 567 – 568.

(2) محمَّد فريد وجدي (حياته وآثاره): 129.

(3) صيقل الإسلام (الخُطبَة الشاميَّة): 461.

ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف»[1]. في حين وضع عبد الرحمن الكواكبيّ المسار الأخلاقيّ في المرتبة الثالثة بعد المسارين الدينيّ والسياسيّ.

وقد تنبَّه الكاتب والسياسيّ البريطاني المسلم مرمدوك بِكثال[2] لأهميَّة هذا المسار في نهضة المسلمين، فقال: :إنَّ المسلمين يُمكنهم أنْ يَنشروا حضارتَهم في العالَمِ الآنَ بنفس السرعةِ التي نشروها سابقاً، بشرط أنْ يَرجِعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدَورهم الأوَّل؛ لأنَّ هذا العالَمَ الخاويَ لا يستطيعُ الصُّمودَ أمامَ رُوحِ حضارتِهم».

وبالجملة، فقد اتَّفق هؤلاء المفكّرون العشرة في أجوبتهم على عددٍ من الخطوط العريضة التي تمسُّ واقع المسلمين في عصرهم، على رأسها:

1. ضرورة التفريق بين حقيقة الإسلام كدينٍ سماويّ منزَّل مِن لدن حكيمٍ خبير، وبين أوضاع منتسبيه – المسلمين – في القرون الأخيرة، فنجدهم يستقبحون المظاهر البدعيَّة التي انتسبت إلى الصوفيَّة كالصياح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات، وغيرها من تلك المظاهر المنافية لحقيقة الإسلام.

---

(1) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم: 53 – 54.

(2) وُلِد في بريطانيا عام 1875م، ونشأ يتيماً، عُرِف باعتنائه بشؤونِ الشرقِ الأوسط، وزارَ العالَم الإسلاميّ قبل إسلامه، وبعدَ إسلامه قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية بأسلوبٍ أدبيّ، لتصيرَ ترجمتُه من أوائل الترجمات الصحيحة لمعاني القرآن، وحَظِيَتْ بموافقة الأزهر الشريف في مصر، تُوفّي في بريطانيا عام 1936م، ودُفِن بمقابر المسلمين.

2. الاتّفاق على ردِّ مقولات فلاسفة الحداثة الغربيَّة، التي زعموا فيها أنَّ الديانات هي التي تسبَّبت في تقييد حرية الإنسان عن المدنيَّة، مستشهدين في ذلك بمدنيَّة المسلمين التي انبثقت عن أصول دينهم الحنيف، وهي التي شَهِد لها فريقٌ من منصفي فلاسفة الغرب أنفسهم.

3. المصالحة بين العلوم الشرعيَّة والكونيَّة وتجاوز الصراع المفتعل بينها في القرون المتأخرة، بما يتطابق مع حقيقة العلم في الإسلام، والتطبيق العملي لهذه المصالحة من خلال الدعوة إلى إنشاء بعض المدارس مثل (مدرسة الزهراء) في تركيا، و(مدرسة العلوم العالية) في مصر.

4. نبذ التقليد الأعمى للغرب، والذي أدى بأنصاره إلى حالةٍ انهزاميَّة أمام الحضارة الغربيَّة المهيمنة، وعدم إدراك مكامن القوَّة الذاتية التي تمتلكها الأمَّة.

5. ضرورة الوعي بقوانين الطبيعة وامتلاك ناصية العلوم المستمدَّة من هذه القوانين، مع التحذير من الأخذ بالمذاهب الفكريَّة الغربيَّة التي تتعارض مع صحيح الدين.

إلا أنَّهم قد اختلفوا في أنجع الطُّرق الموصلة إلى تجاوز أسباب ذلك التأخُّر الحضاري، نتيجةً لاختلاف مدارسهم الفكريَّة التي انطلقوا منها في أجوبتهم

وتحليلاتهم؛ فمنهم مَن غلَّب الطريق السياسي مثل عبد الله النديم وعبد الرحمن الكواكبي، ومنهم مَن غلَّب جانب التربية والتعليم مثل محمد فريد وجدي وبديع الزمان النُّورسي والطاهر ابن عاشور؛ فكان تغليب بعض الجوانب الإصلاحية على الأخرى هو السمة المميزة لإسهاماتهم الفكريَّة في الإجابة عن سؤال العصر.

ونجد عند النظر أنَّ بعضهم قد حاولَ تفعيل الطاقات المعطَّلة في الأمَّة لتجاوز أسباب التأخُّر كما فعل محمد الغزالي. أمَّا محمد أسد، فنظراً لنشأته الغربيَّة واعتناقه للإسلام فقد ركَّز على ضرورة عرض الإسلام كما هو دون إخضاعه لمحاولات تكييفه حسب مقتضيات المدنيَّة الغربيَّة، لذا فقد جاءت أجوبته معبرةً عن حقيقة الإسلام الأصيلة، بعيداً عن الثقافات الغربيَّة الوافدة على بلاد المسلمين.

كما أنَّ أجوبة شكيب أرسلان قد جاءت في سياق الفترة الزمنيَّة التي مرَّ بها العالَم الإسلاميّ بين الحربين العالَمَّتين الأولى والثانية، بكلّ ما حملته تلك الفترة من عوامل التقهقر والتراجع كفقد الثقة بالنفس والجمود على القديم، إضافةً إلى الجهل الذي كان متفشِّياً حينئذٍ على نطاقٍ واسع في أجيال المسلمين، فقدَّم أجوبته في محاولةٍ لإعادة الثقة بالنفس الذي هو السبيل لتجاوز

الكثير من تلك الأسباب. أمَّا أبو الحسن الندوي، فقد جاء تركيزه على أعراض التأخُّر التي رآها باديةً للعيان من شرق العالَم الإسلاميّ إلى غربه، وعلى رأسها انسحاب المسلمين من ميادين الحياة وتنازلهم عن قيادة العالَم وإمامة الأمم.

والخلاصة أنَّ هذه المسارات التي سَلَكَها مفكّرو العصر الحديث في تناولهم لأسباب التأخُّر، تشكِّل في مجملِها خطوطاً عريضة لطريق التحرُّر من الأمراض الداخليَّة والخارجيَّة للأمَّة، وذلك من خلال العمل على معالجة كلِّ مسارٍ من هذه المسارات بشكلٍ منفصل.

والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

لائحة المصادر والمراجع

1. **عبدالله النّديم**

2. **بِمَ تقدّم الأوروبيّون وتأخّرنا .. والخلقُ واحد؟!**، عبدالله النّديم، تحقيق ودراسة: د. محمد عمارة، دار البشير، القاهرة، الطبعة الأولى، 1436هـ/2016م.

3. **التنكيت والتبكيت**، من تراث عبدالله النّديم، دراسة تحليليَّة: د. عبدالمنعم إبراهيم الجميعي، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، 1994م.

4. **محمَّد فريد وجدي**

5. **المدنيَّة والإسلام**، محمد فريد وجدي، تقديم: معتز شكري، مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع دار الكتاب المصري (القاهرة) – دار الكتاب اللبناني (بيروت)، 1434هـ/2012م.

6. **مهمّة الإسلام في العالَم**، محمد فريد وجدي، تحقيق د. محمد رجب البيومي. النادي الشبابي، الطبعة الأولى، 1409هـ/1989م.

7. **محمَّد فريد وجدي: الكاتب الإسلامي والمفكّر الموسوعي**، د. محمد رجب البيومي، سلسلة أعلام المسلمين (86)، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م.

8. **محمَّد فريد وجدي: حياته وآثاره**، د. محمد طه الحاجري، معهد البحوث والدراسات العربيَّة، جامعة الدول العربيَّة، 1970م.

9. **محمَّد فريد وجدي: رائد التوفيق بين العلم والدين**، أنور الجندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.

10. **عبد الرحمن الكواكبي**

11. **عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة**، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م.

12. **عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدّد الإسلام**، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1408هـ/1988م.

13. **محمَّد الطَّاهِر ابن عاشور**

14. **أليس الصبح بقريب: التعليم العربيّ الإسلاميّ – دراسة تاريخيَّة وآراء إصلاحيَّة**، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس – دار السلام، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1439هـ/2018م.

15. **الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: حياته وآثاره**، أ.د. بلقاسم الغالي، دار سحنون، تونس – دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، 1437هـ/2016م.

16. **الشيخ محمَّد الطاهر ابن عاشور وقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلاميّ المعاصر: رؤية معرفيَّة ومنهجيَّة**، تحرير: فتحي حسن ملكاوي، المعهد العالَميّ للفكر الإسلامي، فرجينيا (الولايات المتحدة الأمريكيَّة)، الطبعة الأولى، 1432هـ/2011م.

17. **بديع الزَّمان سعيد النُّورسي**

18. **كليات رسائل النُّور**، بديع الزَّمان سعيد النُّورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصَّالحي، دار «سوزلر» للنشر، فرع القاهرة، الطبعة الثانية، 1412هـ/1992م.

الجزء الأول: **الكلمات**.

الجزء الثاني: **المكتوبات**.

الجزء الثالث: **اللَّمعات**.

الجزء الرابع: **الشُّعاعات**.

الجزء الخامس: **إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز**.

الجزء السادس: **المثنوي العربي النُّوري**.

الجزء السابع: **الملاحق في فقه دعوة النُّور**.

الجزء الثامن: **صيقل الإسلام، آثار سعيد القديم**.

الجزء التاسع: **سيرة ذاتية**.

19. **سعيد النورسي: رجُل القَدر في حَياةِ أمَّة**، أورخان محمد علي، مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول، الطبعة الأولى، 1440هـ/2019م.

20. **سعيد حليم باشا**

21. **الرسائل الكاملة للمفكّر التركي سعيد حليم باشا**، ترجمة: د. رامي البنا، مؤسسة وعي للأبحاث والدراسات، الدوحة، الطبعة الأولى، 2024م.

22. **محمَّد أسد**

23. **الإسلام على مفترق الطُّرق**، محمَّد أسد، ترجمة: د. عمر فَرُّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، لا يوجد سنة للنشر.

24. **الطريق إلى مكّة**، محمَّد أسد، ترجمة: رفعت السيد علي، منشورات الجمل، بغداد – بيروت، الطبعة الأولى، 2010م.

25. **شكيب أرسلان**

26. **لماذا تأخَّر المسلمون؟ ولماذا تقدَّم غيرهم؟**، الأمير شكيب أرسلان، مجلة الدوحة، وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، العدد (87)، يناير 2015م.

27. **أبو الحسن الندوي**

28. **ماذا خسر العالَمُ بانحطاط المسلمين**، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة السادسة، 1436هـ/2015م.

29. **تأمُّلات في القرآن الكريم**، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1420هـ/1999م.

30. **شخصيات وكتب**، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.

31. **روائع إقبال**، أبو الحسن الندوي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1379هـ/1960م.

32. **أبو الحسن الندوي: العالِمِ المربِّي والداعية الحكيم**، د. محمد أكرم الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م.

33. **محمَّد الغَزالِي**

34. **سِرُّ تأخُّر العرب والمسلمين**، محمَّد الغَزالِي، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة السابعة، مارس 2005م.

35. **جَدِّد حياتك**، محمَّد الغَزالِي، دار القلم، دمشق، الطبعة العشرون، 1439هـ/2018م.

36. **خُطَب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدِّين والحياة**، قطب عبدالحميد قطب، دار الاعتصام، القاهرة، لا يوجد تاريخ للطبعة.

37. **مصادر متنوّعة**

38. **المعجم الوسيط** (من إصدار مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية)، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 1425هـ/2004م.

39. **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، خير الدِّين الزركْلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، أيَّار/مايو 2002م.

40. **الإسلام وأوضاعنا القانونيَّة**، عبدالقادر عودة، الطبعة الثانية، 1386هـ/1967م، لا يوجد محل للنشر.

41. **إخراج الأمَّة المسلمة وعوامل صحّتها ومرضها**، د. ماجد عرسان الكيلاني، سلسلة كتاب الأمَّة (30)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الطبعة الأولى، صفر 1412هـ.

42. **أسباب الضعف في الأمَّة الإسلاميَّة**، د. محمَّد السيد الوكيل، دار المجتمع، جدَّة، الطبعة الأولى، 1414هـ/1994م.

43. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين، مكتبة الآداب، القاهرة، 2009م.

44. **جاذبيَّة الإسلام الروحيَّة: لماذا أسلمَ هؤلاء؟**، د. أحمد عبدالرحمن، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م.

45. **الأزهر وأثره في النهضة الأدبيَّة الحديثة**، د. محمد كامل الفقي، كتاب مجلة الأزهر، السنة (97)، الأجزاء (10، 11، 12)، شوال – ذو القعدة – ذو الحجَّة 1445هـ/ أبريل – مايو – يونيو 2024م.

46. **المسلمون وسؤال النهضة**، أ.د. محمد زرمان، مجلة الإحياء، كلية العلوم الإسلاميَّة، جامعة باتنة 1، الجزائر، العدد الثامن، 1425هـ/2004م.

47. **هي هكذا: كيف نفهم الأشياء من حولنا؟**، د. عبدالكريم بكَّار، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، 1434هـ/2013م.

48. **أسباب نهوض الأمم: الدولة العثمانيَّة نموذجاً**، محمَّد وائل الحنبلي، دار الرياحين، عَمَّان، الطبعة الثالثة، 1443هـ/2021م.

49. **إعادة اكتشاف التراث الإسلاميّ: كيف غيّرت ثقافة الطباعة والتحقيق عالَمنا الفكريّ؟**، أحمد الشمسي، ترجمة: د. عبدالغني ميموني – د. أحمد العدوي، مركز نهوض للدراسات والبحوث، بيروت، الطبعة الأولى، 2022م.

50. **مرمدوك بِكثال: مسلم بريطاني**، بيتر كلارك، ترجمة: أحمد بن يحيى الغامدي، منتدى العلاقات العربيَّة والدوليَّة، الدوحة، الطبعة الأولى، 2015م.

51. **المجموعة الكاملة لأعمال الشيخ صالح بن عبدالرحمن الحصين**، تحرير: اللجنة العلميَّة بمركز تكوين، تكوين للدراسات والأبحاث، لندن، الطبعة الأولى، 1444هـ/2022م.

الفهرس

تقديم إدارة البحوث والدراسات الإسلامية 5

المقدمة 7

لحظة الصِّدام وميلاد السؤال 9

– ثلاثة مذاهب رئيسة 11

عبد الله النّديم 23

محمّد فريد وجدي 48

عبد الرحمن الكَواكِبِيّ 76

بديع الزَّمان النُّورسي 95

سعيد حليم باشا 110

الطاهر ابن عاشور 133

محمَّد أسد 155

شكيب أرسلان 177

أبو الحَسَن الندْوِي 204

محمَّد الغَزالِي 223

الخاتمة 243

الفهرس 255

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: 44700619

ص.ب: 422**الدوحة قطر**

موقعنا على الإنترنت:

www. Islam.gov.qa

E. Mail :M_Dirasat@Islam.gov.qa

كتاب الأمة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
Ministry of Endowments and Islamic Affairs
State of Qatar • دولة قطر

سلسلة دورية محكَمة تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

من شروط النشر

- أن يهتم البحث بمعالجة المشكلات والظواهر السلبية في الحياة المعاصرة، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- ألا يكون سبق نشره من قبل، أو تم عرضه على أيّ جهة أخرى.
- أن يشكل إضافة جديدة في موضوعه، ويُوثق علميًا؛ بذكر المصادر، والمراجع، مع توثيق الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- للإدارة الحق في إجراء التعديلات التي تراها مناسبة، دون أن يكون في ذلك إخلال بمضمون البحث.
- أن لا يقل عدد الكلمات عن (30 ألف)، ولا يزيد عن (40 ألف) كلمة.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.
- للوزارة الحق في الاحتفاظ بأسباب الاعتذار عن عدم النشر.
- ترسل البحوث عبر البريد الإلكتروني بصيغة: (WORD) و(PDF).

هذا الكتاب.. دراسة فكرية ثقافية مهمة، تستدعيها ظروف الحاضر وواقع الحال الذي عليه المسلمون اليوم.. تُعنى بالبحث عن الأسباب الحقيقية التي تقف وراء التخلف الحضاري للمسلمين، على كافة المستويات، وتلك التي أدت ولا تزال إلى تقدم غيرهم.

تتمحور الدراسة حول سؤال العصر: «لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟» الذي ظل يشغل بال كثير من المفكرين المسلمين، على مدى أكثر من قرن من الزمان، وتتميز بأنها وإن كانت تعيد طرح السؤال وتحاول الإجابة عنه، إلا أن ذلك يتم من خلال ما انتهى إليه عشرة أعلام من رموز التيار الإصلاحي: (عبد الله النّديم، محمّد فريد وجدي، عبد الرحمن الكواكبي، محمّد الطاهر ابن عاشور، بديع الزّمان سعيد النُّورسي، سعيد حليم باشا، محمّد أسد، شكيب أرسلان، أبو الحَسَن الندْوي، مُحمّد الغَزالِي)، الذين اتخذوا من ثوابت الأمَّة العقدية، ومن إيمانِهم بضرورة الجمع بين الأصالة والمعاصرة، أساساً ومنطلقاً للنظر والبحث عن مسبِّبات التأخُّر.

وقد اتفق الأعلام العشرة على: ضرورة التفريق بين حقيقة الإسلام كدينٍ سماويّ منزَّل مِن لدن حكيمٍ خبير، وبين أوضاع منتسبيه – المسلمين – في القرون الأخيرة؛ كما اتفقوا على أهمية الردِّ على مقولات فلاسفة الحداثة الغربيَّة؛ وإلى المصالحة بين العلوم الشرعيَّة والكونيَّة وتجاوز الصراع المفتعل بينها في القرون المتأخرة؛ ونبذ التقليد الأعمى للغرب؛ وضرورة الوعي بقوانين الطبيعة وامتلاك ناصية العلوم المستمدَّة منها... وغير ذلك.

وتأتي أهمية الكتاب من أن المسارات، التي سَلَكَها هؤلاء المفكرون العشرة تشكل بمجموعها خطوطاً عريضة لطريق التحرُّر من الأمراض الداخليَّة والخارجيَّة للأمَّة.

استمارة تقديم مشروع
لسلسلة « كتاب الأمة »